

دراسات في البلاغة

عند ضياء الدين بن الأثير

دكتور

عبد الواحد حسن الشاذلي

كلية التربية - جامعة الإسكندرية

مؤسسة شباب الجامعة

للطباعة والنشر والتوزيع

تليفون: ٤٩٣٩٤٧٢ إكس ٤٩٣٩٤٧٢

اهداءات ٢٠٠٢

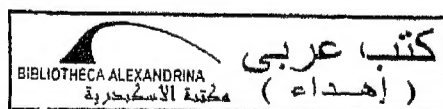
أد/ مصطفى الصاوي الجويني

الاسكندرية

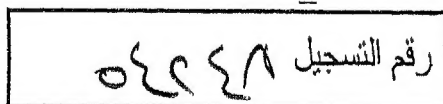
دراسيات في البلاغية

عند ضياء الدين بن الأشير

دكتور
عبد الواحد حسن الشيخ
كلية التربية - جامعة الاسكندرية



١٩٨٦



الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٤٩٣٩٤٧٢ الاسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

(١)

الحمد لله رب العالمين ، خالق الانسان ، ومعلمه صنعة البيان ،
والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد ، وأبان عن مرامي
الكلام ، القائل : أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ، صلاة ،
وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الفصل بين الأولين والآخرين :
وبعد

فقد وصف القرآن الكريم العرب بأنهم قوم خصمون ، وأنهم
دووا ألسنة حداد ، بل كثيرا ما وصفهم باللسن والفصاحة ، ومن
ثم كان تحديه لهم * وكانت آلتهم التى يتباهون بها على غيرهم ،
بل على بعضهم بعضا بلاغة الكلام وفصاحته ، وقد خلفوا لنا تراثا
قيما ، طبع بالسليقة ، والاقتدار ، ولم يأت من فراغ ، فمن شب على
شئ شاب عليه فذلك كانت عادة شبابهم وشيبيهم *

وكانت البلاغة عند عامتهم تعنى الابانة والوضوح ، ومراعاة
المقال للمقام ، غير أنهم لم يطلقوا الأسماء على المسميات ، بل كانوا
يأتون بالصورة البليغة التى تعبر بصدق عما يجيش بداخل المتكلم ،
بلغة رصينة وأسلوب جميل ، ومن ثم جاء صدق الصورة الفنية مهما
كانت المبالغة فيها *

ومن الله على العرب بانزال القرآن الكريم بلغتهم فأيد ما كان
جميلا يوافق الشريعة الغراء ، ونفى الزيف والبهتان ، بالاضافة
الى أنه أثراها بالعديد من الصور البلاغية التى هى وفق لغة العرب ،

وان فاقنا ما جاء به العرب ولا عرو فان المسك بعض دم الغزال ، كذا
يقال . تم دخل الناس في دين الله أفواجا ، لا فرق بين عربي ،
ولا عجمي الا بالتقوى والوقوف على ما جاء بكتاب الله وسنة نبيه
— ﷺ — ففتحتم عليهم أن يتقنوا لغة القرآن الكريم ، لأنهم
رأوا صورا وقفوا حيالها مبهورين ، وتحتاج الى تأمل وتدبر ، تكون
أحيانا تنسبها ، وأخرى كناية ، وثالثة استعارة أو مجازا . وقد
تزخرف بلون من ألوان فن البديع ، أو تكون وفق أساليب علم
المعاني ، وهذه أمور تحتاج الى دراسة وتعمق ، فتمسروا عن ساعد
الجد ، واستعدوا للدرس والبحث ، غير أنهم كانوا مزودين ، بل
تسيطر عليهم ، آراء المذاهب الكلامية المتباينة بما فيها من تقسيمات
وتفريعات ، نقلوها للبلاغة ، فكان علم أو فن المعاني ، تم البيان
فالبديع ثالث الثلاثة . مما لم يكن تسائعا عند العرب الاقدمين ، قبل
عصور التدوين .

وبدأت هذه التقسيمات هيئة يسيرة ، لكنها وفق نظرية
النشوء والارتقاء ، تعددت وتفرعت على أيدي كل من اهتم بالبلاغة ،
من الأصوليين ، وعلماء الكلام ، الذين تأثروا بالمنطق الأرسطي
وتفريعاته وحدوده وجدله وأيضا على أيدي علماء اللغة والنحو
فكان لكل منهم وجهة هو موليا ، وركية ينهل منها .

وتبعنا لذلك سيطر على الدراسات البلاغية مدرستان ، مدرسة
كانت تعنى بالذوق ، وتعجب بالصورة الفنية ، ومدى ملاءمتها لما
يحيط بها ، وأخرى سيطر عليها المنطق وجفافته ، وتقسيماته
وتفريعاته ، فالأولى هي مدرسة الأدباء ، والأخيرة مدرسة المتكلمين
والمناطق .

وللاسف فان المدرسة الأولى توارت واختفت ، وراء المدرسة
الثانية التي ما تزال تبسط سلطانها على الدرس البلاغي الآن —

الا قليلا من بعض اللمحات الذوقية — ، فنجد من يتناول أى فن من فنون البلاغة ، يعنى بالحدود الظاهرة فقط ، ولم يكلف نفسه سبر أغوار الصورة البلاغية التى أمامه ، ولو فعل لكان خيرا له وللبلغة وفنونها ، لكنه معذور وغير معذور فى ذلك ، معذور لأنه وجد آباءه كذلك يفعلون ، فكان لافرق بين درس البلاغة ودرس النحو ، أو اللغة ، فالجفاف هو القاسم المشترك الأعظم بين كل • وغير معذور لأنه لم يكلف نفسه تذوق الصورة الفنية ، فيسبر أغورها ، ويفض أختامها ، ويستنطق عجماءاتها ، ويتلذذ بجمالها ، ان كانت حقا صورة فنية بارعة رائعة الجمال ، أو يظهر سخفها ويوضح زيفها ان كانت سخيصة زائفة فيكون استحسانه أو استهجانها نابعين من ذاته التى تدربت وتمرست بالعديد من الصور البلاغية ، فلا يستحسن اذا استحسّن الآخرون ، ولا يستقبح باستقبحهم •

بالإضافة الى أن الاستحسان أو الاستهجان يجب ان يخدمهما الاطار الفنى وليس الاطار العصرى، فطالما أن الصورة الفنية أوضحت صدق القائل ، وأنابت عما يجيش بنفسه ، فى غير تكلف أو تعسف كانت جميلة أيا كان عصرها وزمنها ، وقائلها أيضا ، اذ المعول على صدق الصورة الأدبية فنيا ، لا صدق نقلها للواقع ، فكلما كانت الصورة الفنية مضمخة بحرارة الانفعال الفريد الأصيل للقائل، كان ذلك معيار التفرقة والاستحسان •

ومهما يكن من أمر فان التأليف البلاغى من لدن الجاحظ حتى السكاكى وانتهاء بالعصور التالية ، عنى بالتفرقة بين قسم وآخر ونوع وعدد وفرع حتى وصل بفن كالبديع الى هذا الحد من الألوان وكان التأليف البلاغى متأثرا فى ذلك بالتيارات العربية الأصلية مضافا اليها التيارات الوافدة من يونانية ، وهندية ، وفارسية وغيرها •

كل ذلك انصهر فى البوتقة العربية ، فخرج هذا المزاج البلاغى المتوحد ومن هنا فلا نستطيع أن نقول عن جزء منه بأنه هندى ، أو يونانى ، أو فارسى ، بعد اصطبائه بالصبغة العربية ، الا أن التيار اليونانى كان ذا حظ — الى حد ما — فى تلوين البلاغة العربية شكلا لا مضمونا حيث ظل المضمون عربيا خالصا .

واحقاقا للحق نقرر أن العربى الجاهلى لم يكن محتاجا لمعرفة المسميات المنطقية ، لأن المولود يولد أولا ، ثم يأخذ اسمه بعد ذلك ، وليس العكس ، وهذا ما حدث للبلاغة العربية ، فهى حقيقة مقرورة فى نفس العربى الجاهلى والاسلامى ، ولكنه كان غير عابىء بالمسميات لان الدلالة واضحة فى ذهنه بل يحتاج الى ذلك من كان من غير العرب ، حيث وضع الدلالات لى يعرف المدلول .

وتبعنا لذلك — وكما سلف القول — فقد نشأ البحث البلاغى فى بيئات اختلفت باختلاف نظرة كل بيئة والعلم الذى يسيطر عليهم ، لذا لونوا البلاغة بألوانهم المتعددة الأدبية ، أو العلمية ، أو اللغوية ، أو الفلسفية المنطقية الكلامية ، وغير ذلك من مشارب متفاوتة فى البيئة الاسلامية الفتية الجديدة .

(٢)

ونصل الى ابن الأثير الأديب ، الكاتب ، الفنان فنجد البلاغة عنده يلونها طابع الذوق الأدبى ، حيث نراه قد استفاد كثيرا من آراء من سبقوه فى الدرس والبحث البلاغى ، ولعل من يقرأ كتبه خاصة الجامع الكبير ، والمثل السائر سوف يجد بونا شاسعا بينه ، وبين غيره ممن فلسفوا البلاغة ومنطقوها ، فلم يقسم البلاغة الى علومها الثلاثة المعروفة المقررة ، بل نظر الى الكلام فوجده عملة

ذات وجهين لفظ ، ومعنى ، فأقام صناعة البلاغة على هذين القسمين وبالتالي قسمها الى قسمين : قسم يعرف بالصناعة اللفظية ، وآخر بالصناعة المعنوية •

وهذا التقسيم حرى بالاحترام والتقدير ، وعلى حد تعبيره فهو لم يقتف فيه أثرا لاحد ، بل جاء هذا التقسيم جديدا كل الجودة ، وابن الأثير محق فى ذلك ، لان واقع البلاغة ، والنظر الصائب اليها يقران ذلك ، فمن يتحقق من البديع سوف يراه مصسنات لفظية وأخرى معنوية ، وبذا لم يفرد له بابا ، كما لم يرض نهج سابقه فلم يلف لفهم ، أو ينحى منحاهم ، بالاضافة الى أنه ابتعد عن المنطق والمناطق فى كلامه عن البلاغة ، ولذا عاب على النحاة الذين منطقوا نحوهم ، وأرادوا أن يمنطقوا البلاغة ، فقال قولته المشهورة فى كتابه المثل السائر « النحاة لا فتيلهم فى البلاغة » لأنه يفهم البلاغة حق فهمهما ، ويعجب بالصورة الأدبية الفنية فينسج على منوالها ، ويصوغ العديد من أمثالها ويضمنها كتبه ، حتى صار عاشقا للبلاغة ، فأنزله مكانا عليا ، وقال عنها أيضا : « ان للبلاغة سجودا كسجود الكتاب » • وقد عرضنا فى الصفحات التالية لآراء ابن الاثير البلاغية ، ولكن وفق التقسيمات التى وضعها غيره من البلاغين ، فضمننا أقسام كل فن الى بعضه بعضا ، من باب مراعاة النظير ، لأننا اعتقدنا انها لو درست كما جاءت عند ابن الأثير لظنت متناثرة •

وقد جمع فى دراسة الصناعة اللفظية أنواعا سبعة فى كتابه « الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور » منها

السجع ، والأزدواج ، والتجنيس والترصيع ، والموازنة ، وما الى ذلك • بينما نراه جعلها فى « المثل السائر » ثمانية أنواع ، والنوع الثامن هو « المناهرة بين الألفاظ فى السبك » هذا بالإضافة الى أنه فى كتابه المثل السائر أوضح دراسة اللفظة المفردة ، واللفظة المركبة التى قصدها بالصناعة اللفظية ، أو صناعة تأليف الألفاظ •

وبينما عد الصناعة المعنوية تسعة وعشرين نوعا فى الجامع الكبير ، جعلها ثلاثين نوعا فى كتابه الآخر وهو المثل السائر ، ولكن ليس ثمة فرق كبير لان الأبواب هى نفسها باستثناء بعض أوجه الخلاف فى التسمية • ومن ذلك تسمية الالتفات فى المثل السائر ، بشجاعة العربية فى كتابه الآخر الجامع الكبير ، وزاد فيه ما أسماه بالتعقيب المصدري ، وكالتجريد الذى لم نره بين الأنواع التسعة والعشرين التى جاءت بالجامع الكبير •

وكما سلف أن أشرنا ، فإنه لم يفرد فى أى من كتبه ، فن البديع بدراسة مستقلة ، فأنفرد عقد هذا الفن بين الصناعة اللفظية والصناعة المعنوية ، فمثلا نراه ضم التجريد والتورية ، وأطلق عليهما الأحاجى كما ضم ، التضمين ، والارصاد ، والتوشيح والسرقات وبعض ألوان البديع الأخرى الى الصناعة المعنوية ، وجعل فى اطار الصناعة اللفظية السجع والجناس ، والترصيع والموازنة ... الخ ، ونكرر ما قلناه سلفا ان الرجل محق فى ذلك والصواب معه لأن فن البديع ثالث الثلاثة يجب أن ينقسم بين فنى المعانى والبيان •

وقد كان الرجل على هدى وبصيرة من أمره حيب حدد هدفه من تأليفه كتبه فقال فى الجامع الكبير : (فحيث أحرزت هذه الفضيلة ، وحصلت عندى هذه العقيلة ، أحببت أن أفرد لها كتابا ، وأفصلها أقساما وأبوابا ، ليكون مقصورا على شوارد هذا العلم وغراثبه ، ورموزه الخفيه وعجائبه ، وليجعله مؤلف الكلام رأس بضاعته ، ويعلم به مواقع الصواب فى صناعته) *

بل ان عناوين كتبه لتدل بنفسها على ما أورده المؤلف منها ، فنجد الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، أو : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، وأيضا : المفتاح المنشأ لحديقة الانشا ، والوشى المرقوم فى حل المنظوم والمنثور ، وكلها قواعد وقوانين يجب أن يسير عليها الكاتب فى ديوان الانشاء حتى يصير صانعا محترفا فى مهنته ، ولاعجب فى ذلك فهو استاذ الكتاب ، وتلميذ القاضى الفاضل مما جعله حريصا على هذه الصناعة لدرجة انه قد اقترح وجود محتسب ليحاسب فاسدى الكتاب وجاهلهم *

وما نقدمه بين يدى القارئ الكريم ، ما هو الا جهد متواضع أردنا به امانة اللثام عن آراء وأفكار آخر رواد المدرسة الأدبية الذوقية البلاغية ، حيث جفت البلاغة ، ونضبت ركيبتها فيها بعد حتى غدت قواعد وقوالب ومتون تحفظ ويقاس عليها ولا عبرة بمعنى المعنى المخبوء خلف ظاهر الألفاظ *

(ربنا لا ترغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب) *

ومن الله التوفيق والهداية ، انه نعم المولى ونعم النصير *

د / عبد الواحد الشيخ

البلاغة
عند ابن الأثير

« ان للبلاغة سجودا
كسجود الكتاب »
ضياء الدين بن الأثير

تكلم ابن الأثير كثيرا حول صناعة الكتابة ، فأوصى الكتاب والشعراء بما يجب عليهم أن يعرفوه ، بل ما يتقنوه فى نظمهم ، ونثرهم ، غير أن الناظم يجب عليه أن يعرف العروض ، والوزن حتى يستقيم كلامه ، وهذا ليس شرطا للنثر ، ومن ثم وجدنا كتبه للنثر والشاعر أى فى صناعة النثر والكتابة ، وان كان فن الكتابة قد شغل باله واستحوذ على لبه ، فسيطر على معظم كتبه ، كما سبق أن بينا ، لذا وجدناه دائما يوجه كلامه وكتاباتة الى جماعة الكتاب ، وكما رسم لهم طريق اصول وأركان الصناعة فانه فى هذه الصفحات سوف نراه يرسم لهم طريق زخرفة وصحة العبارة لفظيا ومعنويا ، فهو الوجه الآخر لصورة واحدة لا تستقيم ، ولا تكمل الا اذا اجتمع هذين الوجهان ، أو الروح والجسد ، فبهما معا دون أحدهما تحيا صناعة الكتابة ، ومن هنا فان ابن الأثير فهم الصلة ، بل وثقها بين الكتابة وعلم البلاغة والفصاحة بأصوله وفروعه .

وفى عجاله سريعة نقول : ان العرب كانوا يتكلمون لغتهم نحوا وبلاغة وتصريفا بالفطرة والسليقة ، يتقنها القائل ويفهمها السامع ويدرك ما فيها من جمال نابع من التناسق اللفظى والمعنوى ، وكان الابناء خير خلف لخير سلف ، ولذا وجدنا القرآن الكريم يصف العرب فى جاهليتهم ، بأنهم قوم خصمون ، وأنهم ذووا ألسنة حداد ، فالله سبحانه وتعالى وصفهم بهذا الوصف ليخبرنا من ناحية عن فصاحتهم ومعرفتهم بالالفاظ والمعانى ، وكيف ، ومتى تستخدم . ولكى يدل على قوة عارضتهم وبراعة معرفتهم بالبيان من ناحية أخرى ، ولذا وجدنا القرآن الكريم يتحداهم بأن يأتوا ولو بأية من

القرآن الكريم ، وما كان الله سبحانه وتعالى ليتحداهم هذا التد
الا وهو سبحانه عالم عارف بلسنهم وفصاحتهم وقوتهم على ا
البليغ .

ولذا فاننا نبيح لأنفسنا القول بأن البلاغة والف
سمتان اساسيتان متلازمتان لناطقي الضاد من لدن جاء
الجاهلة ، حتى عصور الاحتجاج قبل أن تختلط الألسن ، و
اللهجة العربية ، بين خضم اللهجات أو اللغات الأخرى لأولئك
الذين دخاوا في دين الله أفواجا فامتزجت الألسن ، واختلط ا
بالنابل ، والعربى بالأعجمى ، ففسدت اللغة بفساد مت
وطبائعهم ، بما في ذلك العرب أنفسهم .

وكانت الركبة العذبة ، والمورد الصافى المشرب ، الخالي
الكدر ، والرنق وردا مورودوا لكل ناهل فهم فيه سواء ، لا
بين عربى ، وأعجمى الا بقدر ما يحسن ويحفظ ويتمثل من
الركبة ، أعنى القرآن الكريم فكلهم ناهل منه ، وكلهم شاخص
يتلوه ، ويحفظه ، ويتذوقه ويقف على براعة تصويره وقوة ترك
وسحر بيانه ، وجميل نظمه ، ونظيم لفظه وحلاوة معناه ، و
أيضا يتسامى للوصول الى كنه اعجازه وبيان سحر بلاغته ف
الوطيس بين الادباء ، وعلماء الكلام في بيان اعجاز القرآن و
في ذلك طرائق قدردا ، فتكاثف العجاج ، وشجر الخلاف
المتكلمين ، وبين الادباء ، بل بين علماء الكلام أنفسهم ، والا
أيضا في بيان وجوه تحسين الكلام حتى يرتقى في مدارج البلا
قبعض القوم مال الى رصين الكلام الجامع بين العذوبة والجز

وقوة العبارة ونصاعتها • وبعضهم أولع بالمنمق الموشى بألوان
البديع •

ولذا آضت الحالة ملحة الى وضع قوانين للبلاغة والفصاحة ،
وقواعد تقعد أصولها وفصولها ، وتكون دستوراً يهرع اليه عند
الاختلاف فتكون ميزاناً يقيم المعوج ويصلح الفاسد ، كما تكون
ناموساً للناظرين فى الأدب العربى منثوره ومنظومه •

وقد ساعد بعض من اتقن غير العربية ، من يونانية وفارسية
وسريانية وغير ذلك فى اثراء البحث البلاغى ، وتقنيته وتبويبه ،
وبين هذا التلاقح الفكرى نشأ البحث البلاغى المنظم ، لان من
يتقن العربية وغيرها من اللغات قارن وبحث عن أوجه البلاغة
والفصاحة أصولاً ، وفروعاً فيما يتقنه من لغات ثم ينقله الى العربية
بعد أن يهذهه ويترجمه ويجعله مسائراً لما فى لغة العرب ، ولن
نذهب بعيداً فعندنا الأمثلة ماثلة فى كتب ابن الاثير — التى بين
أيدنا فكان يتقن الى جانب العربية بعض اللغات الأخرى ، ففى
أثناء كلامه عن الكناية مثلاً يقول : (وما وجدته من الكناية فى
لغة الفرس ...) (١) • ونقرأ له أيضاً قوله (واعلم أن
هذين القسمين من الكناية والتعريض قد وردا فى غير اللغة
العربية ، ووجدتهما فى اللغة السريانية فان الانجيل الذى بأيدى
النصارى ، قد أتى منهما بالكثير ...) (٢) • لكن ليس معنى هذا ان

(١) المثل السائر ص ٣٩١ •

(٢) المثل السائر ص ٣٩١ •

البحث البلاغى العربى ، أو البلاغة العربية كانت فقيرة ، أو كانت محتاجة الى من يساندها لكى تقوم علما ، كلا ، فان البلاغة العربية، استحصدت مرتها ، مثلها فى ذلك مثل باقى علوم العربية كالنحو واللغة ، فكان العرب يستعملون الألوان البلاغية كلها بالسليقة عدا القليل من أبواب البديع كلزوم مالا يلزم مثلا - وكانوا أيضا غير محتاجين لمن يعلمهم اياها ، أو يوقفهم على اسمائها ، والدليل على ذلك أدب فترة ما قبل الاسلام - فانه يعج بهذه الألوان البلاغية لدرجة ان امرأ القيس قد شهد له كل من تكلم عنه بأنه برع فى التشبيه بدرجة لم يسبقه اليها غيره من شعراء العربية .

غير ان الذى نعنيه من معرفة لعانت غير العربية ، هو التلاقح الفكرى بين المعانى العربية وغير العربية خاصة اليونانية ، التى اعتبرت عند بعض علماء العربية ، بل تساع عند الجميع ان هذذ اللغة هى التى أمدت اللغة العربية بكل ما كان ينقصها نحوا ، ولغة ونظما وبلاغة فهذا قول جائر حائف ، يغمط حق اللغة العربية وينتقصها قدرها فاذا كانت الثقافة اليونانية ، وخاصة الفلسفة قد أثرت فى الفلاسفة وعلماء الكلام المسلمين ، فان العلوم العربية الأصيلة لم تكن قاصرة حتى تتوكل على اليونانية ، وليس كتاب الخطابة والشعر قرآنا ، انتظره علماء العربية حتى يتقنوا ما جاء بلغتهم . بل كان كل شىء ثابتا مقرورا فى لغة العرب وتكلموا به : وورد فى أشعارهم وأقوالهم ، ومن أراد أن يجادل فى العقائد يمه شطر كتب فلاسفة اليونان ، ويومها تساع عند علماء العرب أن من تمنطق ترندق ، لكنهم احتاجوا الى كل ما فى اللغة من الوان

وأساليب لكي تعينهم على دحر خصومهم والانتصار عليهم وخاصة فى أبحاث العقائد والجدل الذى دار حولها ، أما من ناحية اعتماد البلاغة العربية على علوم اليونان فهذا أمر مريب عندى مشكوك فى صحته يحتاج الى الكثير من القرائن والادلة حتى تقوم دليلا ، ولن توجد هذه الأدلة الا اذا افترضنا أن العربية كانت قاصرة عن الوفاء بحاجة ابنائها ، وهذا أمر مدفوع بشعر العرب ونثرهم ، بل بقرآن الاسلام والمسلمين •

والذى نقوله بعد هذا كله هو أن بعض من اتقنوا العربية ، وجادلوا فى مسائل العقيدة ، استعانوا بالفكر الفلسفى اليونانى ، وخلصوا لهم منه فكرا فلسفيا عربيا ، أسس على الأصول العربية ، وهؤلاء هم طائفة المتكلمين أو الفلاسفة ، وظل قوم آخرون على عربيتهم وأدبها ، فكانوا يسيرون فى بحوثهم وتعليمهم وتعلمهم على طريقة العرب البلغاء ، لاعلى طريقة العجم وأهل الفلسفة •

يقول د/ عبد اللطيف حمزة عن طريقة العجم ، وطريقة العرب فى البلاغة (ان الطريقة الأولى — وهى طريقة العجم — على حد قولهم — كانت تفهم البلاغة فهما أدنى الى العلم ، وكانت تعنى بالمصطلحات البلاغية ، وتشرح الغرض منها وتقلسف هذا الشرح •

وأما الطريقة الثانية وهى طريقة العرب فكانت تفهم البلاغة فهما أدنى الى الأدب المحض ، وكانت تعنى بالشواهد والنماذج بقصد تربية الذوق ، ومن ثم كانت تنجح هذه الطريقة الى الاقلال

من الأصول ومن القواعد . ومن ذكر المصطلحات البلاغية بدلا
من ذكر الشواهد والأمثلة (٣) .

وكان لزاما على الكاتب في ديوان الانشاء أن يقف على
الطريقتين ويحذر المذهبيين . فالدولة الاسلامية ليست وقفا على
العرب وثقافتهم بل دخلت ثقافت جديدة على تصفه العرب . لها
شعلا ، ونفعا . وقد وجد ابن الأثير نقل خريص . يروي
من يقرأ كتبه سوف يجده قد غنى بمصطلحات ساجية وبشرح
وشرحها وفلسف هذه التسمية كما سوف نرى بدءا باسمه على
الكتاية والتعريض . أو المصطفى مدنا . بالإضافة الى أنه غنى بسواهد
وأورد كثيرا من النماذج وحنه وبين ما عيب من جمال وروعته
أو قبح وسحق وضيق ذلك على لأدب بهدف تعليم ناسء النقاد
وتربية ذوقهم على ملكة البلاغة والفصاحة . خاصة أنه ضوف
بين مشرق الدونه الاسلاميه ومعربها واتصل بكل الفئات الأدبيه
والثقافية فى المدن الاسلاميه .

ففى كتاب المنى السائر نجد ابن الأثير قد جعل الصناعة
الأدبية الانشائية أساس البحث . كما أن الأحكام النقدية التى أوردتها
مدعومه بتجاربه وملاحظاتة . حيث تناول أكثر الفنون البلاغيه
على أساس جديد نوع ما غنى التقسيم . فافرد الصناعة النظميه
فى جانب ، والمعنويه فى جانب آخر وقد بنى هذا الكتاب على مقدمه

(٣) الفلقشندى فى كتابه صبح الاعشى ص ٦١ ، ٦٢ .

ومقالتين ، فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتين تشتملان على فروع هذا العلم ، الأولى منهما فى الصناعة اللفظية ، والثانية فى الصناعة المعنوية •

أما كتابة الثانى وهو الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور فهو على منوال المثل السائر ، بل ان فيه أبحاثا موجودة بنصها فيه مما يستحق الملاحظة وان كان قد زاد فيه فصولا كثيرة مثل عنايته باللفظة المفردة بالاضافة الى ابحاث اخرى سوف نتعرض لها عند الدراسة •

وكتابه المفتاح المنشأ لحديقة الانشا (٤) عبارة عن صورة مصغرة للمثل السائر أو للجامع الكبير فبعد ما أورد ما يجب على الكاتب أن يفعله أو يحتره أتى ببعض أبواب علم البيان وشواهد ذلك ، مما يساعد الكتاب فى صناعته ، ويعينهم على أداء رسالتهم •

ومن ثم فان الرجل كان حفيا بالفصاحة والبلاغة ، بل بالبيان بصفة عامة (لأن علم البيان لتأليف النظم ، والنثر بمنزلة اصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام) (٥) بل فى نظره علم البيان بالنسبة لصناعة الكتابة بمنزلة الميزان الذى يقيم أودها ويصلح معوجها لأن (تأليف الكلام مما لا يوقف على غوره ، ولا يعرف كنه أمره

(٤) نفوم الان بتحقيقه •

(٥) المثل السائر ص ٤ •

الا بالاطلاع على علم البيان الذى هو لهذه الصنعة بمنز
الميزان (١) ، فيجعله الكاتب ، ومؤلف الكلام رأس بضاعته ، ويبيع
به مواقع الصواب فى صناعته .

ومن مظاهر احتفائه بالبلاغة والفصاحة ختامه كتابه المش
السائر بفضل البلاغة والفصاحة ، فيرى هذا الفن أشراف الفضا
وأعلاها منزلة ، ومن ثم افتخر به رسول الله ﷺ — ولم يفتد
بشيء سوى ذلك عندما قال : « أنا أفصح من نطق بالاضاد » (٧)
كما أن مرد الاعجاز الى الفصاحة والبلاغة ، فكان المعجزة الكبرى
التي أعجزت العرب وهم من هم فى الفصاحة والبلاغة ، واللس
وبها أيضا يفضل كاتب كاتب ، وشاعر شاعرا ، ومن ثم آلى عل
نفسه فى كتبه التي ألفها أن يضرب بسهم وافر ، ويحقق القول فى ع
البيان ومرد ذلك كله هو أن (يجعله مؤلف الكلام رأس بضاعته
ويعلم به مواقع الصواب فى صناعته) (٨) .

ولما كان علم البيان شغله الشاغل فرق بنيه وبين بعض علو
العربية كالنحو مثلا ، فهما وان اشتركا فى الدلالة العامة حي
ينظران فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى
فان صاحب البيان يمتاز عن النحوى بأنه ينظر فى فضيلة تنا
الدلالة ، وهى دلالة خاصة (والمراد بها أن يكون على هي
مخصوصة من الحسن وذلك أمر وراء النحو والاعراب) (٩) فلي

-
- (٦) الجامع الكبير ص ١ .
(٧) المثل ص ٤٩٩ وما بعدها .
(٨) الجامع الكبير ص ٣ .
(٩) المثل السائر ص ٤ .

للنحوى فى النحو الا السؤال عن الألفاظ والمعانى من جهة الأوضاع اللغوية فقط ، بينما البيانى يبحث عما وراء ذلك من معان مستترة ليس للنحوى صلة بها ، وهو ما يعرف عند علماء البلاغة بمعنى المعنى فلو سئل نحوى مثلاً عن هذه الآية من قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) لتحول ذهنه الى الاعراب من بيان الفعل والفاعل والمفعول ، وليس له دخل فيما وراء ذلك عكس البلاغى فانه يعنى بالنحو والبلاغة ولذا نساع عن البلاغة بأنها النحو المعالى ، وعلى هذا فسر ما فى القرآن والشعر العربى الرصين من آيات الفصاحة والبلاغة مما لا دخل للنحو والاعراب فيه ، بل يتوقف عند حدوده الخارجية فقط .

كما نرى ابن الأثير أيضاً فرق بين وضع علم النحو ، واستنباط اصول علم البيان ، فيتساءل قائلاً (هل أخذ علم البيان من ضروب الفصاحة والبلاغة بالاستقراء من أشعار العرب ؟ أم بالنظر وقضية العقل ؟) (١٠) .

أى أن علم البيان كباقى علوم العربية أخذ بالاستقراء والتتبع لأقوال العرب ، واستنباط الأصول النحوية منهم كما هو شائع ومعروف فى وضع علم النحو الذى أخذت أقسامه بالتقليد ، فهؤلاء العلماء الذين تصدوا لجمع وتقعيد النحو سمعوا عن العرب رفع الفاعل ، ونصب المفعول من غير دليل على ذلك لأن العربى كان

يتكلم لغته بالسليقة ، كما كان غير محتاج لمن يعلمه أسباب رفع
الفاعل أو نصب المفعول ، أو ما أشبه ذلك ، فجاء جماع اللغة
ووضعوا هذه الألفاظ كما سمعوها ، وحاولوا استنباط الأدلة والعلل
لذلك •

بخلاف علم البيان فإنه لم يؤخذ بالاستقراء (لأن العرب الذين
ألفوا الشعر والخطب لا يخلوا أمرهم من حالين : أما أنهم ابتدعوا
ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل ، أو
أخذوه بالاستقراء ممن كان قبلهم ، فان كانوا ابتدعوه عند
وقوفهم على أسرار اللغة ، ومعرفة جيدها من رديئها وحسنها من
قبحها فذلك هو الذى أذهب إليه ، وان كانوا أخذوه بالاستقراء
ممن كان قبلهم ، فهذا يتسلسل الى أول من ابتدعه ولم يستقره (١١) •

والدليل على ذلك هو أن علم النحو مقرر معروف باسمائه
عند علماء النحو ، فالفاعل هو الفاعل من لدن أبى الأسود الدؤلى
الى ابن هشام •

وكذا المفعول ، والفعل بأنواعهما فلا خلاف على ذلك بينهم ،
عدا علم البيان فان علماء قد اختلفوا فيه اختلافا كبيرا وتزايدوا
فيه زيادات كبيرة فهذا مثلا علم البديع أول ما استنبط كان هينا
يسيرا ثم جاء شعراء البديع وأكثروا وتزايدوا فيه حتى نيف على
المائة نوع وقد جاء فى كتاب جوهر الكنز أن أقسام البديع بلغت

سبعون نوعا ، ويعلق د / زغلول سلام على ذلك قائلا (بلغت أقسام
البديع أكثر من ذلك فهي عند ابن منقذ خمسة وتسعون ، وعند
ابن أبي الأصبع في تحرير التعبير مائة وخمسة وعشرون بابا) *
فهذا دليل على أن البيان وعلومه مأخوذة بالابتداع والابتكار ، ولم
تؤخذ بالاستقراء والتتبع وهذا ما يذهب إليه أيضا ابن الأثير ،
ومصادق ذلك قوله (واعلم أنه قد اختلف أرباب هذه الصناعة في
تسمية أنواع علم البيان ، حتى أن أحدهم يضع لنوع واحد اسمين
اعتقادا منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان وليس الامر كما وقع
له بل هما نوع واحد) (١٢) *

ويضرب أمثلة لذلك مما استدركه على علماء البلاغة أمثال
الغانمي فقد عرف التبليغ بقوله : هو أن يأتي الشاعر بالمعنى في
البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكر موضع ، ثم يأتي بها
لحاجة الشعر إليها حتى يتم وزنه فيبلغ بذلك الغاية القصوى في
الجودة ، ويضرب لذلك مثلا قول امرئ القيس :

كان عيون الوحش حول خبائنا . . . وأرسلنا الجزع الذي لم يتقب
فقد جاء بالبيت كاملا قبل القافية وهو :

كان عيون الوحش حول خبائنا . . . وأرسلنا الجزع . . .

فانه قد استكمل عناصر التشبيه في هذا الجزء من البيت فأتى
بأداة التشبيه وهي « كان » ثم بالمتشبه وهو عيون الوحش ثم بالمشبه

(١٢) الجامع الكبير ص ٢٤٠ : وانظر جوهر الكنز ص ٤٨ ، ص ٤٩ حيث قال
(ان من علماء البيان من ذكر في مصنفاته أبوابا وعدها من البيان، ومنهم
من عد تلك الانواع بعينها في مصنفاته من البديع فعلى هذا فيفسر
الفرق بين البديع والبيان في كل المواضع) *

به وهو الجزع ، وتم المعنى بذلك ، غير انه عندما احتاج الى القافية جاء بها فزادت المعنى حسنا وهو قوله «لم يثقب» + ثم أتى بعد التبليغ هذا بباب آخر سماه الاشباع وعرفه بقوله (هو أن يأتي الشاعر بالبيت معلقا بالقافية على آخر أجزائه ولا يكاد يفعل ذلك الا حذاق الشعراء وذلك أن الشاعر اذا كان بارعا جلب بقدرته وذكاؤه وفطنته الى البيت — وقد تمت معانيه واستغنى عن الزيادة — قافية متممة لأعاريضة ووزنه فجعلها نعتا للمذكور كقول ذي الرمة :

قف العيس من أطلال مية فاسال . . رسوما كاخلاق الرءاء المسلسل (١٣)

فانه هنا أيضا استكمل عناصر التثبييه ، ولما احتاج صنع صنع امرىء القيس فأتى بزيادة حسنة وهى قوله « المسلسل » +

فانه تارة يطلق على هذا اسم التبليغ ، ومرة ثانية يسميه الاشباع + ويأتى أبو هلال العسكري ويسمى هذين النوعين بالايغال، ويضرب أمثلة لذلك ببيت ذي الرمة الذى ذكرناه آنفا ، كما يختلف ابن الأثير مع أبى هلال فى تسمية التوشيح فيسميه ابن الاثير بالارصاد للمناسبة بين الاسم والمسمى ، وغير ذلك كثير بين علماء البلاغة (١٤) +

وهذا الاختلاف فى التسمية — كما سوف نعالجه عند ما نتعرض لذكر الكناية ، أو الاستعارة ، أو الطباق ، أو الجناس عند ابن الاثير — دليل على أن هذا العلم ، أعنى علم البيان

(١٣) الجامع ص ٢٤١ .

(١٤) الجامع ص ٢٤٠ .

لم يؤخذ بالاستقراء والتتبع مثل النحو أو اللغة ، بل أخذ بالابتداع ، ومن ثم كان لكل عالم وجهة هو موليتها ومذاق خاص فى تذوق الألوان والأساليب البلاغية ، خاصة فى مرحلة النشوء والارتقاء البلاغى قبل أن تستقر وتستغلظ على سوقها وتصبح علما محدد الاركان والاصول ، عكس النحو الذى أخذ بالاستقراء فاستقرت أصوله منذ ولدت اللغة العربية ، ومنذ أعرب العرب العربى البدوى عما فى نفسه ، ومن ثم يظهر البون شاسعا بين النحوى والبلاغى ، فللنحوى نحوه ، وللبلاغى بلاغته ، وصدق ابن الاثير عندما قال — (النحاة لا فتيلهم فى مواقع الفصاحة والبلاغة ولا عندهم معرفة بأسرارها من حيث أنهم نحاة) (١٥) قد أوقفوا ذوقهم وفهمهم على دراسة النحو فقط ، والنحو بطبيعته جاف جامد فيقفون عند الحدود الخارجية للألفاظ والمعانى لانهم غير قادرين على الغوص داخلها وسبر أغوارها ، واستخراج مكنونها ، ومن ثم لم يفقهوا أسرار البلاغة التى لا تعطى سرها ، ولا تكشف عن مفاتها الا لعالم تمرس بعدد ضخم من الأقوال البلاغية وسبر غورها واستخراج دررها ، وكان خبيرا بصيرا بالتقنية البلاغية ، وفهم أن الكلمة كما تكون حقيقة تكون مجازا ، وعرف كيف يرجح المعنى بين الحقيقة والمجاز ، وهذا لا يتييسر للنحوى ، بل لا يهمنه ذلك لأن له وجهة هو موليتها ، وليس ذلك قدحها أو ذما للنحو

وللنحاة فطبيعة النحو هكذا ولا نكلف الأتسياء ضد طباعها فنكون كمن يرقم على الماء ، فإذا كانت طبيعة النحو تجعل النحو يحفل بعوامل الرفع ، وعوامل النصب وما أنسبه — فان البلاغة تجعل البلاغى يحفل بالحقيقة والمجاز ومواطن البلاغة والفصاحة والاصابة ومراعاة المقال للمقام وما الى ذلك ، وهذا الذى نستنتجه من كتب ابن الاثير ، فنراه ييسط القول فيها ويسمو بها فوق السها والفرقدين بل يحفها بالقداسة مما دفعه أن يقول فيها (ان للبلاغة سجودا كسجود الكتاب) (١٦) بل أثر عنه فى نهاية كتابه الذى اختار فيه من شعر أبى تمام والبحتري وديك الجن والمتنبى أنه قال :

تمتع به علقا نفسيا فانه اخ . : تيار بصير بالامور حكيم

اطاعته انواع البلاغة فاهتدى . : الى الشعر من نهج اليه قويم (١٧)

فكلفه بالبلاغة جعله يفسر فيها القول بقدم راسخ ونفس ضويل وبصر بصير بمواقعها ومواقفها ، فرأيناه تناول بأسهاب الفصاحة والبلاغة ، كما تناول بعض أبواب المعانى ، والبيان والبديع ، وهذا ما سوف نصول ونجول معه فى الصفحات القادمة واول ما نبدأ به هو كلامه عن الفصاحة والبلاغة ان شاء الله فمنه التوفيق وبه الهداية .

(١٦) الوشى المرقوم ص ٤٤ .

(١٧) المثل السائر ترجمة المحقق محيى الدين عبد الحميد ص ييج .

الفصاحة والبلاغة

عند ابن الأثير

تناول كثير من علماء البلاغة والفصاحة ، الفصاحة والبلاغة بالشرح والتفصيل وكان لكل منهم ذوق خاص في فهم دلالة هاتين اللفظتين ، أعنى الفصاحة ، والبلاغة ، فمن قائل بأن الفصاحة شئ غير البلاغة ، ومن قائل بأن الفصاحة خاصة بالألفاظ فقط ، وأن البلاغة خاصة بالمعاني *

فهذا مثلاً أبو هلال العسكري صاحب الصناعتين يبين الفرق بين الفصاحة والبلاغة ، فذهب الى أن البلاغة مأخوذة من قولهم بلغت الغاية ، اذا انتهيت اليها ، ولذا سميت البلاغة بهذا الاسم لأنها تنهى وتبلغ المعنى الى قلب السامع فيفهمه ، فيتمكن في نفسه ، لتمكنه في نفس المتكلم قبل أن يلقيه عليه ثم يخرجها في صورة مقبولة ومعرض حسن (١٨) *

واشترط للبلاغة الصورة المقبولة والعرض الحسن لأن الكلام ربما يكون رت العبارة مهلهل النسيج ، فلا يسمى بليغاً حتى وان أفهم المعنى وكشف المعزى المقصود منه لأن المعول ليس على المعنى فقط ، بل الصورة التي عرض فيها هذا المعنى * فلا بد ان يكون سليم النسيج رائق العبارة *

كما يجعلها صفة للكلام فقط ، وليست صفة للمتكلم فيقال كلام

بليغ ولا يقال متكلم بليغ ، مستدلا على ذلك بأنه لا يجوز أن يوصف الله عز وجل بأنه بليغ لانه لا يجوز أن يوصف سبحانه وتعالى بصفه كان موضوعها الكلام ، وعندما نصف متكلماً بأنه بليغ انما نصفه على التوسع فى الكلام لان حقيقته هو ان كلامه البليغ (١٩) .

لكن ثمة فرقا بين الآلة ، وما ينتج عن هذه الآلة ، واصبح ثمة ترابط بين الآلة ومنتوجها فاذا كانت الآلة جيدة أخرجت ثمارا طيبة ، والعكس صحيح أيضا ، فاذا كان المتكلم لديه القدرة على التعبير السليم استطاع أن ينتقى ويختار ، وهذا ما يعرف بملكه أو موهبة البلاغة ، وهوى هذه الحالة يشبه الصائغ ، فان الدر هو هو لم يتغير ولم يتبدل فاذا أخذنا بعض هذا الدر وأعطيناه لصائغين أحدهما بارع فى صناعته والآخر أقل منه خبرة أخرجنا لنا عقدين متفاوتين ، فالصائغ الماهر الخبير أخرج لنا عقدا يخلب اللب جمالا وحسنا ، والآخر يخرج لنا عقدا ربما ينفر الرائي من رؤيته والدر كما سلف آنفا واحد لم يتغير .

فكذلك الكلام والمتكلم ، فالفاظ اللغة واحدة لم تتغير منذ أن أفصح بها العربى الى وقتنا الحاضر ، وانما العبرة ، بالمتكلم ، فاذا كان خبيرا بصيرا بالالفاظ ودلالاتها وكيفية صياغتها أخرج لنا آيات بينات من البلاغة الرائعة الجميلة ، واذا كان عيبا ، فهمها كانت الالفاظ ، ومهما كانت الدلالات ، فانه سوف يخرج نسجا مهلهلا ، غشا لا طائل من ورائه حتى لو أفهم ما يرمى اليه ويقصده

ومن ثم فأننى ارى الأصوب أن نصف بالبلاغة الكلام والمتكلم
لا مذهب اليه أبو هلال العسكرى •

أما الفصاحة عنده ففيها خلاف ، فرأى قوما يقولون أنها
مأخوذة من قول القائل أفصح عما فى نفسه اذا أظهره ، وهذا
موافق لكلام العرب خاصة قولهم أفصح الصبح اذا أضاء ، وأفصح
اللبن اذا انجلت رغوته فظهر ، فصح وأفصح الأعجمى اذا أبان
وعبر عما فى نفسه وأظهره •

وتبعاً لهذا فان أبا هلال يرى انه اذا كانت الفصاحة بهذا
المعنى ، فانها والبلاغة ترجعان الى معنى واحد ، وان اختلف
أصلاهما فى اللغة ، فكل منهما يعنى الابانة عن المعنى والاظهار
له (٢٠) •

ويورد رأياً آخر فى الفصاحة فقال : (وقال بعض علمائنا
الفصاحة تمام آله البيان) ، وبعد مناقشات تتصل بانه سبحانه
وتعالى وهل يوصف بالفصاحة أو لا يوصف يخلص الى أن الفصاحة التى
هى تمام آلة البيان تكون مقصورة على اللفظ لأن الآله تتعلق باللفظ
دون المعنى والبلاغة انما شئ ١ نهاء المعنى الى القلب فتكون مقصورة
على المعنى (٢١) •

أما عبد القاهر الجرجانى ، فالفصاحة والبلاغة عنده مترادفتان
لأنه رأى أن البلاغة والفصاحة يجب أن تكونا سمة للمعنى لا للفظ

(٢٠) الصناعتين ص ١٦ •

(٢١) الصناعتين ص ١٧ •

واللفظ دال على المعنى ، بل الألفاظ عنده عبارة عن خصائص ووجوه تكون معانى الكلام ، وعن زيادات تحدث فى أصول المعانى (٢٢) ويذهب الى أن المعنى مقدم على اللفظ (فأنت تتوخى الترتيب فى المعانى فاذا تم ذلك أتبعته الألفاظ) (٢٣) فالزينة والفضيلة عنده انما هى للمعانى دون الألفاظ (فغرضنا من قولنا الفصاحة فى المعنى أن الزينة التى من أجلها يستحق اللفظ الوصف بأنه فصيح عائدة فى الحقيقة الى معناه) (٢٤) * ومن تم ييطل وصف اللفظ بالفصاحة ، من حيث هو لفظ ونطق لسان (٢٥) * فالكلام كله ينصب على المعنى دون اللفظ الذى هو فى نظره ليس الا وسيلة يتوصل بها للمعنى ، ومن هنا فالفصاحة والبلاغة للمعنى دون اللفظ (والفصاحة والبلاغة أوصاف راجعة الى المعانى ، والى ما يدل عليه بالألفاظ دون الألفاظ نفسها) (٢٦) ، وبالتالي فانه ينفى الفصاحة عن اللفظة المفردة ، واذا وصفت فمن جهة المعنى ، وانما التفاضل بين لفظة وأخرى أن هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية ، أو أن حروف هذه أخف من تلك *

وان كان يحمد لعبد القاهر تحطيم الثنائية بين اللفظ والمعنى فى وقت شاع فيه وانتشر سؤال مؤداه هل اللفظ أفضل أم المعنى ،

-
- (٢٢) دلائل الاعجاز ص ٢٠٠
 - (٢٣) دلائل الاعجاز ص ٤٤
 - (٢٤) دلائل الاعجاز ص ٢٠٧
 - (٢٥) دلائل الاعجاز ص ٣٤٨
 - (٢٦) دلائل الاعجاز ص ٢٠٠

وكانت التفرقة شائعة بين اللفظ والمعنى ، الا أننا يجب أن نقول بأن الفصاحة لفظ توصف به الكلمة أى اللفظة المفردة والكلام والمتكلم من حيث هو كلام وليس تابعا للمعنى أو دالا على المعنى ، فقد يكون المعنى جميلا ، واللفظ الذى استعمل فيه قبيحا أو منفرا كلفظة البعاق مثلا فلو استعمل المتكلم لفظ المطر بدلا منها لكان آلف للسمع وأحسن ، فالمعول ليس على المعنى فقط ، بل نأخذ فى الحسابان الصورة التى عرض بها هذا المعنى كيلا نكون كمن علق قلائد من العقيان فى جيد خنزير •

ثم يأتى الخطيب القزوينى ويفرق بين الفصاحة والبلاغة ، ويرى أن الفصاحة والبلاغة وردت فيهما أقوال مختلفة لم يرض القزوينى بأياها تصلح تعريفا للفصاحة والبلاغة ، غير أنه فرق بينهما فالفصاحة تقع صفة للكلمة المفردة ، والكلام ، والمتكلم ، أما البلاغة فتكون صفة للكلام ، والمتكلم فقط (١٧) ، ولا يقال عنده كلمة بليغة اذا قصدنا الكلمة المفردة ، على سبيل الحقيقة ، لكن يجوز أن نقول هذه كلمة بليغة وذلك على سبيل المجاز ، اذا أردنا بها مجموعة الكلام المركب من باب اطلاق الجزء على الكل فنقول مخاطب ، أنت ألقيت كلمة بليغة فى حفل الأمس ، والمقصود الخطبة ألقيت كما يمكننا أن نقول عن كل كلام فصيح هو بليغ ، وليس العكس لأن البلاغة أعم وأشمل من الفصاحة ، ونعنى بالكلام ما يقابل

الكلمة المفردة فيشمل المركب الاسنادى ، والمركب الناقص اذا صح أن يطلق عليه أنه كلام فصيح باعتبار فصاحة مفرداته •

وقد تناول أيضا ابن الأثير فى كنبه الفصاحة والبلاغة وأسهب القول فيهما اسهابا ، وما ذاك إلا لان الفصاحة والبلاغة من أدوات الكاتب الذى لا يمكنه الاستغناء عن ذلك حتى يستقيم كلامه ، وتتسبك صنعته ، وقد فهم ابن الانير أن به فرقا بين الفصاحة والبلاغة ، وأن لكل منهما موصوفات خاصة بها كما فهم أن البلاغة أعم وأشمل من الفصاحة ، كما أن النصيحة عنده نسبية كالحسن والقبح ، وقد أورد اثناء كلامه عن الفصاحة والبلاغة شروط كل كما سوف نوضح •

ولكن يريد أن يؤكد أن البحث فى الفصاحة والبلاغة ليس شيئا هينا أو متيسرا لكل طارق فيراه بابا غامضا متعذر الولوج ، ومسلكا صعبا وعرا ، والناس أمامه خيارى يحاولون الولوج فتتقدمهم قوتهم وتخذ لهم همتهم (٢٨) • ويستشهد على ذلك بقول عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الاعجاز عن الفصاحة والبلاغة عندما قال : (لم أزل منذ خدمت العلم انظر فيما قالوه فى معنى الفصاحة والبلاغة وأستكشف عن المعنى فى ذلك ، فلا أجد إلا كالرمز ، والاشارة ، ولا أقف فيه على قول شاف ، ولا كلام كاف ، فلما رأيت الأمر كذلك علمت أنه لا يكفى فى معرفة هذا العلم العظيم ، الذى كان به اعجاز القرآن الكريم ، قول مهمل ، ولا كلام مجمل ، بل لا تتم معرفته حتى يفصل فيه القول ، ويدل على الخصائص التى تأتى فى تاليف

الكلام ، ويوضح ايضا جليا من غير مغادرة لشيء من ذلك ، حتى تكون المعرفة بهذا العلم كمعرفة الصانع الحاذق الذي يعلم هدبة منسوجة من الابريسم في الثوب والديياج ... فانك اذا نظرت الى هذا العلم الشريف احتجت عند ذلك الى طول مكث وتدبر ، وكثرة تأمل وتفكر ، والى همة تأبى أن تقنع الا بأعلى المنازل واسمى المراتب ... (٢٩) *

وكذلك تدبر ابن الأثير وتأمل وتفكر في الفصاحة فوجد أصلها في وضع اللغة هو الظهور والبيان ، يقال أفصح الصبح اذا بدأ ضوءه ، وأفصح الرجل عما في نفسه اذا أظهره ، وانما سمي اللفظ فصيحاً لأنه يبين المقصود منه ، ويوضح المعنى المندرج تحته (٣٠) * غير أن ابن الاثير يرفض هذا التعريف البلاغى ، ويعترض عليه بجملة من الاعتراضات كلها تبنى عن فهم وذوق ابن الاثير ورسوخ قدمه في هذا المضمار *

فنراه يحتج على من قال بأن الفصاحة تعنى الظهور والبيان ، ويقف عند ذلك الحد ، ويلقيه على عوانه دون أن يكشف عن السرفيه ، غيرى أن هذا الحد أو التعريف للفصاحة قاصر لا يبين حقيقتها ثم يورد الاعتراضات التالية *

أولا : اذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحاً ، ثم اذا ظهر وتبين صار فصيحاً *

ثانيا : اللفظ الفصيح البين هو الذى يستخدمه الفصحاء ،

(٢٩) الجامع الكبير ص ٧٦ وانظر دلائل الاعجاز ص ٤٠ وما بعدها .
(٣٠) الجامع ص ٧٧ *

وبالتالى فان اللفظ غير الفصيح من نصيب العتّى غير الفصيح ، فاللفظ اذن لفظان حسب استخدام المتكلم له فتارة هو فصيح لأن زيدا فصيح ، وأخرى غير فصيح لأن عمروا غير فصيح ، وهذه قسمة ضيزى فى رأى ابن الأثير ، بل فى رأينا أيضا ، لان الفصيح فصيح عند الجميع لا خلاف فيه بحال من الأحوال •

ثالثا : اذا جىء بلفظ قبيح ينبو عنه السمع ، وهو مع ذلك ظاهر بين ، ينبغى والحال هكذا أن يكون فصيحاً ، وهذا غير صحيح ، لأن الفصاحة وصف حسن اللفظ ، لا وصف قبيح (٣١) •

وبهذه الاعتراضات الثلاثة ، يرفض هذا التعريف للمغوى للفصاحة ويشرح تعريفا آخر لها استقاه من كثرة ملابسته ومعاركته لفن الفصاحة حتى انكشف له السرفيه •

غير أن الكلام الفصيح هو البين ، المفهوم الألفاظ من غير حاجة لاستخراج من كتب اللغة ، وهذه الشروط لا تتوفر الا فى الألفاظ مألوفاة الاستعمال عند الشعراء والكتاب ، لمكان حسنها بعد الفحص والتدقيق ، ومن ثم يخلص الى أن الفصيح من الألفاظ هو الحسن شكلا ولا دخل للمعنى فى الحسن أو القبح والدليل على ذلك — كما يورده — الفاظ المزنة ، والديمة ، والبعاق ، فان المزنة والديمة أفضل وأحسن ويستلذهما السمع ، خلا لفظة البعاق فانها قبيحة يكرهها السمع ، والألفاظ الثلاثة بمعنى واحد وهو المطر (٣١) •

(٣١) المثل السائر ص ٤٠ •

(٣٢) يراها مترادفة ولكن الواقع أنها غير مترادفة بل توجد فروق بين هذه الصفات •

ومع هذا فان اللفظين الأولين يحسن استعمالهما ، والثالثة يقبح ،
والذى حسن أو قبح هو الالف والاستعمال (وانما كان مألوف الاستعمال
لمكان حسنه وحسنه مدرك بالسمع والذى يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه
صوت يتألف من مخارج الحروف ، فمأ استلذه السمع فيه فهو الحسن،
وما كرمه فهو القبيح ، والحسن هو الموصوف بالفصاحة ، والقبيح
غير موصوف بفصاحة) (٣٣) •

أى أن مرد الفصاحة عنده الادراك بالسمع ، والذى يسمع هو
اللفظ ، والذى يعقل هو المعنى ، فالفصاحة خاصة بالالفاظ دون
المعانى لأن الفاظا مثل المزنه والديمه والبعاق كلها تعنى فى الدلالة
المطر أو ما نزل من السماء من ماء ، سواء أكان وابلا أم سيلا
أم غير ذلك من أشكال المطر لكن لفظة ديمة ، ومزنه ، مقبولتان
سمعا ، وخفيفتان نطقا ، عدا لفظة بعاق ، فان السمع يأبأها ،
لما لها من ظلال ثقيلة على الأذن ، والنفوس أيضا ، ومن ثم كانت
غير فصيحة فلو كانت الفصاحة مردها للمعنى لتساوت هذه الألفاظ
الثلاثة فى الدلالة على المعنى ، وكانت كلها فصيحة ، غير أن واقع
الحال غير ذلك ، ولما كان الأمر كذلك أصبحت الفصاحة تخص اللفظ
دون المعنى •

ولكن لا يفهم من ذلك أن ابن الأنير من دعاة التفرقة بين
اللفظ والمعنى ، بل أراد أن يتناول ما تكون عليه الألفاظ ، وما تكون
عليه المعانى ، لان المعنى يجىء ضمنا وتبعاً للفظ ، ومن ثم لا ينفصلان،
وينتبه هو لذلك فيقول (وليس لقائل ههنا أن يقول : لالفظ الا بمعنى

فكيف فصلت أنت بين اللفظ والمعنى ؟ فانى لم أفصل بينهما ، وانما خصصت اللفظ بصفة هي له ، والمعنى يجيء فيه ضمنا وتبعاً (٣٣) .

ويزيد من تأكيد وجهه نظره — وهو محقق في هذا شأن الفصاحة خاصة باللفظ دون المعنى ، فيستفح رأيه بالناحية الاشتقاقية اللغوية فيرى أن فعيل بمعنى فاعل ، أى فصح ، فهو فصيح واللفظ هو الفاعل للإبانة عن المعنى ، فكانت الفصاحة مختصة به ، كما يرد على من ادعى بأن بعض آيات القرآن فيها غموض وتحتاج الى تفسير وهذا يتعارض مع قوله عن اللفظ وفصاحته ، فيرد بأن الغموض آت من جهة التركيب لا من جهة الألفاظ المفردة ، التى يتداخل معناها بالتركيب وتصير له هيئة تخصه ، فهى من ناحية الألفاظ المفردة فصيحة لانها ظاهرة واضحة ، وهذه سمة التراكيب اللفظية لا فرق بين قرآن كريم أو حديق نبوى تريف أو قصيدة شعرية أو خطبة أو مكاتبة (٣٤) .

هذا عن الفصاحة ، أما البلاغة فانه يتناولها بالشرح والتمثيل مثلما فعل مع الفصاحة ، فيقول عن البلاغة (وأما البلاغة فان أصلها فى وضع اللعبة من الوصول والانتهاء يقال بلغت المكان اذا انتهيت اليه ومبلغ التسيء منتهاه ، وسمى الكلام بليغا من ذلك ، أى أنه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية) (٣٥) .

(٣٣) المثل السائر ص ٤١ .

(٣٤) المثل ص ٤٢ . وهذا مخالف لما ذهب اليه عبد القاهر الجرجاني الذى يرى أن الفصاحة راجعة للمعنى دون اللفظ . انظر الدلائل ص ٥٢ وما بعدها .

(٣٥) المثل ص ٤٣ .

فهو فى هذا التعريف قد تناول البلاغة بمعناها اللغوى وهو الوصول والأنتهاء ولكنه هنا وصول من نوع خاص فان كل من أسمعته كلاما لزمك أن تبلغه فيه معنى من المعانى المفهومة المقصودة من سياق الكلام ، وسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى الى قلب السامع فيفهمه ♦

غير ان ابن الاثير قد أورد فى نهاية هذا التعريف قوله : وسمى الكلام بليغا من ذلك ، أى أنه قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية ، وهذا الكلام قريب جدا من المعنى الاصطلاحي للبلاغة عند علمائها ، فانها تعنى عندهم فى الاصطلاح أنها تقع وصفا للكلام والمتكلم ، (٣٦) وبلاغة الكلام تعنى مطابقته لمقتضى حال الخطاب مع فصاحة الفاظه مفردة ومركبة ، ومقتضى الحال هذا مناسبة الكلام لحال المخاطبين وواقعهم مما يلزم المتكلم أن يخرج كلامه على وجه مخصوص ، فعلية القوم كلام وللسوقة كلام ، والعلماء كلام وللجهلة كلام ، فيخاطبهم المتكلم على قدر عقولهم ، كما أن موقف الفخر غير موقف الرثاء ، غير موقف المديح ، وبهذا فان البلاغة بتصب على اللفظ والمعنى ، أى الكلام والمتكلم ، وليس لها دخل بالمفرد من الألفاظ فلا يجوز أن يقال كلمة بليغة ، فان جاز ذلك فى الفصاحة فانه لا يجوز هنا فى البلاغة لأن الكلمة المفردة لا تعد بليغة الا اذا دخلت فى تركيب فيظهر حسننها أو قبحها كأن تكون قلقة فى موضعها ، أو غير متوائمة مع ما قبلها وما بعدها (لأن اللفظة المفردة

(٣٦) الايضاح ص ٧ وما بعدها •

برأسها اذا وردت فى الكلام لايراد بها الا معنى واحد من غير
زيادة ، وفى الكلام ما يزيد معناه على لفظه وذلك انما يكون مركبا
لامفردا (٣٧) والمفرد لا يفيد معنى *

وما ليس بمفيد فلا يسمى بليغا ، فهو بهذا الكلام يكون قد
تناول معنى البلاغة لغة واصطلاحا *

وكما رأينا فى كلامه عن البلاغة فانها عنده تشمل الألفاظ
والمعانى بخلاف الفصاحة فانها مقصورة على الألفاظ سواء آكانت
مفردة ام مركبة من حيث هى ألفاظ ، بالاضافة الى قائل هذه الألفاظ
فالبلاغة تشمل الفصاحة ، فكل كلام بليغ فصيح ، وليس كل كلام
فصيح بليغا ، ويستترط فى هذا الكلام أن يكون مركبا ، فان اللفظه
الواحدة لا يطلق عليها اسم بلاغة — الا مجازا كما سلف أن
أوضحنا — ولكن نطلق على هذه اللفظة المفردة سمه الفصاحة لوجود
صفة الحسن فيها (٣٨) غير أنها وهى بهذه الصورة — أى الافراد —
لا تعطى معنى مفيدا *

بهذا القيد استطاع ابن الاثير أن يفرق بين الفصاحة والبلاغة
فأرجع الأولى الى الألفاظ ، وخص الثانية بالألفاظ والمعانى ، وجعل
البلاغة أخص من الفصاحة لعموميتها ، ونراه قد أوضح هذا فى
كاتبه المثل السائر فى المقالة الاولى عندما تناول الصناعة اللفظية
فقسمها الى قسمين : الأول فى اللفظة المفردة ، والثانى فى الألفاظ
المركبة (٣٩) *

(٣٧) الجامع ص ٧٩ *

(٣٨) انظر مثلا ص ٢١٤ المثل السائر *

(٣٩) انظر المثل السائر ص ١١٤ *

فبالنسبة للفظ المفردة فان على الكاتب أن يراعى ثلاثة أشياء:
الاول : اختيار الألفاظ المفردة ، فعليه أن يختار وينتقى قبل
الكتابة •

الثانى : نظم كل كلمة مع اختها المشكلة لها ، كيلا يكون
الكلام قلقا أو نافرا عن موضعه •

الثالث : الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه •
(فهذه ثلاثة أشياء لابد للخطيب والتساعر من العناية بها ،
وهى الأصل المعتمد عليه فى تأليف الكلام من النظم والنثر ، فالأول
والثانى من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة ، والثالثة بجملتها
هى المراد بالبلاغة (٤٠) • وهذا معنى كلامه أن الفصاحة خاصة
بالألفاظ والبلاغة تنصب على المعانى ومدار التفاوت والتفاضل ،
انما يقع فى التراكيب اكثرا مما يقع فى المفردات ، وما ذاك الا
لأن التركيب أعسر وأشق ، والدليل على ذلك أن القارى قد
يقع على لفظة فى كلام سواء كان نظما أو شعرا فيعجب بها ، ثم
يراها فى كلام آخر فينفرد منها •

اذن التركيب الذى دخلت فيه هو الذى حسنها أو قبحها ،
وهذا رد على من قال ان الألفاظ كلها حسنة لأن الواضع لم يضع
الا ألفاظا حسنة (٤١) ، فيدحض ذلك ويرى أن الاستعمال هو الذى
حسن أو نفى الحسن ويضرب لذلك أمثلة من القرآن الكريم ،
والشعر العربى قائلًا : (وههنا من هذا النوع لفظة أخرى قد وردت

(٤٠) المثل ص ٨٦ ، ٨٧ •

(٤١) المثل ص ٨٩ •

فى آية من القرآن الكريم ، وفى بيت من شعر الفرزدق ، فجاءت
فى القرآن حسنة وفى بيت الشعر غير حسنة ، وتلك اللفظة
هى لفظة القمل ، أما الآية فقوله تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان
والجراد والقمل والضفادع ، والدم آيات مفصلات » وأما البيت
الشعري فقول الفرزدق :

من عزه احتجرت كليب عنده . . . زربا كأنهم لديه القمل

وانما حسنت هذه اللفظة فى الآية دون هذا البيت من الشعر
لأنها جاءت فى الآية ضمن كلام ، ولم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت
فى الشعر قافية : أى آخر انقطع عندها الكلام (٢٢) .

ونكاد هنا نسمع صوت عبد القاهر الجرجاني الصادر من
كتابه دلائل الاعجاز عندما تكلم أيضا عن الفصاحة والبلاغة فقال
نفس الكلام (ان الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ،
ولا من حيث هى كلم مفرد ، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها
فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى يليها أو ما أشبه ذلك مما
لا تعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك
وتؤنسك فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك ، وتوحشك فى موضع
آخر ، كلفظ الأخدع فى بيت الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى . . . وجعت من الاصغاء ليثا وأخدعا
وانى وإن بلغتنى تسرف الفنى . . . وأعتقت من رق المطامع اخدعى

فان لها فى هذين البيتين مالا يخفى من الحسن . نم انك ستعلمها
فى بيت أبى تمام :

يادهر قوم من أهدريك فقد .: أضجت هذا الانام من خرقك

فتجد لها من الثقل على النفس ، ومن التنغيص والتكدير
أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة (٤٣) .

أذن المحول على الاستخدام هو الوضع فى تركيب وهذا
متروك للشاعر أو الكاتب ، ومن ثم استقرت ابن الاثير الشروط
الثلاثة سالفة الذكر من حيث الاختيار للفظه ونظمها فى سياق تكون
فيه خالية من التناثر والقلق ، كما أنها بعد ذلك وقبله لابد أن تكون
ظاهرة بينه راعت المقام وأدت المقصود بها . ورأى أن الأول والثانى
المراد بهما الفصاحة ، والثلاثة تراد بها البلاغة أى أن الكلام لا يكون
بليغا الا بمجموع هذه الاشياء ، فلو عرى من واحد منها فليس
ببليغ (لأن الكلام لا يطلق عليه اسم البلاغة حتى يكون فصيحاً ،
فالفصاحة اذا شرط فى البلاغة لا تنتم الا به ، فلما كانت الحال
كذلك وجب أن تعم البلاغة اللفظ والمعنى معا . أما الفصاحة فليست
كذلك لأنها محض ابانة ووضوح فقط ، وذلك يتعلق باللفظ .) (٤٤)

ومن ثم فانه لا فضل ولا مزية للكلمة المفردة من حيث هى
مفردة حتى تدخل فى سياق يبرزها ويظهرها وتظهر براعة الكاتب فى
استخدامها فى مكانها الصحيح ، فلا تكون قلقة ، ولا نافرة ، اذ

(٤٣) دلائل الاعجاز ص ٤٦ ، ص ٤٧ وما بعدها وانظر ايضا المثل

ص ٨٦ وما بعدها ، والجامع الكبير ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٤٤) الجامع ص ٨١ .

أنها قبل أن تدخل فى سياق تكون كلمة معجمية باردة لا تؤدى معنى محددا ، ولذا لا يتصور أن يكون بين لفظة وأخرى تفاضل من حيث هما الفاظ ، فكل منهما تؤدى معنى ، والتفاضل لا يقع فى المعانى المختلفة ، وانما التفاضل يقع فى التركيب وهل أدت اللفظة دورها فيه بحيث يكون مستخدمها قد أجاد فى استخدامها أم لا . أما من حيث هى مفردة فالفضل والمزية التى تنبت لها هوكونها مألوفة الاستعمال أو غريبة وحشية ، أو أن تكون حروفها أخف وأحسن كما أن اللفظة لا تكون أفضل من اللفظة التى فى معناها الا بالشروط السابقة مثل كلمة البعاق والديمة كما قدمنا يقول ابن الاثير : (اعلم أن اللفظة قبل دخولها فى سبيل التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التى تسمى كلاما دالا على معنى من المعانى لا يكون لها مزية على اختها التى فى معناها ، الا بأن تكون هذه أشرف من هذه بعلامات توجد فيها ، اما أن تكون احداها مستعملة مألوفة ، والأخرى وحشية متوعدة ، واما أن تكون حروف هذه أخف حركة أو احسن امتزاجا مع صوابها +++) (٤٥) .

فهو بهذا قد حدد شروط فصاحة الكلمة أو اللفظة المفردة قبل أن تدخل فى سياق ، فذكر العيوب التى ترد بها كأن تكون وحشية متوعدة ، أو أن تكون حروفها سهلة النطق ، وهذا ما ذهب اليه علماء البلاغة من شروط الفصاحة كما سنوضحهما بالترتيب : الكلمة :
فالكلام ، فالتكلم .

أولا فصاحة الكلمة :

فصاحة الكلمة هو أن تخلو من العيوب المخلّة بها مثل :

(أ) خلوصها من تنافر الحروف : كى تصوير عذبة رقيقه تخف على اللسان ولا تثقل على السمع ، فلفظ ديمه أو مزنة أخف من لفظ بعاق ، كذا لفظ أسد أخف من لفظ فدوكس أو العمثل •

(ب) خلوصها من الغرابه وتكون مألوفه الاستعمال •

(ج) خلوصها من مخالفة الوضع حتى لا تكون نساذه •

(د) خلوصها من الكراهة فى السمع (٤٦) •

ففصاحة الكلمة تأتى من تكونها من حروف متآلفة يسهل على اللسان نطقها من غير عناء مع وضوح معناها ، وكثرة تداولها بين المتكلمين ، وموافقتها للقواعد الصرفية ومرد ذلك الذوق السليم ، والالمام بمتن اللغة وقواعد الصرف وبذلك تسلم مادتها وصيغتها ومعناها من الخلل •

وتنافر الحروف :

ناتج عن ثقل الكلمة على اللسان فيعسر النطق بها وهو نوعان تتنافر شديد كلفظة الظش للموضع الخشن ، والهعزع لبنات تراعى الأبل ، فهاتان الكلمتان غير فصيحيتين لما فيهما من تنافر الحروف تتنافرا شديدا يشعر به كل ناطق وهو خلل واقع فى مادتهما •

— والتنافر الخفيف ، وهو أقل من السابق ، لكن يشعر به القارئ ، مثل قول امرئ القيس :

غداثه مستشزرات الى العلا . نضل العقاص فى مثنى ومرسل

فكلمة مستشزرات تتقارب مخارج حروفها مما أدى الى تنافرها ، ولكن بصورة أقل مما قبلها .

وضابط تنافر الحروف هو قرب مخارجها ، أو بعدها فلفظه الهعخع تقلبه التنافر لتقارب حروفها فى المخرج وذلك لأن الهاء ، والعين ، والحاء ، خارجه كلها من مخرج واحد وهو الحلق ، غير ان بعضها خارج من أقصاه وبعضها قريب منه .

ولفظه مستشزرات متنافرة لتقارب حروفها فى المخرج كذلك اذا أن حروفها ما عدا الميم خارجه من المخرج الواحد وهو اللسان ولكن بعضها خارج من طرفه ، وبعضها من وسطه .

لكن هذا الضابط المذكور غير مطرد ، لأننا لا نجد تنافرا فى لفظى الجيش والشجى برغم تقارب الجيم والثين فى المخرج ، كما لا نجد تنافرا فى كلمتى علم ، وملح مع تباعد العين والميم ، أو الميم والحاء ، فى المخرج .

غير أننا لو اعتبرنا التقارب فى المخرج ، أو التباعد فيه سببا للتنافر المخل بالفصاحة ، لاقتضى ذلك وقوع غير الفصيح فى القرآن ، فقد ورد قوله تعالى « ألم أعهد اليكم يا بنى آدم » مع تقارب الهمزة والعين ، والحاء فى المخرج كما ذكرت فى مادة علم فى — غير موضع — مع تباعد العين والميم فى المخرج وورود غير الفصيح فى القرآن المعداد فى أعلى طبقات الفصاحة مما لا يذهب اليه

عاقِل + اذا فقرب المخرج أو بعده لا يصلح ضابطا يعول عليه فى ضبط التنافر لعدم اطراده ، بل مرد ذلك كله الى الحكم السليم والذوق الفصيح ، فما اعتبره الذوق ثقيلا متعسر النطق به فهو متنافر والعكس صحيح +

وهذه الأحكام ليست خاصة بزمان دون آخر ، أو مقصورة على قوم دون آخرين ، فلا يقول قائل بأن العرب كانت تستعمل من الألفاظ كذا وكذا فهذا دليل على أنه حسن ، بل ينبغى أن تعلم أن ما يستحسن فى وقت من الاوقات هو عينه كان عند العرب حسنا كما أن ما يستقبح أيضا كان عندهم قبيحا ، كما ان الاستعمال ليس دليلا على الحسن وايشا فان الاستحسان غير مؤخوذ بالتقليد للعرب لانه شئ ليس للتقليد فيه مجال ، بل ثمة دلائل اذا وجدت كان اللفظ فصيحاً واذا انعدمت قبح اللفظ ، فنحن الآن نستسيغ لفظة المزن ، ونستقبح لفظة البعاق ، وكانا كذلك عند العرب أيضا ، فاذا استعملها بعض العرب لا يكون هذا سببا فى حسنها ، بل يعاب من استعملها (٤٧) +

وان كنت ارجح أن مصدر عيب هذه الكلمات ليس بسبب عرابتها أو وحتسيتها كأن يستعملها قوم دون آخرين طالما فهم السامع ما يقصده المتكلم والدليل على ذلك ما جاء عن النبى ﷺ وحديثه مع طهفة بن أبى زهير النهري عند ما قال له (أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة على أكوار الميس ترتى بنا العيس نستجلب العبير ونستحلب الخبير ونستعضد البرير ، ونستخيل الرهام

ونستخيل الجهام فى أرض نمائلة النطاء غليظة الوطاء قد نشف
 المدهى ، ويبس الجعتن وسقط الاملوج ، ومات العسلوج ، وهلك
 المهدى وفادى الوذى برئنا اليك يارسول الله من الوثن والفتن ،
 وما يحدث الزمن ، لنا دعوة السلام وسريعة الاسلام ماظمى البحر
 وقام تعار ، ولنا نعم همل أغفال ما تبعن ببال ووقير كثير الرسل
 قليل الرسل ، أصابتنا سنية حمراء مؤزلة ليس لها علك ولانهل» فقل
 رسول الله ﷺ : « اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها ، ومذقها
 وفرقها ، وأبعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر ، وافجر له الثمد ،
 وبارك له فى المال والولد ، من أقام الصلاة كان مسلما ، ومن آتى
 الزكاة كان محسنا ومن شهد أن لا اله الا الله كان مخلصا ، لكم
 يا بنى نهد ودائع الشرك ووضائع الملك لا تلطط فى الزكاة ، ولا
 تلحد فى الحياة ، ولا تتاقل عن الصلاة » •

وكتب معه كتابا الى بنى نهد « من محمد رسول الله الى بنى
 نهد ، السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم بابنى نهد فى الوخليفة
 الفريضة ، ولكم الفارض والفريش وذو العنان الركوب ، والغلو
 الضبيس لا يمنع سرحكم ولا يعضد طلحكم ولا يحبس دركم ولا يؤكل
 أكلكم مالم تضمروا الاماق وتأكلوا الرباق من أقر بما فى هذا الكتاب
 فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى شعليه الربوة)

ومن ثم لا نستطيع أن نصف هذه الألفاظ بالوحشية أو الغرابة
 حتى لو ثقل النطق بها على اللسان لعدم الف اللسان على نطق

مثلا وما ثقل على اللسان فهو ثقل على السمع أيضا ومن ناحية أخرى فان الألفاظ التي نعتت بخلوها من الفصاحة انما نقلت من دلالتها الأصلية واستخدمت على سبيل المجاز فى المعنى الجديد وعندما نقلت الى المعنى الجديد فانها لم تفقد كل المعنى القديم أو حتى الظلال الباهتة لهذا المعنى فصارت علاقة المشابهة قائمة فى ذهن المتكلم-الذى استعارها لتؤدى هذا المعنى الجديد ، فهو عندما يستخدمها وفى ذهنه هذا الجزء أو هذه الظلال الباقية للمعنى القديم، فانه اما أن ينفر منها أو أن يستحسنها اذا كان المعنى المنقولة منه حسنا، والعكس صحيح ويؤيدنا فى هذا ان اللغة قائمة على المجاز ، والا لصارت ضيقة مكرورة الألفاظ والمعانى ، فجاء المجاز ووسع نطاقها وأرحب دائرتها •

فاستبشع الناطق الفاظا مثل جحيس ، اطلخم ، بعاق ، وجفح وما أشبه ، ونحن لو تدبرنا صورة هذه الألفاظ لوجدناها تتركب من حروف الأبجدية العربية العادية ، ولن نستطيع أن نقول ان واضع الأبجدية العربية عندما وضعها قسمها أو نص على أن هناك حروفا فصيحة وأخرى غير فصيحة ، بل كان فى وضعها على السواء ، والدليل على ذلك أن لفظة كملع مثلا لا تدخل دائرة الفصاحة ، وهى مركبة من الميم واللام والعين واذا عكسنا نطق هذه اللفظة وجعلنا الآخر أول لصارت الكلمة علم ، ومن ثم تدخل هذه اللفظة من أوسع أبواب الفصاحة على الرغم من أنه لم يتغير من حروفها شىء فان قيل بأن موسيقا الكلمة قد تغيرت من توالى حركات الفتح الى فتح فكسر ففتح ، نقول ان هناك الفاظا كثيرة تتولى

ففيها حركات الفتح ولا ترد فصاحتها وذلك مثل كلمة ضَرَبَ ، وما شابه ذلك فانها فصيحة لا غبار عليها ، ومن ثم فان حروف الكلمة وموسيقاها ليسا برادين فصاحة الكلمة أو مثبتاتها ، وانما المعول في ذلك على ما كان لها من معنى قديم حقيقى نقلت عنه الى المعنى المجازى الجديد لعلاقة المشابهة ، ومعلوم أن كل مجاز له حقيقة لأنه لا يصح لنا أن نطلق عليه اسم المجاز الا لنقله عن حقيقة موضوعه له فالمجاز اسم للموضع الذى ينتقل فيه من مكان الى مكان ، فجعل ذلك لنقل الألفاظ من الحقيقة الى غيرها ، ولكن ليس معنى هذا أن كل حقيقة لأبد لها من مجاز ، فأسماء الاعلام مثلا بعضها لا مجاز له لانها وضعت للفرق بين الذوات لا للفرق بين الصفات .

ومن ثم كان المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة .

ولما كان الأمر كذلك فان معظم الاسماء التى وسمت بعريها عن الفصاحة ما هى الا ألفاظ أخذت من الحقيقة ونقلت الى المجاز وما ذلك الا لتشبيه حالة المنقولة اليه بحالة المنقولة عنه وذلك مثل لفظة بعاق فان هذه اللفظة قد يؤدى غير ما تدل عليه كلفظة الديمة والمزنة والبعاق كلها تدل على المطر ، غدير أن العرب استحسنوا الديمة والمزنة لأنهما المطر الذى يأتى بما يتمناه الانسان من غير ضرر ولا أذى فيسقى الحرث والنسل ، وينبت العشب والكلأ وتزدهر الحياة غضة ندية ، بخلاف البعاق ، فانه وابل يهلك الحرث

والنسل ويجرف ما أمامه ويلحق الأذى وتتشقق منه الأرض ،
بالإضافة الى أن المعنى الحقيقى للبعاق هو الشق أو تعنى الذبح
واسالة الدماء الغزيرة عندما تنحر الابل ، كما أنها تعنى فى الأصل
الكشف والابانة عن شىء مستور ، فالمعنى الحقيقى لها سواء أكان
الشق فى الأرض أو النحر واسالة الدماء أو اظهار شىء مستور كلها
مكروهة ، فلما استعيرت للمطر ظلت العلاقة قائمة فى ذهن المتكلم
فأطلقوها تبعا لذلك على المطر المهلك وليس الذى يستفيد منه الحرث
والنسل ، فلذا — للعلاقة بين المجاز والحقيقة — كره استخدامها
ورميت بعدم الفصاحة *

يقول الزبيدى فى تاج العروس (البعاق كخراب شدة الصوت
قاله الليث وقد بعق الرجل وغيره وبعقت الابل بعاقا ، والبعاق
من المطر الذى يفاجئ بوابل وهو « مجاز » والبعاق السيل الدفاع
قال أبو حنيفة هذا الذى يجرف كل شىء *** وقد بعق الوابل
الأرض بعاقا بالضم اذا شققها وأسالتها، وبعق الجمل بعقا اذا نحره،
وأسال دمه ، وفى حديث حذيفة أنه قال ما بقى من المنافقين الا أربعة
فقال رجل فأين الذين يبعقون لقاحنا ، وينقبون بيوتنا فقال
حذيفة أولئك هم الفاسقون *** وبعقه عن كذا بعقا اذا كشفه
عن ابن عباد ، وبعق البئر بعقا حفرها نقله الزمخشري ، ويقال عقاب
مثل عقبناة نفله الجوهرى ، وكذلك عبقناة ومقبناة ، وذلك اذا كانت
حديدة المخالب ، وقيل هى السريعة الخطف المذكورة *** والتبعيق
التشقيق وقد بعق زق الخمر تبعيقا أى شققها ، والانبعاق أن يتبعق

عليك الشيء فجأة من حيب لا تحسبه وأنت لا تشعر به . ، نة
الجوهري وأنشد :

بينما المرء انما راعه را . : . نعت حنف لم يخش منه ابتعا

وانبثق المزن انبجج بالمطر نقله الجوهري وهو مجاز
الزمخشري وذلك اذا انفتح بتسدة قال رؤية :

يرون تحت الاثل سياح الدسق . : . اخضر كالبرد غزير النيع

وانبثق في الكلام اذا اندفع فيه ، ومنه الحديث أنه فك
لديه رجل فقال كم دون لسانك من حجاب قال شفتاي وأسفاه
فقال ان الله يكره الانبعاق في الكلام فرحم الله امرأ أو جزء
كلامه ، وروى عن عمر رضى الله عنه الانبعاق فيما لا ينبغي ،
شقائى الشيطان (٥٠٠) (٤٨) ، اذا حقيقة الكلمة شيء غير محبب لد
النفوس الصافية فعندما نقلت الكلمة من الحقيقة للمجاز عا
طريق المشابهة ظل في ذهن السامع شيء من هذه الحقيقة فرميت يعد
للفصاحة لذلك .

كما أنا لو عكسنا حروف هذه الكلمة « بعق » فأنها تكون قعد
ومنها القعب في حديث لرسول الله ﷺ مع أحد فقراء المسلمين
الذى جاء يستعين به على الحياة فقال له ﷺ ما عندك ، فقال

(٤٨) تاج العروسى من جواهر القاموس : محمد مرتضى الزبيدى لم تذا
سنة الطبع المجلد السادس ص ٣٩٦ منشورات دار الحياة لبيد
بيروت .

وقعب نشرب فيه الماء ، وهو الاناء المعد لذلك وهى كلمة فصيحة
لاشية فيها •

أما خلو الكلمة من الغرابة فكونها مألوفة الاستعمال ظاهرة
الدلالة من غير كبير عناء أو مشقة ، لكن أحيانا تكون الكلمة غير
ظاهرة الدلالة على المعنى الذى سيقت من أجله ، أو تكون غير
شائعة الاستعمال ، وذلك لسببين :

الأول : عدم شيوع استعمال هذه الكلمة أستعمالا يجعلها
مألوفة عند السامع والمتكلم ، فيحتاج الى البحث عن معناها فى
معجم اللغة وأحيانا يجده وأحيانا لا يعثر عليه ، وفى هذه الحالة
يحاول استنباط معناها من السياق الموجودة به لأنها استخدمت فى
غير ما وضعت له فتخرج تخريجا بعيدا فالأولى مثل قول عيسى
بن عمر « فالكم تكأكتم على كتكأ كؤكم على ذى جنة افرنقوا »
أو كقول بعضهم نحن فى رخاخ من العيش ، أى فى رغد وسعة
الى غير ذلك من ألفاظ لا يفهم معناها بسهولة بل تحتاج الى
تنقيب •

والثانية كما فى قول رؤية بن العجاج :

أيام أبدت واضحا مفلجا .: اغر براقا وطرفا ادعجا
ومقلة وحاجبا مزججا .: وفاحما ومرسنا مسرجا

فكلمة مسرج تطلق أساسا على أنف البعير اذ هو موضع
الرسن منه ، ثم اطلق بعد ذلك على الأنف مجازا ومن ثم اختلف
فى تخريج المعنى (فقليل هو من قولهم للسيوف سرجية منسوبة
الى قين يقال له سريج ، يريد أنه فى الاستواء والدقة كالسيوف

السريجي ، وقيل السراج يريد أنه في البريق كالسراج وهذا يفرب
من قولهم سرج وجهه أى حسن وسرج الله وجهه أى بهجه
وحسنه (٢١) •

ومهما يكن من أمر فانها غير ظاهرة الدلالة لأن فعل — المضعف
العين — يدل على نسبة الشيء الى أصله ، فيقال كفر فلان فلانا
أى نسبه الى الكفر أو فسقه ، نسبة الى الفسق ، وأيضا النسبة
التشبيهية (٢٠) • لا تدل عليها المادة المذكورة ، فأخذ ذلك منها بعيد ،
لذا كان اللفظ بعيدا غريبا خفى الدلالة ، لعدم استعماله عند العرب
بهذا المعنى ولعدم وجود قرينة تحدد المقصود من هذه الكلمة •
وأحيانا قد لا يستدل القارئ على تفسير لها مثل قول أبى الهميسع

من طهحة مسيرها جحانجج .: لم يحضها الجدول بالتنوع

فلفظة جحانجج هذه لم يعثر لها على تفسير (٢١) •

أما مخالفة الوضع : لما ثبت عن الواضع دليل على عدم فصاحة

لما ثبت عن الواضع دليل على عدم فصاحة الكلمة وقد عبر
الكلمة وقد عبر الخطيب القزويني بقوله مخالفة القياس (٢٢) غير أن

(٤٩) الايضاح ص ٤ •

(٥٠) وهى أن يكون المنسوب شبيها بالمنسوب اليه •

(٥١) انظر أيضا جواهر البلاغة ص ١١ •

(٥٢) الايضاح ص ٤ وكلهم اخذ عنه •

الأولى أن نقول مخالفة الوضع لأنه أنسب للمعنى المراد منه ، وهو مخالفة الكلمة لما ثبت عن الوضع ، سواء خالفت القياس الصرفي أولا (٥٣) فالمعول على ما ثبت عن الواضع بغض النظر عن القياس المذكور مثل قول المتنبي :

فان يك بعض سـيـفا لدولة .: ففى الناس بوقات لها وطبول

فلفظة بوقات غير فصيحة لمخالفتها لما ثبت عن الواضع .
وأيضا مخالفة القياس الصرفي والآخرى أن تجمع على أبواق
كما ثبت عن الواضع وما يقتضيه القياس الصرفي .

وأيضا عندما يفك الادغام فى الكلام فانه يرد فصاحته بذلك مثل
قول أبى النجم :

الحمد لله العلى الاجل .: الواحد الفرد القديم الاول

فالقياص يقتضى الأجل بالادغام ولا مسوغ لفكه وغير هذا كثير
غير أن هناك ألفاظا وردت مخالفة للواضع ، لكنها موافقة للقياس
الصرفي ومع ذلك تعد فصيحة ، مثل الفعل أبى ، فاننا نقول يأبى
بالفتح لا بالكسر وأيضا استحوذ ، وعور ، فالقياس أن يقال
استحاذ ، عارت بقلب الواو ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها
فتحقيق الواو مخالف للقياس الصرفي لكنه فصيح ، لأنه ورد هكذا
عن الواضع استحوذ وعور ومنه قوله تعالى « استحوذ عليهم
الشیطان » .

فالمعول فى المخالفة هو أن تخالف الكلمة ما ثبت عن الواضع سواء خالفت القياس الصرفى أو وافقته ، فهذا مخرج للكلمة عن دائرة الفصاحة ، وبهذا أيضا يكون التعبير بمخالفة الوضع أولى من مخالفة القياس لما قدمنا * *

أما بالنسبة للكلام المركب فان له أيضا شروطا لفصاحته يقول القزوينى (وأما فصاحه الكلام فهي خلوصه من ضعف التاليف ، وتنافر الحلمات ، والتعقيد مع فصاحتها) (٥٣) *

وقد اشترط فصاحة اللفظة المفردة قبل أن تدخل فى سياق ومثل الكلام فى هذا مثل البناء فانه لن يكون قويا متماسكا الا اذا كانت أحجاره قوية متماسكة صلبة والعكس بالعكس ، ولذا اشترطت فصاحة الكلمة حتى تدخل فى سياق ومن هنا تظهر براعة المتكلم ، كما يظهر الفرق بين متكلم وآخر فالمادة واحدة متصفة بالفصاحة فعند الصياغة والسبك نجد أن هذه المادة الواحدة قد تنوعت واختلفت لأن المستعمل للألفاظ يحوطها بحرارة الانفعال الفريد الأصل كما قال برجسون ، ولذا فان قصيدة لامرئ القيس تختلف عن قصيدة المنابغة تختلف عن قصائد آخر لطره أو لحسان ابن ثابت أو للمتنبى ، أو المعرى أو البحتري أو أحمد شوقي أو البارودى وغيرهم ، ومن ثم يأتى معيار التفرقة فيقدر الاستطاعة والهيمنة على اللفظة وقدرة الانتقاء يحصل التمييز والفرق كالجواهر مثلا اذا صيغت فى عقود لدى الصائغ ، فحبات الدر واحدة شكلا

ومضمونا ، ولكن براعه التقنيه عند صائغ تجعله يجذب أنظار المشاهد بخلاف الصائغ الآخر ، فالاول قد صاغ عقدا فائق الجمال وناسب بين حبات اللؤلؤ وبعضها بعضا فخرجت آية فى الفن . والآخر كان حاطب ليل وضعها كيفما اتفق فزادها قبجا ونقر الناس منها رغم أن الدر واحد فى الحالتين ، فالعيب فى الصائغ لا فى مادة الكلام ♦

وهذا نفسه ينطبق على اللفظة المفردة والعلاقة بينها وبين الكلام المركب ، فهذا الكلام يتكون من مجموعة الألفاظ ، فلكى يكون الكل سليما فصيحاً ، لابد أن يسلم الجزء ، فما سلم جزؤه سلم كله وما سلم كله كان جزؤه سليماً فمثلاً محمداً أصدق مودة من أخيه أو شعر هند مستشزر ، غير فصيح مع أنه كلام سليم من العيوب الثلاثة المخلة بفصاحته باعتباره كلاماً مركباً ، لكنه لما لم يسلم من العيوب المخلة بفصاحته بعض أجزائه لم يكن فصيحاً ، إذ الشرط فى فصاحة الكلام سلامته من عيوبه وغيوب أجزائه أى مفرداته ♦

ولذا استرطوا فصاحه الكلمة حتى يكون الكلام فصيحاً ، فإذا اعتبرنا الكلمة فصيحة وأخذها المستعمل لها يجب أن يراعى شروط فصاحة الكلام المركب ، وفصاحته أن يبرأ من عيوب ثلاثة ♦

(أ) تتنافر الكلمات مجتمعة ♦

(ب) ضعف التأليف ♦

(ج) التعقيد اللفظى والمعنوى ♦

(أ) تنافر الكلمات مجتمعة :

هو كون الكلمات المفردة متصلا بعضها ببعض اتصالا يسبب صعوبة في نطقها ، وتعسر أدائها واستغراق معناها على الفهم بسبب التركيب الذي جاءت فيه ، لكن اذا كانت الكلمات فصيحة يسهل على اللسان النطق بها لتألفها وتسنى للعقل أن يفهمها بسبب ترتيب الألفاظ وفق المعاني كانت فصيحة صحيحة ، والمعول في ذلك على الذوق العربى السليم والوقوف على قواعد اللغة والنحو والاسلوب فاذا فقد ذلك كان الكلام غير فصيح وعيب بالتنافر ، والتنافر اما أن يكون شديدا ، أو خفيفا .

التنافر الشديد :

وهو الذى يتعثر اللسان فى نطقه ، فاذا نطقه فانه لا يستطيع أن يردده آخر من مرة ومثلوا له بيت الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر . . وليس قرب قبر حرب قبر

فتوالى حروف القاف والباء والراء على هذا المنوال مما يصعب نطقه ، مع أن كل كلمة منه لو أخذت وحدها ما كانت مستكرهة ولا ثقيلة ، ويقال ان البيت لا يعرف قائله ونسبوه للجن ، وقد علق عليه الجاحظ بقوله (ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وان كانت مجموعة فى بيت شعر لم يستطع المثنى ان يسادها الا ببعض استكراه) (٥٥) .

(٥٥) انظر دلائل الاعجاز ص ٥٢ وانظر البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧ .

ومثله فى شدة التنافر قول الآخر يصف فرسا بالخفة
والسرعة :

ازج زلوج هرز فى زفازف .: هزف ييذ الناجيات الصوافنا-
أما التنافر الخفيف :

وهو أخف نطقا من سابقه كقول أبى تمام •

كريم متى أمده أمده والورى .: معى واذا مالتة لته وحدى (٥٦)

هان فى تواثر هامين اللمظتين نوع تقل يتسر به القارىء
لهذا البيب من وجود الهاء مع الهاء ثم اتباع ذلك بنفس الحمة
بم الهاء التى تليها هذه الهمزة هالاولى من اقصى الحلى والاحرى
من داخل البلعوم ، فيؤدى ذلك الى ارباك الناطق بها •

١ - ضعف التاليف :

وله ألوانه العديدة كأن يخرج الكلام على قوانين النحاة
والصرفيين ، أو تكرار الاضافة أو اتصال الضمير بعد الا • ولها
شواهد عديدة نجتزئ منها عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة
مثل :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر .: وحسن فعل كما يجزى سمار

فعاد الضمير فى « بنوه » على « أبا الغيلان » وهو متأخر

لفظاً ورتبته أو قول الشاعر :

وما علينا إذا ما كنت جارتنا .: ألا يجاورنا الا ك ديار

أو قول الآخر :

حمالة جرجا حومة الجندل اسجى .: فأنت بهراى من سعاد وسمع

فاضاف حمالة الى جرجا — مؤنث أجرع وقصرت للضرورة —
المضافة الى حومة المضافة الى الجندل .

٣ — التعقيد :

وينشأ من كون الكلام خفى الدلالة على ما يراد به من معنى
وينشأ هذا من أمور عدة كان تأتي الألفاظ غير مرتبة وفق المعانى ، أو
الفصل بأجنبى فى مواضع لا يجب الفصل فيها ، مثل الفصل بين الصفة
والموصوف ، أو البدل والمبدل منه ، أو بين المستثنى والمستثنى منه (وله
سببان أحدهما ما يرجع الى اللفظ ، وهو أن يختل نظم الكلام ،
ولا يدري السامع كيف يتوصل منه الى معناه والثانى
ما يرجع الى المعنى ، وهو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول
الى المعنى الثانى الذى هو لازمه والمراد به ظاهر) (٥٧) . فالتعقيد
أذن ينقسم الى قسمين ، فمنه ما يرجع الى اللفظ ، ومنه ما يرجع
للمعنى :

(أ) التعقيد اللفظى : وينقسم هو الآخر الى قسمين تسديد

وخفيف .

١ — فالتعقيد اللفظي الشديد مثل قول الشاعر :

فأصبحت بعد خط بهجتها . . . كان قفرا رسومها قلما

وتقدير الكلام : فصبحت بعد بهجتها قفرا ، كأن قلما خط رسومها فقد فصل بين المتضايين بالفعل خط ، كما فصل بين كأن واسمها باللفظ قفرا الذى هو خبر أصبح ، ولفظ رسومها الذى هو مفعول خط ، كما فصل بين الفعل الذى هو خط ، وبين رسومها الواقعة مفعولا ، وبهذه الأمور استغلق المعنى على الفهم ، اذ لا يستطيع الانسان أن يفهمه الا اذا أرجع الامور الى أصلها ونفى هذا التشابك العجيب .

ومثله فى التعقيد ذلك البيت المشهور من قول الفرزدق عندما مدح ابراهيم بن هشام المخزومي ، خال هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي :

وما مثله فى الناس الا مملكا . . . أبو أمه حى أبوه يقاربه

فنجد فاصلا كبيرا بين البدل وهو « حى » والمبدل منه هو « مثله » ، وفيه تقديم المستثنى ، وهو مملكا على المستثنى منه وهو « حى » برغم موافقته قوانين النحاة الا أنه زاد التعقيد ، كما فصل الشاعر بين المبتدأ والخبر (أبو أمه ، أبوه) بكلمة حى وفصل بين النعت والمنعوت بكلمه « أبوه » حتى صار التعقيد فى أبسع صورة (٥٨) .

٢ — أما التعقيد اللفظي الخفيف كقول المتنبي :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم .: شيم على الحسب الاغر دلائل

اذ تقدير الكلام : جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الاغر ،
وهم لا يجفخون بها + والفصل بين المتلازمين واضح ، غير انه أقل
من سابقه تعقيدا للمعنى +

(ب) التعقيد المعنوى :

وينشأ من استعمال الألفاظ فى غير المعنى الذى وضعت له ،
واستخدامها العرب كقول العباس بن الأحنف :

ماطلب يعد الدار عنكم لتقربوا .: وتسكب عيناى الدموع لتجهدا

فالشاعر لم يوفق فى استخدامه لفظة « لتجهدا » لأداء المعنى
الذى يريد منه على وجه استخدامه الصحيح ، اذ أن جمود العين
أصلا هو جفافها من الدمع عند الدافع اليه أو المسبب له كالحزن
وفراق الأحبة ، فاستخدمها بدلا من انسياب الدمع فأغلق المعنى
على الفهم اذ أن شعراء العرب تواردوا على أن جمود العين بخل
بالدمع ، مثل قول الخنساء :

أعيناى جودا ولا تجهدا .: الاتيكيان لصخر الندا

أو قول أبى العطاء بن هبيرة :

الا ان عينا لم تجد يوما بواسط .: عليك بجارى دمعها لجمود

فكلام ابن الأحنف ومثله مما خفيت دلالاته على المعنى المراد

فلا يكون فصيحاً +

ومما تقدم يتضح لنا أن الكلام غير الفصيح يكون فيه أحد العيوب المذكورة سواء أكانت فى اجزائه أم فى تأليفه أم دلالته على المعنى المراد منه فاذا سلم من هذه العيوب عد فى عرف البلغاء فصيحاً ، والعكس صحيح .

أما فصاحة المتكلم : فهى ملكة راسخة متمكنة فيه فبها يستطيع التعبير عن مقصوده بلفظ فصيح ، حتى تصير تلك الأمور عزيزة فيه يستطيع متى شاء أن يستخدمها فى أى ضرب أو فن من فنون الكلام وضروبه مع تنوعها ، ولن يتسنى له ذلك الا اذا تمرس بعدد ضخم من أساليب العرب فى عصور البطولة القولية ، ووقف على اسرار اللغة وحفظ كثير منها شعرا ونثرا حتى يتكون لديه الاطار ويكون أمامه المثل فيحذو حذوه .

البـ_____لاغة

وبعد أن انتهينا من الفصاحة بما لها وما عليها ندلف الآن للكلام عن البلاغة وقد عرفت البلاغة لغة واصطلاحاً .

فالبلاغة فى عرف اللغويين هى الوصول والانتهاء ، وسميت بذلك لأنها تنهى المعنى الى قلب السامع فيفهمه ، فيقال بلغ الرجل بلاغة اذا أصاب من نفس مخاطبه حاجته ، وبلغ منه ما أراد .

أما البلاغة اصطلاحاً ، فهى وصف للكلام وللمتكلم فقط ، فنقول هذا كلام بليغ ، وهذا متكلم بليغ ، ولا يصح أن توصف بها الكلمة فلا يقال هذه الكلمة بليغة (الا على سبيل المجاز) ونحن نقصد الكلمة المفردة لعدم ورود السماع بذلك .

وبلاغة الكلام هى مطابقته لمقتضى الحال مع سلامته من

العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة مفرداته ، وهذا معنى قولهم لكل مقام مقال ، فيستدعى هذا أن يضع المتكلم فى كلامه ما يناسب حاله المخاطب زيادة على المعنى الأصلي •

وقد اشترط فى البلاغة سلامة الكلام من العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة أجزائه ، وبهذا تصوير البلاغة أخص من الفصاحة وأن كل كلام بليغ لابد أن يكون فصيحاً ، وليس كل كلام فصيح بليغاً •

أما بلاغة المتكلم ، فمثلها مثل الفصاحة باعتبار كونها ملكة قائمة بنفس المتكلم يمكنه بواسطتها أن يعبر عن المعانى التى يريد افادتها لغيره بعبارات بليغة ، فإذا لم يكن ذا ملكة يقتدر بها على التصرف فى أغراض الكلام وفنونه بقول رائع ، وبيان بديع بالغاً من مخاطبه كل ما يريد لم يكن بليغاً (٥٩) (وتلك غاية لن يصل اليها الا من أحاط بأساليب العرب خبراً ، وعرف سنن تخاطبهم فى منافراتهم ومغائراتهم ومدحهم وهجائهم وتسكرهم واعتذارهم فيلبس لكل حالة لبوسها ولكل مقام مقال) (٦٠) •

وبعد هذا العرض للفصاحة والبلاغة نتساءل عن موقف ابن الاثير من الفصاحة ، بعد أن عرضنا أيضاً للبلاغة عنده ، أى كيف كان موقفه من فصاحة الكلمة ، وفصاحة الكلام المركب ؟

قبل أن نخوض فى الاجابة على هذا السؤال نود أن نعرض لشيء هام جداً عند ابن الاثير فبعد أن فرق بين الفصاحة والبلاغة على عادة اهل البلاغة ورأى أن الثانية أخص من الاولى فالبلاغة

(٥٩) الايضاح ص ٧ •

(٦٠) جواهر البلاغة ص ٣٥ •

شاملة للألفاظ والمعاني وهى أخص من الفصاحة كالإنسان من الحيوان •
فكل إنسان حيوان وليس كل حيوان إنسانا ، كذلك يقال كل كلام
بليغ فصيح ، وليس كل كلام فصيح بليغا ، ويفرق بينها وبين
الفصاحة من وجه آخر غير الخاص والعام هو أنها لا تكون الا فى اللفظ
والمعنى بشرط التركيب ، فان اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم
بلاغة ، ويطلق عليها اسم الفصاحة ، اذ يوجد فيها الوصف المختص
بالفصاحة ، وهو الحسن ، أما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها
من المعنى المفيد الذى ينتظم كلاما (٦١) •

بعد هذا نرى ابن الأثير قد أرجع الفصاحة الى الذوق فما
عده الذوق من الألفاظ — سواء أكانت مفردة أم مجموعة — حسنا
فهو حسن مقبول ، وما اعتبره الذوق سيئا فهو كذلك ، ولكن ليس
أى ذوق بل يشترط أن يكون الذوق صحيحا غير سقيم ، ونضيف
نحن أنه ذوق تدرب وتمرس بعدد ضخم من النصوص البليغة
الفصيحة ووقف على الحسن والردىء منها ، ولذا قال عنه ابن
الأثير كما سوف نرى الذوق الصحيح •

فعندما تناول اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها قرر فى غير موضع
أن للذوق دورا كبيرا فى ذلك المضمار ، فنراه عندما تناول الأفراد
والجمع فى اللفظ ، تبين الفروق الرقيقة المتموجة بين لفظ وآخر
وتبعا لهذه الفروق يختلف جمع الألفاظ ، فمثلا كلمة عين أحيانا
يقصد بها العين الناضرة وأحيانا يقصد بها الإنسان النبیه من
الناس ، فان قصدنا العين وهى حاسة الابصار جمعناها على عيون ،

أما اذا قصدنا بها النبيه المتقدم من الناس جمعناها على أعيان ،
ويرى أن هذا يرجع فيه الى الاستحسان لا الى الوضع اللغوى
ومن ثم عاب قول المتنئ :

والقوم فى أعيانهم خـزـر .: والخيل فى أعيانها قبل

لأنه جمع العين وهى حاسة الابصار على أعيان والاحرى
جمعها على عيون فيعلق على ذلك بقوله (فجمع العين الناظرة على أعيان
وكان الذوق يأبى ذلك ، ولا نجد له على اللسان حلاوة ، وان كان
جائزا) (٦٢) *

فعندما مجه الذوق ، ولم يستسعه اللسان كان معيبا برعم
جواز جمعه عند اللغويين على هذا الجمع ، ومن تم يظهر الفرق بين
اللغة والبلاغة. وهاك نصا آخر ينص فيه على ضرورة الذوق للفصاحة
ولكن ليس أى ذوق بل استترط أن يكون ذوقا سليما ، وعند كلامه
على اسماء الفاعلين والثلاثى منها تناول أثناء ذلك الكلام على فعل
وافتعل ، فان لكل منها موصفا يحسن استعمالها فيه ، فنقول قعدت
الى فلان أحدثه ، ولا نقول اقتعدت اليه ، وكذا نقول اقتعدت غارب
الجمال ، ولا نقول قعدت غارب الجمل (وان جاز ذلك لكن الأول
أحسن ، وهذا لا يحكم فيه غير الذوق السليم ، فانه لا يمكن أن
يقام عليه دليل) (٦٣) *

وكما أن لكل من فعل وافتعل مكانا لا يحسن الا فيه ، كذلك

(٦٢) المثل السائر ص ١٧٦ *

(٦٣) المثل السائر ص ١٧٧ *

لوزن فعلة فان لها استخدامات لا تحسن الا فيها ، بل الغالب عليها فى الاستخدام أن تكون حسنة نحو همزة ولمزة وجثمه ونومه ولكنه ، فانها يغلب عليها الحسن والفصاحة ، وقد استعمل القرآن همزة ولمزة ، وفى النهاية يطلب من القارئ أن يتأمل اختلاف صيغ الألفاظ ليعلم كيف يضع يده فى استعمالها ، فكثيرا ما يقع فحول الشعراء والخطباء فى مثلها اذا لم ينعموا النظر ويعملوا الفكر فى مثل هذه المواقف والاستخدامات فيجب أن ترد هذه على الذوق الصحيح حتى يتأكد الانسان حسنها (ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر اذا مرت به الفاظ عرضها على ذوقه الصحيح ، فما يجد الحسن منها موحدا وحده ، وما يجد الحسن منها مجموعا جمعه وكذلك يجرى الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ) (٦٤) *

وبعد فما رأى ابن الأثير فى فصاحة الكلمة والكلام *

أولا : فصاحة الكلمة المفردة

يقرر ابن الأثير أنه لا مزية ولا فضل للكلمة المفردة ، مثله مى ذلك مثل باقى النقاد ، وهو على صواب فى ذلك لان اللفظة المفردة لفظه معجمية باردة لا تعطى معنى أكثر مما فى حروفها ، كما لا يمكن وصفها بالبلاغة كما أوضحنا سلفا الا اذا دخلت فى سياق وأدت دورا صحيحا كاملا فى هذا السياق غير أن الفضل والمزية التى يهك أن توصف بهما وشى مفردة هل هى مألوفة الاستعمال أو غير مألوفة وحشية أو أن تكون حروفها أخف حركة وأحسن امتزاجا

وبذا أيضا نتفقون على اخنها النى فى معناها (اعلم ان اللفظة
قبل دخولها فى سبيل التأليف ، وقبل أن تصير الى الصورة التى
تسمى كلاما دالا على معنى من المعانى لا يكون لها مزية على اختيا
التى فى معناها الا بان تكون هذه أشرف من هذه بعلامات توجد
فيها اما أن تكون احدهما مستعملة مألوفة ، والاخرى وحشية
متوغرة ، واما أن تكون حروف هذه أخف حركة أو أحسن امتزاجا مع
صواحبها ... ولا يتصور بين اللفظتين تفاضل فى الدلالة على المعنى
الذى اشتركا فيه حتى تكون احدهما أحسن فى الدلالة على ذلك
المعنى من الأخرى) (٦٥) *

ومدلول الدلالة فى هذه العبارة هو العلاقة بين المعنى الحقيقى
الذى وضعت له اللفظة أساسا ، وبين المعنى المجازى الذى استعيرت
له فاذا كانت علاقة المشابهة قربية ومفهومة بالاضافة الى حسن
مفارج حروفها كانت الكلمة بذلك أحسن فى الدلالة على المعنى
الجديد الذى وضعت أو نقلت اليه *

ومما يحسب لابن الانير ، كلامه عن اللفظة المفردة وانتباهه
الى أن هذه اللفظة لا يمتن الحكم لها أو عليها حتى تدخل فى سياق
ويظهر التوافق والتوارم بينها وبين سابقتها ولاحقتها ، وهذا نفسه
ما عناه عبد القاهر الجرجاني عندما تكلم عن البلاغة والفصاحة فذهب
الى أنه لا يمكن أن تتفاضل الكلمتان المفردتان ، قبل أن تدخل فى
سياق من التأليف والنظم ، أما خلا ذلك فانه لا يمكن الحكم
لها الا بان تكون مألوفة مستعملة ، أو غريبة وحشية أو أن تكون

حروفها أخف وامتزاجها أحسن ، كما لا تكون ثقيلة تكدر اللسان (٦٦) * وقد تساءل ابن الاثير هل فصاحة الكلمة مقيسة بمخارج حروفها ، سواء أكانت متباعدة أم متقاربة ؟

نراه ينفى ذلك ، ويرى أن ثمة ألفاظا متقاربة الحروف وهي غاية في الحسن ، وأخرى متقاربة وتكون غاية في القبح ، والحال أيضا كذلك بالنسبة لتباعد مخارج الحروف ، فليس اذن التباعد أو التقارب سبب حسن أو قبح الكلمة بل هناك اعتبارات أخرى كما سلف أن أوضحنا وبالنسبة لتباعد مخارج الحروف فان معظم اللغة العربية دائرة عليه ، لان الواضع قسمها الى ثلاثة أقسام : ثلاثيا : ورباعيا : وخماسيا ، فالثلاثي من الالفاظ هو الاكثر ، ولا يوجد فيه ما يكره استعماله الا الشاذ النادر وأما الرباعي ، فانه وسط بين الثلاثي والخماسي في الكثرة عددا واستعمالا وأما الخماسي فانه الاقل ولا يوجد فيه ما يستعمل الا الشاذ النادر ، وعلى هذا فان اكثر اللغة مستعمل غير مكروه ، كما عني بالمماثلة بين حركات الفعل في الوجود وحركات المصدر في النطق ، كالغليان ، والضربان ، والنقدان فان حروفه كلها متحركة وليس فيها حرف ساكن وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود ، اذن فان واضع اللغة نظر الى كل هذه الدقائق والاصول المعول عليها في النطق والمعول على حسن أو قبح هذه الالفاظ هو حاسة السمع ، فهي

الحاكمة فى هذا المقام بحسن ما يحسن من الالفاظ وقبح ما يقبح، واستحسناتها أو استقبحها انما هو اعتبار الخارج لا بعده سواء أكانت متباعدة أم متقاربة فهناك ألفاظ تقاربت مخارجها وتكون محمودة لا قبح فيها ، فالكلمة التى تتكون من الجيم والشين والياء المتقاربة المخارج (اذ هى من وسط اللسان بينه وبين الحنك) تكون حسنة رائعة لا قبح فيها مثل جيش ، وشجى فكاتا هما محمودة ، أيضا الحروف التسفهي ، كالباء والميم والفاء اذا نظمت منها شئ من الألفاظ كان جميلا مثل فم ، أو ذقت، هذا بفمى •

كما أن المتباعد فيه الحسن والقبيح أيضا (ولو كان التباعدا سببا للحسن لما كان سببا للقبح ، اذ هما ضدان لا يجتمعان) (١٧) ، مثل كلمة ملح ، فالميم من الشفة واللام من وسط اللسان ، والعين من الحلق وبرغم هذا التباعدا فان هذه الكلمة مكروهة الاستعمال ينبو عنها الذوق السليم ، غير أننا لو عكسناها لصارت علم ، وهى كلمة حسنة لا قبح فيها برغم عدم تغير مخارجها (ولو كان مخارج الحروف معتبرا فى الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة فى ملح وعلم) •

اذن مخارج الحروف سواء أكان من الحلق الى الشفة أو من الشفة الى الحلق لا دخل له فى حسن أو قبح الكلمة فاذا كانت كلمة ملح قبيحة ونظمة علم حسنة فان غيرها لو عكس لصار هو وعكسه فصيحاً حسناً ، كغلب وبلغ ، وعقر ، ورقع ، وعرف وفرع ، وحلف وفلح وما أشبه ذلك • غير أننا رأينا فى موضع آخر ينص على أن التباعدا سبب فى حسن الكلمة وهذا شئ غريب اذا عد

التباعد بين الأوصاف السبعة التي نستحق بها الكلمة مزية الحسن والجودة وعدّها على الوجه التالى :

الاول — تباعد مخارج الحروف *

الثانى — ان لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعدة *

الثالث — أن لا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة *

الرابع — أن لا تكون عبر بها عن معنى يكره ذكره ، فاذا أوردت وهى غير مقصودة بها ذلك المعنى قبحت *

الخامس — أن تكون مصغرذ يعبر بها عن سىء لطيف ، أو أخف ، أو نحو ذلك *

السادس — أن تكون مؤلفه من أقل الأوزان تركيبا *

السابع — أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة (٦٨) *

وبعد أن عدد هذه الأوصاف السبعة ، قام بدراسة ضافية عن الحروف ومخارجها وتعريف الصوت والحروف الحلقية والشجرية ، والذليقة والشفهية والخيومية (٦٩) نراه يعود مرة أخرى فيقرر ما قرره سلفا بأن (تباعد المخارج ليس بكاف فى حسن اللفظة ، ولا مقنع فى جودتها فانه قد تأتى لفظة مؤلفه من حروف متباعدة المخارج ولكنها تكون مبنية من حركات ثقيلة أو تكون وحشية ، أو غير ذلك من الصفات الذميمة فيعارض ذلك الوصف المحمود

(٦٨) الجامع الكبير ص ٣٣ ، ٣٤ *

(٦٩) الجامع ص ٣٥ وما بعدها وانظر المثل السائر ص ٩٢ *

هذا الوصف المذموم فيذيله ويذهب به) وان كنت لا أرى أن تتباعد
مخارج الحروف أو تقاربها سببا للمحسن أو الرداءة لان واقع لغتنا
العربية يدحض ذلك ، وبالتالي فان هذا الوصف لا أعتبره من
صفات حسن أو قبح اللفظة وأنه بعيد عن باب الفصاحة ، وكذا
قوله (ان الغالب على المتباعد المخارج من الالفاظ الجودة والحسن
والغالب على المتقارب المخارج الرداءة والقبح) (٧٠) *

ثانيا — أن لا تكون الكلمة وحشية ولا متوعدة ، ويعنى ابن
الأثير بالوحشية قلة الاستعمال فى الكلام ، وأن أحسن الألفاظ
عنده ما كان مألوفا دائرا فى الكلام قد صقلته الألسنة، وأنسسته الاسماع
والقلوب ، والحال هنا نسبية ، فما كان من الكلام غير مألوف عند
قوم فهو مألوف عند آخرين كما أن اللغة ليست وقفنا على قوم دون
آخرين فللمتكلم الحرية فى أن يأخذ من أى الاقوام شاء ، ماثاء
من الكلام مما يتناسب وموضوعه الذى يتكلم فيه فليس ثمة عيب
فى هذه الكلام بل العيب فىمن ابتعد عن استخدامه ، فما ذنب
السيف ان كان الضارب كليلًا ، والدليل على ذلك حديث طهفة بن أبى
زهير مع رسول الله ﷺ حتى ان عليا بن أبى طالب سأل الرسول
عليه الصلاة والسلام قائلا (يا رسول الله نحن بنو أب واحد ،
وربينا فى بلد واحد ، وفراك تكلم وفود العرب بما لم نفهم أكثره)
فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم (أدبنى ربى فأحسن
تأديبى ، وربيت فى بنى سعد) (٧١) *

(٧٠) الجامع الكبير ص ٣٥

(٧١) الجامع الكبير ص ٤٥

فان الله قد الهمة هذا الكلام وتلك المعانى وأنطقه بها ، كما أن
تربيته فى البادية فى بنى سعد علمه ذلك الأسلوب ، وما زال الجميع
على بداوتهم ، فمثل هذا الكلام مستعمل مألوف ، وما جاء منه فى
الكلام جاء عفوا غير متكلف ، ينساب فى سهولة ورقة ويسر لكن
المعيب هو أن يلبس المرء غير لباسه ، ويمتطى جودا لا يعرف
كيف يسوسه ، فانما الكلام كالمهر الاران ، لا يسلم عنانه الا لمن
كان قادرا على أن يمتطيه ، والا جمع به ومنه • فلا يأتى انسان
ويتكلم فى عصرنا الحاضر بما كان يتكلم به صعليك العرب متع
قوم حظهم من الثقافة العربية ضئيل ، اما اذا استعمل مع من يفهمه
لم يكن وحشيا ولا غريبا • حتى وان كان فى زمان غير زمانه لأن
اللغة كائن حى متكامل •

ونسببه بهذا ما ذكره فى المثل السائر (٧٢) عن استعمال الألفاظ
بين ساكن المدينة وساكن البيداء الذى يقول شعرا يقطر عذوبة
ورقة كشعر السموع بن عاديا ، وعروه بن اذنية أو غيرها ، ثم
يأتى ساكن المدينة الذى يعيش فى رفاغة من العيش ورقة الحياة
يحاول أن يأتى بوحشى الالفاظ ، وشظف العبارات لكى يثبت لنفسه
الفصاحة والبلاغة وهو على غير ذلك ، وما جره الى ذلك الا محاولة
التفقيته والتنعير واثبات قدرته القولية ، وكان الأجدر به أن يواكب
زمانه وخلانه فان فعل لم يكن معيبا وان اتى بالوحشى الذى يفهمه
من يسمعه •

(٧٢) المثل السائر ص ١٠٣ وما بعدها وانظر الجامع الكبير ص ٤٦ •

غير أنه يرى أن الالفاظ الوحشية قد خفى فهمها وظلت من المستقبح من الالفاظ وهى ليست كذلك ، ثم يقسم الوحشى الى قسمين :

• (أ) غريب حسن

• (ب) غريب قبيح

ويذهب الى أن هذه اللفظة «الوحشى» مستعارة من وحوش القفار، وفيها الوحش الحسن ، والوحش القبيح ، وأيضا فإن أحسن الوحش ما كان مقبولا من الجميع ، وكذا الالفاظ فأحسنها ما كان مألوفاً متداولاً ، وأقبحه ما كان مهجوراً لنفور الناس منه ، والحسن المألوف المتداول أيضا على درجات تبعا لحسنه ومن تم فإن الألفة تنقسم الى ثلاثة أقسام قسمين حسنين ، وقسم قبيح :

الأول — ما تداول استعماله بين الناس لا فرق فى ذلك بين السلف والخلف •

فكما استعمله الآباء استعمله الأبناء وهذا حسن لا يسمى وحشيا • الثانى ما تداول واستعمل عند الادباء فى الزمان الاول وابعد عن استعماله بعض الابناء لا لأنه وحشى ، أو يعاب من استعماله وهجر الناس له قربه من الوحشية ، أو على الأقل جعلته كالنافر من الوحوش ، لكن اذا استؤنس صار حسنا أليفا ومنه فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف أشياء تعرف باسم غريب القرآن وغريب الحديث (٧٣) كحديث طهفة بن أبى زهير •

الثالث : وهو القبيح من الألفاظ ويعرفه بأنه الوحشى الغليظ لان سمع السامع يستثقله بل يكرهه ، وما ذلك الا لانه أولا غريب الاستعمال وثانيا ثقيلا على السمع كرية على الذوق (واذا كان اللفظ يبيده الصفة فلا مزيد على فظاظته وغلاظته * وهـ و الذى يسمى الوحشى الغليظ ، ويسمى أيضا المتوعر ، وليس وراءه فى القبح درجة أخرى ولا يستعمله الا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله معرفة هذا الفن أصلا) (٧٤) ، ويضرب لهذا النوع العديد من الأمثلة التى وردت ضمن أبيات للعديد من الشعراء ، كلفظة جحيش فى بيت تأبط شرا واطلخم ودهاريس فى قول أبى تمام :

وقد اطلخم الامر وانبعث .: عشوا تلية غيسا دهاريسا

او لفظة جفخ فى قوله المتنبى :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم .: شيم على الحسيب الاغر دلائل

وان كنت لا أوافقه على رأيين له فى استعمال الغريب الوحشى من الألفاظ وهما :

١ — العرب لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الألفاظ بل تلام على استعمال الغريب القبيح منها ، أما الحضري فيلام على استعمال الغريب الحسن ، والغريب القبيح *

٢ — الغريب الحسن يسوغ استعماله فى الشعر ولا يسوغ فى الخطب والمكاتبات *

أما عدم لوم العرب على استعمال الغريب الحسن ، ولومها على الغريب القبيح فأنى أتساءل ما معيار الغرابة عنده ؟ كما أرى أن الحال نسبية فما كان عنده غريباً ربما لم يكن عند العرب كذلك ، وأيضا بالنسبة للقبيح فهل كان رأيهم فيه أيضا أنه قبيح ، وهل درى هو بذلك ؟ أما الطامة الكبرى فإنه يحرم على ساكن المدينة ما أباحه للعرب سكان البادية ، والسؤال هو هل تتجزأ اللغة العربية فيكون جزء منها لساكن المدينة ، وآخر لساكن الحضر ؟ الواقع يرفض ذلك بل اللغة كل لا يتجزأ ، فما كان صالحا لساكن البادية صلح لساكن المدينة وما عيب على ساكن الحضر ، عيب على ساكن المدر أيضا •

أما قوله بأن الغريب الوحشى الحسن يستعمل فى الشعر دون النثر ويصف من لا يوافقه فى هذا بصفات غريبة • فأنى أيضا أرفض ذلك منه فاللغة فيهما واحدة وإنما الذى يختلف هو الاحساس والشعور والعاطفة من موقف لآخر والموقف نفسه هو الذى يفرض النمط اللغوى الذى يستعمله الانسان وقت صياغته ما يريد ، والدليل على ذلك أنه أتى بأبيات شعرية فيها ألفاظ يمجها الذوق وتنفّر منها الاذن ، ومع ذلك سوغ استعمالها كلفظة شرنبته فى قول الفرزدق أو لفظة مشخمر لبديع الزمان الهزائى الذى أخذها منه بشر بن عوانه العيذى (٧٥) • أو لفظة الكنهور للمتنبى وما أشبه ذلك من ألفاظ يراها جميعا حسنة غير مستكرهة ولا أدرى كيف ذهب هذا المذهب •

(٧٥) انظر المثل السائر ج ١ ص ١٦٦ تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، وانظر الجامع الكبير ص ٤٨ •

ثالثا . ان لا تكون الكلمة مبتذلة بين العامة كان تكون ساقطة سوقية أو أن العامة حولتها من المعنى الموضوعه لهما الى معنى قبيح ، أو الى معنى آخر وان كان غير قبيح لكنه ليس المعنى الذى وضعت واستعملت من أجله ، واليك بيان كل قسم :

الاول : ما كان من الالفاظ دالا على معنى وضع فى أصل اللغة فغيرته العامة وحولته الى معنى آخر وهو نوعان :

(أ) ما يستقبح ذكره ويكره كقول المتنبي :

أذاق الغواني حسنه ما اذا قنتى . . . وعف فجازاهن عنى بالصرم

فالفعل صرم فى أصل اللغة يعنى القطع عكس الوصل ، فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره وأبدلت السين صاداً (٧٦) لذاكره استعمال هذه اللفظة وما جرى مجراها من ألفاظ .

(ب) استعمل فى غير معناه الاصلى ، فأنكر استعماله وصار مبتذلاً (والذى ترجح فى نظرى أن المراد بالمبتذل من هذا القسم انما هوا الالفاظ السخيفة الضعيفة سواء تداولتها العامة أو الخاصة) (٧٧) *

فليس المقصود من استعمالها ، اذا المقصود كيف استعملت فتسمية الشيء باسم غيره دون علاقة ، مثل بفصاحة اللفظة كأن تصف انسان

(٧٦) الجامع الكبير ص ٤٩ وانظر المثل السائر ج ١ ص ١٨٢ تحقيق

محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٧٧) المثل السائر ج ١ ص ١٨٢ .

بالظرف اذا كان دمث الاخلاق حسن الصورة مهنما ، لكن الظرف
فى أصل اللغة صفة للنطق كما أن لباقي شمائل الانسان صفات
دالة عليه ، وهذه الالفاظ جاءت فى شعر معظم الشعراء قديمهم
وحديثهم لكن تتفاوت درجة الاتيان به بين القلة والكثرة ومنه
ما ورد عن المتنبي كقوله :

وملومة سيفية ربيعية . : يصيح فيها الحما صياح اللقالق

فاللقالق جمع لقلق وهو طائر كبير بالعراق ، وهذه اللفظة
واسعة الانتشار بين العامة *

رابعا : وهو خاص بالمشترك اللفظى ، فيكون للكلمة معنيان
أحدهما يكره ذكره والآخر لا يكره ، فلا بد من قرينة فى الكلام
حتى يتحدد المعنى المقصود والا انصرف الوهم الى ما يقبح ذكره
لا شتهاره به دون غيره (٧٨) وذلك مثل لفظه التعزير ، فان هذه
اللفظة عندما تطلق يتبادر الى الذهن العقوبة التى تسبق حد الجلد
أو ما شابه ذلك ، ومعناها التعنيف أو الاهانة فاذا استخدمت فى
سياق دون قرينة تحدد المعنى المقصود سواء أكانت قرينة ظاهرة
أو خفية أستخدمت للمعنى المتداول المعروف وهو الاهانة اما
اذا استخدمت ومعها القرينة تحدد ما يرادفها فلو قلت قابلت محمدا
فعرزته عندها ينصرف الذهن للاهانة أما لو قلت قابلت محمدا
فعرزته وأكرمته لبان المقصود ، وعليه جاء قوله تعالى : « فأما الذين
آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى انزل معه أولئك
هم المفلحون » فالقارئ المذكورة مع هذه اللفظة فى الآية دلت
على أن المقصود هو المعنى الحسن من التعظيم والاكرام *

وكذلك لفظة مقاعد ، وجحر فقبحت الأولى فى قول الشريف الرضى :

أعزز على بأن أراك وقد خلا .: عن جانبك مقاعد العواد

وقد استعملها القرآن الكريم استعمالا حسنا فقال تعالى :
« واذا غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال » أو كقوله
تعالى : « وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع » وما أشبه ذلك .

خامسا : والأوصاف التى توجد فى اللفظة ، وتستحق بها مزية
الحسن والجودة هو كون الكلمة مصغرة فى موضع يعبر بها عن
شئ دقيق أو ضعيف ولكن بشرط أن لا يكثر منه المتكلم حتى
لا يهجن كلامه فيكفى الوجه تسامة واحدة لإبراز حسنة وجماله ،
أما اذا زاد تغير الوضع الى ضده كقول الشريف الرضى :

هل ناشد لى بعقيق اللوى .: غزىلا مر على المركب (٧٩)

غير أن له رأيا آخر فى التصغير ، وهو أن المعنى يسوق اليه
ومن ثم فلا حاجة لذكره (٨٠) .

سادسا : أن تكون الكلمة مؤلفة من أقل الأوزان تأليفا (٨١)
وبذا استحسنت الثلاثى وبعض الرباعى ، أما الخماسى فإنه رآه
قبيحا ويقطع بعدم وجود شئ منه حسن ، وذلك كجحمرتن ،
وصهصلق ، ويعلل ذلك بأن أصول الثلاثى وبعض أصول الرباعى

(٧٩) الجامع الكبير ص ٥٦ .

(٨٠) المثل السائر ج ١ ص ١٥٥ ت محيى الدين عبد الحميد .

(٨١) المثل السائر ط ص ١٨٨ ت محيى الدين والجامع ص ٥٧ .

قد ركبت من حروف قليلة خفت على النطق لقصرها ، ومن ثم سهل التعبير بها على اللسان بسرعة فراغة منها ؛ والعكس صحيح فاذا ركبت الكلمة من حروف كثيرة كان فى النطق بها كلفة على الناطق لتطولها وامتداد الصوت بها *

فالتلاتى عذب والخماسى المعيب كقول المتنبى :

ان الكرام بلا كرام منهم .: مثل القلوب بلا سويداواتها

فكلمه سويداواتها خرجت عن القبول لانها تطاولت وخرجت عن حد الاعتدال كما يقول (٨٢) ، غير أن الغريب العجيب أنه فى كتابه الجامع الكبير قد جعل طول اللفظة عيب فيها وخروج عن الاعتدال ، نم فى كتابه المثل السائر ينفى ذلك معلقا على قول ابن سنان الخفاجى حول كلمة سويداواتها قائلا (وقال : — اى ابن سنان — ان لفظه سويداواتها طويله ، فلماذا قبحت ، وليس الأمر كما ذكره ، فان قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها ، وانما هى لأنها فى نفسها قبيحة) (٨٣) *

سابعاً : أن تكون الكلمة مبنية من حركات خفيفة ، وحروف قليلة ، حتى تكون سهلة النطق يسيرة التشكيل بالحركات ، أى أن موسيقية الكلمة حروفا وحركات لابد أن تكون متناسقة بين الخفة والثقيل ، فلا تكون كلها « نشازا » فتكون مكونة من حروف كثيرة ونغمات أو حركات ثقيلة ، ومن ثم فإن الحركات اما خفيفه

(٨٢) الجامع الكبير ص ٥٨ *

(٨٣) المثل السائر ج١ ص ١٨٨ تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد *

أو ثقيلة أو بمعنى آخر الموسيقى اما حادة أو هادئة فاذا نوالـت
 حركتان هادئتان ، كان لذلك وقعـه فى الأذن فتأنس به وتطرب له ،
 وأيضا اذا كانت حركة ثقيلة تتبعها حركة خفيفة قبلتها الاذن الى حد
 ما ، بخلاف ما اذا كانت الحركات كلها ثقيلها فتكون عنيفة عند
 أصطكاكها بالأذن ، ومن نم تنفر منها وينفر منها الناطق ، أى
 السامع والمتكلم •

والحركات من حيث الخفة ، والثقل تتوالى كالأتى ، فالفتحة
 أخف الحركات تليها الكسرة ، وآخرها الضمة لان الحركات تشابه
 الحروف ، ولما اشبعت هذه الحركات انقلبت الى حروف فعندما
 تشبع الفتحة تكتب ألفا ، واذا اشبعت الكسرة كتبت ياءً ، واذا
 اشبعت الضمة انقلبت واوا ولهذا السبب ذهب علماء العربية
 الى تسمية الضمة بالواو الصغيرة ، والكسرة بالياء الصغيرة ،
 والفتحة بالالف الصغيرة ، ومن ثم استتقلوا مجيء هذه الحركات
 على تلك الحروف ، لذا فانها تحذف للثقل أو لتعذر النطق بها لان
 الحركة الكبيرة تحتوى على الصغيرة فلا تظهر عند النطق بها •

وقليل من هذه الحروف تأتى عليها تلك الحركات وتكون
 مقبولة ، خاصة اذا كانت الكلمة ثلاثية تنساب حروفها بهذه الحركات
 نطقا فى خفة وسهولة ، فتتوالى هذه الحروف اما من الداخل الى
 خارج الفم ، أو العكس ، فتكون حركة النطق بها ميسورة
 فمثلا كلمة ضرب ، اذا وضعنا الفتحة على حروفها الثلاثة

كان النطق بها ميسورا هادئا ، واذا بنيت للمفعول كانت كذلك لكن لا تكون فى خفة الأولى ، بخلاف ما اذا وضعنا الضمة على جميع حروفها فان نطقها سيكون عسيرا والسبب ليس بسبب مخارج حروفها بل بسبب اختلاف تأليف حركاتها •

وان كنا قد وجدنا بعض الكلمات وضعت الضمة على جميعها ووجدنا ذلك مقبولا غير مرفوض وما ذاك الا لسيوع هذه الكلمة وتداولها بين المتكلمين ومجيئها على القاعدة التى وردت عن العرب فى مثل هذه الألفاظ • فصارت مألوفة بهذه الصورة ، والمألوف يصبح سهلا ميسورا لان الناس قد تعودوا عليه ، وألفته السنتهم وآذانهم ، وقد ورد كثير من مثل هذه الألفاظ فى القرآن الكريم ، والشعر العربى • غير أن الذى حسن ذلك انما هو شيوع هذه الكلمة أو تلك بهذه الصورة ، فصارت كوحش استؤنس فصار طيعا مألوفًا ، ومن أمثلة ذلك فى القرآن الكريم قوله تعالى (ولقد أُنذِرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) وكقوله تعالى : (ان المجرمين فى ضلال وسُعر) أو (وكل شيء فعلوه فى الزبر) ومن ثم يعلق عليها ابن الأثير قائلا (فحركة الضم فى هذه الألفاظ متوالية وليس بها من ثقل ولا كراهة) (٨٤) •

(٨٤) المل السائر ج١ ص ١٩٢ تمحيى الدين وانظر الجامع الكبير ص ٥٩ وما بعدها وبعث محققا الكتاب على قول ابن الاثير عن النسوع السابع انه هو الذى ابتكره • بل الواقع ان ابن جنى قد اشار الى ذلك ولم يحتجعه أو يستنبطه ابن الاثير ، بل أخذه من ابن جنى وادعاه انظر الخصائص ج١ ص ٩ ، ص ٧٣ - ص ٧٧ •

وأيضا قول أبى تمام :

نفس يحتثني نفس !: ودموع ليس تحتبس

ومغان للكرى دتر !: عطل من عهده درس

شهرت ما كنت اكتبه !: ناطقات بالهوى خرس

ومن العيوب التي أوردتها أيضا ورآها مخلة بفصاحة الكلمة ما أوردته متناثرا في كتبه غير ما جمعه في صعيد واحد كما تقدم ، وذلك مثل فك الادغام في الفعل الثلاثي ونقله الى اسم الفاعل وعلى هذا فلا يحسن أن يقال : بل الثوب فهو بالك ، ولاسل السيف فهو سالك ، ولا أن يقال هم بالأمر فهو هامم ويسمى هذا النوع بالمنافرة وهو (أن يذكر لفظ أو الألفاظ يكون غيرها مما هو في معناها أولى بالذكر) (٨٥) ويقسمه قسمين :

(أ) ما يوجد في اللفظة الواحدة •

(ب) ما يوجد في الألفاظ المركبة •

وسنتناول أولا بالحديث ، اللفظة الواحدة ، ونرجى الكلام عن الألفاظ المركبة لحيثها •

يرى أن ما يوجد منه في الألفاظ المركبة يمكن تبديله أو تغييره سواء كان الكلام نثر أو شعرا ، أما ما يوجد في اللفظة المفردة سواء تعددت أو لم تتعدد فإنه لا يمكن تبديله بغيره خاصة في الشعر ، وإن تمكنا في النثر ، وأعتقد أنه ممكن في الشعر والنثر

(٨٥) المثل السائر ج١ ص ١٨٣ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد •

طالما كان المتكلم حاذقا بصيرا بأسلوب الكلام . ولا يعوقه عائق الوزن أو غيره فان فى اللغة ثراء كبيرا وسعة ، ويضرب مثلا لذلك بقول المتنبى :

فلا يبهرم الامر الذى هو حال . ولا يحل الامر الذى هو يبهرم

(لفظة حال نافرة عن موضعها وكانت له مندوحة عنها لأنه لو استعمل عوضا عنها لفظة ناقض فقال :

فلا يبهرم الامر الذى هو ناقض . ولا ينقض الامر الذى هو يبهرم

لجاءت اللفظة قارة فى مكانها غير قلقة ولا نافرة) (٨٦) .

ومن هذه العيوب يتضح اننا فهم ابن الأثير لما ينبغى أن تكون عليه اللفظة المفردة حتى تكون فصيحة مقبولة .

ثانيا : فصاحة الكلام

وكما تناول ابن الأثير فصاحة الكلمة وحدد معالمها تناول أيضا فصاحة الكلام فيحدد هذه المعالم وضرب الأمثلة وكلها تدل على بصر ناقب باللفظة المفردة ثم عند دخولها فى سياق ، وهو ما يعرف عند ابن الأثير بصناعة تركيب الألفاظ (٨٧) وكما أوضحنا سلفا فانه انتهى الى أن اللفظة المفردة قبل دخولها فى سبل التأليف وقبل أن تصير كلاما مفهوما دالا على معنى من المعانى

(٨٦) المثل السائر ج١ ص ١٨٤ وانظر الجامع الكبير ص ٢٧٣ .

(٨٧) الجامع الكبير ص ٦٤ .

لا يكون لها مزية ولا فضل الا من حيث الألفة والاستعمال ، وما أثبت به ذلك مما سبق أن أشرنا اليه •

وأیضا لا يمكن أن يحكم الانسان على أى كلام قبل أن ينظر الى شروط الفصاحة فى كل كلمة على انفرادها ، ثم اذا رأى أنها توفر فيها شروط الفصاحة ينظر اليها من خلال التأليف ، أى فى مكانها الجديد هل هى متمازجة متواكبة غير قلقة مع سياق الألفاظ الذى قبلها ، أو يعدها ، وهل هى مناسبة فى هذا المكان أو مضطربة •

اذا المعول عنده بعد اختيار اللفظة التى تؤسم بالفصاحة وتحققت شروط الفصاحة فيها هو حسن التأليف وجودة التركيب فلا بد أن يتواءم اللفظ والمعنى والتركيب حتى يتحلى الكلام بالرونق والطلاوة ، واذا كان المعنى جيدا والتركيب فاسدا ، فسدت لذلك قيمة العمل الأدبى كله ، وفقد رونقه وحلاوته ومثال ذلك العقد الثمين الذى أفسد نظمه ، فوضعت كل درة مع ما ينافيها ولا ولا يناسبها ، فصار مختل المنظر ، بخلاف عقد غير ثمين ، وضعت فيه كل حبة مع ما يناسبها ، فأحسن تنفيذه ، فخرج رائقا فى منظره (وحسن التأليف : هو أن توضع الألفاظ فى مواضعها ، وتجعل فى أماكنها ، وسوء التأليف بخلاف ذلك) (٨٨) أى بأن تدخل بعض العيوب على الألفاظ فى مواضعها ، فيختل نظمها ويفسد تركيبها كأن يقدم ما حقه التأخير أو العكس ، أو عاقل فى الكلام فتصير

المعانى تبعا لذلك نافرة قلقله عن مواضعها مضطربة (ومثال ذلك كالصورة التى تحول بعض أعضائها الى موضع بعض ، فتحول الرأس الى موضع اليد أو الرجل أو غير ذلك فانه اذا فعل هذا قبحت الصورة .وفسدت هيئتها الجميلة الحسنة) *

وكذلك الألفاظ اذا وضعت فى غير مكانها الصحيح وركبت مع أخواتها (فان لتركيبها حكما آخر وذلك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ، ما يخيّل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التى كانت مفردة) (٨٩) *

فالعيب ليس فى اللفظة ، وانما العيب كل العيب فى استخدام اللفظة فى سياق اذ عند ما تدخل هذا السياق ، أحيانا نصفها بأنها متمكنة مرضية ، أى حسنه الاتفاق بين الألفاظ بعضها مع بعض ، وقد نصفها بأنها قلقله مستكرهه ، أى غير ملائمة ولم تتوافق مع صوابها فقد ينظر الانسان الى لفظة واحدة جميلة رائعة قبل أن تدخل فى سياق ، فاذا دخلت فى هذا السياق أو ذاك حكم عليها فى أحدهما أنها جميلة متمكنة ، وفى آخر قلقله نافرة ، ومن ثم فالعيب ليس فيها ، وانما العيب فى سبكها مع صوابها ، ومثال ذلك ما أورده الجرجاني فى كتابه دلائل الاعجاز حيث تكلم عن لفظة « الأخدع » ولفظة شىء فان هذه اللفظة كانت رائعة مستحسنة فى كلام ، وكانت قبيحة نافرة فى كلام آخر حيث يقول : (الألفاظ تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، لا من حيث هى كلمة مفردة

(٨٩) الجامع الكبير ص ٦٥ وانظر المثل ص ١١٤ ويضرب لذلك مثلا بالعقد *

وأن الالفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملائمة معنى اللفظة لمعنى
التي تليها أو ما أتبعه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظة ، مما يشهد
لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها
تشغل عليك وتوحتسك فى موضع آخر كلفظة الأخدع فى بيت
الحماسة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتنى .: وجعت من الاصغاء لبيتنا واخذعا
وبيت البحترى :

وانى وان بلغتنى شرف الغنى .: واعنقت من رق الطامع اخدعى
فان لها فى هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ثم انك تتأملها
فى بيت أبى تمام :

يادهر قوم من اخدعك فقد .: اضجبت هذا الانام من خرقك
فتجد لها من الثقل على النفس ، ومن التنغيص والتكدير
أضعاف ، ما وجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة (٩٠)
وكذا لفظة تسيء فى قول عمر بن أبى ربيعة أو أبى حية الذى
يقول :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة .: تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا
بـ .
بخلاف قول المتنبى :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه .: لعوقه شيء عن الدوران

وهذا نفسه ، ماعناه ابن الأثير ، بل اننى أراه فى كثير من جوانب عرضه للموضوع يتوكأ على الجرجانى ، فيأتى بكلامه هو نفسه ، ويستشهد بأبياته ، فبعد أن رأى مثل الجرجانى أن اللفظة تروق وتحسن فى مكان وتستكره وتثقل هى نفسها فى مكان آخر ، وضرب لذلك مثلاً بلفظة الأخدع فى بيت الحماسة والأخرى فى بيت أبى تمام سالف الذكر ، نراه يعقب على ذلك بقوله : (ألا ترى أنه قد وجد لهذه اللفظة ببيت أبى تمام من الثقل على النفس والكراهة أضعاف ما وجد لها فى بيت الحماسة من الروح والخفة والايناس والبهجة) (٩١) •

ومهما يكن من أمر فانه قد عرض للعيوب المخلّة بفصاحة الكلام كالمعازلة والمنافرة ، والتعقيد ، والاعتراض والحشو ، وتكرار الحروف وما أشبه ذلك مما سنعرض له بالتفصيل •

المعازلة : مأخوذة من قولهم تعازلت، الجرادتان ، اذا ركبتا احدهما الأخرى ، واستعيرت للكلام المركب ، لعلاقته المتسabee بين تراكب الجرادتين ، وتراكب الكلام ، فسمى الكلام المترابك بذلك على سبيل الاستعارة سواء كان التراكب فى اللفظ ، أو فى المعنى ، وقد قسمها الى معازلة لفظية ، وأخرى معنوية (٩٢) •

أولاً : المعازلة اللفظية : ويتقسم هذا النوع من المعازلة الى خمسة أقسام :

(٩١) الجامع الكبير ص ٦٧ •

(٩٢) المثل السائر ج١ ص ٢٩٢ ت محيى الدين عبد الحميد •

(أ) ما يتصل بحروف الجر ، نحو من ، الى ، عن على ، فاذا سبكت هذه الحروف مع ألفاظ تسهل منهما لم يكن بهما ثقل ، بخلاف ما تسبك مع ألفاظ تثقل منهما ، فالأول كقول قطري بن الفجاءة :

ولقد أرانى للرماح دريئة .: من عن يميني مرة وإمامي فلم يثقل بهما ، بخلاف قول أبي تمام :

الى خالد راحت بنا ارحبية .: مرافقها من عين كراكرها نكبي فانهما عندما اضيفنا الى لفظة الكراكر نقلت منهما *

وهذه الحروف أيضا متفاوتة في الثقل ، فان منها ما هو أشد نفار من هذا وهو قول المتنبي :

وتسعدني في غميرة بعد غميرة .: سيوح لها منها عليها شواهد ويعلق ابن الأثير على هذا البيت قائلاً (قوله لها منها عليها من الثقيل الثقيل الثقيل) (١٣) *

(ب) تكرير الحروف ، وليس المقصود من ذلك تكرير حروف اللفظة الواحدة فقط ، بل تكرير حرف أو حرفين في كل لفظة من ألفاظ الكلام المركب سواء أكان منثورا أم منظوما فيثقل حينئذ النطق به ، ويمثل لذلك بالبيت المشهور المعروف في ذلك وهو .

وقبر حرب بمكان قفر .: وليس قرب قبر حرب مبر

ويعلق عليه بقوله • (فهذه القافات والراءات كأنها
فى تتابعها سلسلة ولاخفاء بما على الناطق بها من الكلفة) (٩٤) •
ويورد أيضا قول الحريرى فى مقاماته :

وازور من كان له زائرا : وعاف عاف العرف عرفانه

فكر فى الشطر الثانى من البيت •

وكما يقع التكرير فى الشعر يقع أيضا فى النثر ، من ذلك
ما حكاه ابن الأثير عن بعض الوعاظ أنه أورد فى كلامه :جنى
جنات وجنات الحبيب ، فصاح رجل كان بالمجلس وتغاشى فسأله
الذى كان الى جانبه عما حدث له فقال سمعت جيما فى جيم ، فى
جيم فصحت فيعلق عليه ابن الأثير قائلا (وهذا من أقبح عيوب
الألفاظ) (٩٥) •

(ج) أن ترد ألفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا ، فتثقل
فى الاستعمال ولو عطف المتكلم بينها بحروف العطف لزال هذا
الثقل :

فنجد هذه المعازلة فى قول القاضى الأرجانى فى وصف شمعة
تحترق :

بالنار فرقت الحوادث بيننا : وبها نذرت أعود أقتل روحى

(٩٤) الجامع الكبير ص ٢٧٣ وعبارة المثل السائر : ولاخفاء بما فى ذلك

من الثقل المثل السائر ج١ ص ٢٩٦ ت محيى الدين •

(٩٥) المثل ج١ ص ٢٩٧ ت محيى الدين •

فأنى بالصبيغ نذرت أعود أقتل متتابعة ، ومثله قول المتنبي :

قل أنل اقطع احمِل عل سل عد .: زد هش بش ادن سر صل

فكرر أيضا صيغة الفعل كأنه قال افعل ، افعل ، افعل ... فلو عطف
لكان أفضل درءا للعيب مثل قول عبد السلام بن رغبان :

فسد الناس فاطلب الرزق بالسيد .: ف والانمت شديد الهزال
احل وامر وضر واتقع ولن واخش .: سن وايرز ثم انتدب للمعالي

فالعطف بالواو زال تعاضلها ، وعليه جاء قوله تعالى (... فاقتلوا
المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم
كل مرصد) * وعلى حد تعبير ابن الأثير (لو كان معاملة لما ورد
فى القرآن الكريم مثله) (١٦) *

(د) تتابع الاضافات الكثيرة : وهو أن يتوالى أكثر من مضاف
ومضاف اليه فى الكلام ، وكلما زادت الاضافة كلما زاد الكلام
قبحا وثقلا ، فالاول كقولنا : سرج فرس غلام زيد ، والثانى مثل :
لبد سرج فرس غلام زيد ، وعلى هذا المنوال ورد قول الشاعر
ابن بابك :

حمامة جرجا حومة الجندل اسجى .: فانت بهر اى من سعادومسمع(٩٧)

(٩٦) المثل السائر ج١ ص ٣٠١ ت محبى الدين *

(٩٧) المثل السائر ج١ ص ٣٠١ *

(هـ) تعدد الصفات : كقول أبي تمام فى وصف جمل :

سأخرق الخرق بابن خرقاء كالـ . : هيف اذا ما استحم من نجده

مقابل فى الجدبل صلب القرا . : لو حك من عجبته الى كتده

تامكه نهده مداخله . : ملمومة محزله أجده

ويعلق على هذا البيت ابن الأثير بقوله (فالبيت الثالث من
المعازلة التى قلع الأسنان دون إيرادها) (٩٨) *

ويخلص من هذه الابيات ومثيلاتها ليخرج بنتيجة قطعية وهى
أن المعازلة اللفظية توجد فى شعر أبى الطيب المتنبى كثيرا ،
بخلاف المعازلة المعنوية فانها كثيرا ما تقع فى شعر الفرزدق (٩٩) *

ثانيا المعازلة المعنوية

وبعد أن فرغ من الكلام على المعازلة اللفظية بأقسامها ،
تناول المعازلة المعنوية ، ويرأها بأنها تداخل معانى الكلام بتقديم
ما كان يجب تأخيرها ، وتأخير ما كان يجب تقديمه وما أشبه ذلك (١٠٠) ،
ويقسمها الى أقسام كما فعل فى المعازلة اللفظية فيقول : عن المعازلة
المعنوية (وأما المعنوى فهذا بابيه وموضعه ، وهو كتقديم الصفة
أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول وغير

(٩٨) المثل السائر ج١ ص ٣٠٢ *

(٩٩) المثل السائر ج١ ص ٣٠٤ *

(١٠٠) الجامع الكبير ص ٢٣١ *

ذلك مما يرد بيانه (١٠١) * والمعاظلة بهذه الصورة تجعل الكلام غير مفهوم أو غير واضح الدلالة وتبعا للتقديم والتأخير ، أو الفصل بين العامل ومعموله تتفاوت درجات المعاظلة فى القبح لأن الكلام إذا اختلفت معانيه صعبت مراميته ومفاسده ، ولن يفهم إلا إذا أعيد ترتيبه وفق معانيه حتى يفهم المقصود منه فمثال :

تقديم الصفة وما يتعلق بها على الموصوف كقول الشاعر :

فقد والشك بين لى عناء . . بوشك فراقهم صرد يصيح
فقدم بوشك فراقهم وهو معمول يصيح التى هى صفة لصرد وكما لا يجوز تقديم الصفة على موصوفها ، فانه لا يجوز تقديم ما اتصل بها على موصوفها *

ومما بلغ درجة الغاية فى القبح قول الشاعر :

فاصبحت بعد خط بهجتها . . كأن قفرا رسومها قلمها

فتقدير البيت : فاصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلمها خط رسومها * وعلى هذا النحو نراه قد قدم خبر كأن عليها ، وهو خط ، وفصل بين أصبح وخبرها وهو قفرا بكأن مما أدخل بالمعنى وجعله مضطربا وعلى قول ابن الأثير (والمعاظلة فى هذا الباب تتفاوت درجاتها فى القبح وهذا البيت المشار اليه من أقبحها لأن معانيه قد تداخلت ، وركب بعضها بعضا) (١٠٢) *

(١٠١) المثل السائر ج ٢ ص ٤٤ *

(١٠٢) المثل السائر ج ٢ ص ٤٥ وانظر الجامع الكبير ص ١١٣ وما بعدما

ومنه قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس الا مملكا . . أبو أمه حى أبوه يقاربه

وهذا من أشد أنواع التعاقل المعنوى الذى يجعل الشعر مشوها لأنه جاء أولا متكلفا ، وثانيا أن الهدف المراد من الكلام وهو الإيضاح والابانة وافهام المعنى انعدمت فى مثل هذه الأبيات فاذا ذهب المقصود من الكلام ذهب المراد به وسقط تبعاً لذلك الكلام ، وأصبح عارياً عن الفصاحة ، لأن هذا الكلام ضدها (١٠٣) .

المنافرة

وهى من الأشياء المخلة بفصاحة الكلام المركب ، وحدها : أن تذكر ألفاظ يكون غيرها مما فى معناها أولى بالذكر منها (١٠٤) . وبهذا تفترق المنافرة عن المعاطلة وكما سبق أن أوضحنا ، فإن المعاطلة هى التراكب والتداخل اما فى الألفاظ ، واما فى المعانى ، بخلاف المنافرة التى لا تراكب فيها بل كما سبق تعريفها هو ايراد ألفاظ غير لائقة بمكانها التى وضعت فيه ويوجد غيرها أولى منها بالذكر فى هذا المقام لأنه سيكون أوضح وأبين على المعنى المراد .

وأثناء حديثنا عن فصاحة اللفظة المفردة تناولنا المنافرة فى اللفظة المفردة ، هناك وأوردنا أمثلتها ، والآن سوف نتناول المنافرة فى الكلام المركب فمن أمثلتها فى الكلام المركب قول أبى الطيب

(١٠٣) المثل السائر ج٢ ص ٤٦ وانظر أيضاً الجامع الكبير ص ٢٣١ .

(١٠٤) المثل السائر ج١ ص ٣٠٤ .

المتنبى :

لا خلق اكرم منك الا عسارف . . بك راء نفسك لم يقل لك هاتها

فان عجز هذا البيت نافر عن موضعه (١٠٥) *

وبهذا ينهى ابن الأثير كلامه عن الفصاحة ، وكنا نود لو أنه أسهب القول فى شروط فصاحة الكلام المركب ، مثلما أسهب فى شروط فصاحة اللفظة المفردة ، فقد رأينا فى الصفحات السابقة شدة احتفائه بالتركيب الذى يعطيه أهمية كبيرة ومما يحمد له فى هذا المضمار أنه انتهى الى أن التركيب فى الكلام ، اما أن يعلو به ، أو يهبط ، وضرب لذلك مثلاً باللؤلؤ والعقد (١٠٦) * غير أنه اكتفى بذلك ولم يكمل ، بل قسم الكلام المركب الى ألوان بلاغية متعددة ثم درسه من خلال هذه الألوان كما سنعرض فيما بعد *

(١٠٥) المثل السائر ج ١ ص ٣٠٩ *

(١٠٦) المثل السائر ج ١ ص ١١٤ *

دراسات ابن الأثير لفنون البلاغة

أولا
علم المعاني

تمهيد :

بعد أن عرض ابن الأثير لقضايا الفصاحة والبلاغة نثر في كتبه بعض الألوان البلاغية للعلوم الثلاثة أعنى المعانى والبيان والبدیع ، فناقش وحل ومثل لبعضها بعد أن سبر أغوارها ، فاستخرج دررها ، وبعضها مسحها برفق كأنه يريد أن يعلم كاتب الانشاء بالألوان البلاغية التي يجب عليه أن يعرفها لكي يكسب كلامه رونقا وبهاء ، فعرض لما يهتم الكاتب ، وان كان في عرضه هذا قد اضطرب وخلط أحيانا ، وقد سيطرت عليه شهوة المعارضة والمجادلة ، من أجل المعارضة والمجادلة فقط مما أوقعه في الخطأ كثيرا مثلما خلط بين التشبيه مضمرة الأداة والاستعارة أو بين الوان الاستعارة والكناية ، وأيضا أدت به معارضته في المجاز المرسل لابن جنى ، والغزالي الى خلط غير مقبول من هذا العالم النحرير ، وأيضا هذه التقسيمات العديدة التي جعلها للكناية لم تخرج في مجملها عما ذهب اليه علماء البلاغة من كناية عن صفة أو موصوف أو نسبة ، ولكن شهوة المعارضة من ناحية ومحاولة الزهو من ناحية اخرى أودت به الى هذا المنعطف الحاد .

لكن ليس معنى هذا أن الرجل كان متخبطا ، بل كان ذا قدم راسخة في علوم البلاغة وتلك التفريقات التي أتى بها ، وهذه المناقشات التي تدل على ذوق أدبي رائع خاصة ما وجدناه في المقابلة والطباق والجناس ، وأيضا التفرقة الدقيقة بين الكناية والتعريض ، ومناقشة مسائل الإيجاز والإطناب والمساواة على الصورة التي أوردتها لتدل بصدق على ترف ذوقى بلاغى كبير لدى

الرجل وكما يقال لكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة فيكفيه أن
تعد معانيه دليلاً على فضله وثاقب فكره .

ومهما يكن من أمر فانه عرض لبعض علوم البلاغة الثلاثة . ولذا
سوف نتناول ما أورده بالدراسة ، وأول نبدأ به هو علم المعانى
والسؤال الذى يطرح نفسه الآن وهو كيف عرض ابن الأثير لعلم
المعانى ؟ والاجابة على السؤال تكون بدراسة مواد علم المعانى عنده

علم المعانى

معلوم من دراسة البلاغة بالضرورة أن علم المعانى مجموعة من
القواعد التى توجد فى الكلام ، وتكون مستقلة على خصوصيات
يقتضيها الحال ويفرضها المقام كى يوصف صاحبه بالبلاغة والفصاحة
فهو يضيف ظلالاً على أسلوبه بهذه الخصوصيات تميزه عن فقدها .
وتنحصر مباحث علم المعانى فى ثمانية أبواب :

- ١ — أحوال الاسناد الخبرى .
- ٢ — أحوال المسند اليه .
- ٣ — أحوال المسند .
- ٤ — أحوال متعلقات الفعل .
- ٥ — القصر .
- ٦ — الانشاء .
- ٧ — الفصل والوصل .

٨ — الایجاز والاطناب والمساواة (١) *

هذه هي مباحث علم المعاني كما وردت في الايضاح لكن ابن الأثير لم يتناولها كلها وانما تناول بعضها ودرس وشرح ومثل ، وأحيانا تكون الدراسة عميقة وأحيانا أخرى تكون مجرد تعريف بالشيء والانتقال الى غيره كما سوف نرى *

أولا : الاسلوب الخبري : لم يحدد ابن الأثير هذا العنوان الذي وضعناه لدراسة هذا الاسلوب ، وانما ذكره تحت عناوين متفرقة ، ولم يفصل حقيقة الاسناد وانما دراسة تحت عنوان : (الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما) (٢) ، هذا كلامه في كتابه المثل السائر ، أما كلامه في الجامع فقد قال (الخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية الموكدة بأن المشددة،وتفضيل أحدهما على الاخرى) (٣) وان كانت دراسته الاولى في المثل أو في من الثانية الموجزة *

والملاحظ على هذه الدراسة أنه لم يبسط القول في ركني الاسناد ، أي المسند أو المسند اليه ، وانما تناول مباشرة الجملة ، وأيهما أكد وأبلغ ، وان ذكر بعض أدوات التوكيد ومثل لذلك * وهذا ما يعرف بأضرب الخبر تبعا لحالة السامع من التردد والشك أو الدئبي أو خلو الذهن وما نسابه ذلك ، وكما نعلم فان الجملة

(١) الايضاح ص ١٠ بتصرف *

(٢) المثل السائر ج٢ ص ٥٤ *

(٣) الجامع الكبير ص ٢٢٤ *

الفعليه هي التي تتكون من الفعل والفاعل أو ما ناب عناب الفاعل وتوضع هذه الجملة لكي تفيد التجدد والحدوث في وقت محدد مع الاختصار اذا كان الفعل ماضيا نحو اشرفت الشمس وذهب الليل ، أما اذا كان الفعل مضارعا أفادت أيضا الاستمرار والتجدد شيئا فشيئا وفق سياق الكلام بمعونة القرينة مثل : يعيش البخلاء في الدنيا عيشة الفقراء ، ويحاسبون في الآخرة حساب الأغنياء . والجملة الاسمية هي المكونة من مبتدأ وخبر أى بثبوت المسند للمسند اليه دون اعتبار التجدد والاستمرار ، اذا لم يكن في خبرها فعل مضارع ، مثل «محمد كريم» وكان خبرها مفردا ، أما اذا كان في خبرها فعل مضارع فانها تكون كالجملة الفعلية في افادة التجدد والحدوث في وقت محدد مثل « محمد يسعى لخير وطنه » (٤) .

ومعروف أن الخبر اما أن يلقيه المتكلم لسامع أو مخاطب خالي الذهن تماما مما يلقي اليه ، وهذه حالة لا بد أن يراعيها المتكلم في كلامه ، واما أن يكون السامع مترددا في قبول ما يلقي اليه ، فيجب على المتكلم أيضا مراعاة حالته تلك ، واما أن يكون السامع منكرا للخبر الذي يلقي عليه ، والانكار يختلف من مستمع لآخر قوة وضعفا وحالة السامع هذه تفرض على المتكلم اعتبارات لا بد أن يراعيها في كلامه ، فأحيانا يخرج كلامه خاليا من التوكيد ، وأحيانا يتطالب مؤكدا أو أكثر وفق حالة المخاطب ، ولذلك قسم

(٤) انظر دلائل الاعجاز ص ١٢٢ .

علماء البلاغة الخبر الى ثلاثة أنواع ابتدائي ، طلبى ، انكارى ، حسب ما به من مؤكدات ، يفرضها المقام •

والمؤكدات كثيرة نذكر منها ان ، واللام ، واسميه الجملة ، والقسم ، وقد وأدوات التنبيه ، ونون التوكيد الثقيلة والخفيفة ، وضمير الفصل ، وأدوات الحصر ، لكنه تنبه الى أن ثمة فرقا بين كلام وكلام اوبين خطاب وخطاب ، وما يرمى اليه المتكلم ، وما تكون، عليه حالة السامع أو السامعين ، فيترك المتكلم كلاما الى كلام آخر لقصد يقصده ، وغرض يهدف اليه وهذا ما عناه ابن الآثير من قوله : (وانما يعدل عن أحد الخطابين الى الآخر لضرب من التأكيد والمبالغة) (٥) وهذا العدول مؤسس على ما بالجملة من التوكيد الذى يعطى الكلام زيادة وقوة فى المعنى لم تكن لخالى التوكيد •

فعند ما تقول قام زيد ، فان هذه الجملة لم تنفد اكثر من الاخبار عن قيام زيد وذلك عمن كان ذهنه خاليا من هذا الحدث أو لم يعرفه أصلا ، ولذلك رأينا الجملة من المسند والمسند اليه فقط ، ولا شىء بعد ذلك ، ومثل هذا النوع من الأخبار هو ما يسميه علماء البلاغة بالخبر الابتدائى •

أما قلنا : اد زيدا قائم ، فنكون أخبرنا أيضا عن قيام زيد، لكن بصورة تزويد على الأولى أثبت من دخول ان المسددة التى تفيد الابات لما يأتى بعدها من الكلام ، فدخول ان المؤكدة على هذه الجملة أفادت التوكيد والمبالغة لأن حاله السامع تقتضى ذلك ،لانه ربما يكون مترددا فى قبول هذا الحكم ، وهو ما يعرف بالخبر الطلبى •

أما اذا أخبرنا عن قيام زيد بقولنا : ان زيدا لقائم ، فنكون قد أكدنا الجملة بأكثر من مؤكد وهو ان ولام الابتداء الواقعة فى خبرها ، زاد تأكيد الكلام لأن السامع منكر للقيام ، ومن ثم تتطلب المؤكدات الموجودة فيه ، وهذا هو ثالث الاقسام التى ذكرها ابن الاثير المعروف عند البلاغيين بالخبر الانكارى لأن المستمع منكر للحدث فتطلب الكلام أكثر من مؤكد حتى يزيل ما بنفس السامع من انكار ويتمكن لديه الحكم على زيد بالقيام ولذا يقول ابن الاثير عن النوع الثالث هذا (واذا زيد فى خبرها — اى ان — اللام فقل ان زيدا لقائم كان ذلك اكثر تأكيدا فى الاخبار بقيامه) ويقول أيضا عن لام التوكيد (ومما يجرى هذا المجرى ورود لام التوكيد فى الكلام ، ولا يجىء ذلك الا لضرب من المبالغة ، وفائدته أنه اذا عبر عن أمر يعز وجوده أو فعل يكثر وقوعه جىء باللام تحقيقا لذلك) (٦) .

اذا فان مجىء المؤكدات فى الكلام تزيد الكلام قوه وتوكيدا ومبالغة ، ولذا وجدنا ابن الاثير بعد أن ضرب الامثلة الثلاثة التى شرحناها آنفا ووضحنا ما فيها ، بعد ذلك عرض لبعض أدوات التوكيد فى جمل ، ومن دراستنا لاساليب وأدوات التوكيد عنده وجدناه على بصيرة بما يستتر خلف هذه الأدوات ، فهو دائما ينص على أن مجىء لام التأكيد لزيادة التحقيق والتقرير والايجاد ، وذلك مثل قوله تعالى : (اذ قالوا لىوسف وأخوه أحب الى أبينا) فلام

الابتداء دخلت على يوسف للتحقيق والتقرير (فاللام فى «ليوسف» لام الابتداء ، وفائدتها تحقيق مضمون الجملة الواردة بعدها : أى أن زيادة حبه إياها أمر ثابت لامراء فيه) (٧) • وأحيانا تستخدم هذه اللام مع نونى التوكيد الخفيفة أو الثقيلة ، وأكثر ذلك الاستعمال فى جواب القسم فى حالة الإيجاب دون النفى ، فإذا كان المستخدم نون التوكيد الثقيلة دون الخفيفة زادت فى تأكيد الكلام كقول القائل والله لأقوم أو والله لأقومن° ، والله لأقومن° (وكذلك فأعلم أن النون الثقيلة متصلة بهذا الباب فان استعملت فى موضع فانما يقصد بها التأكيد) (٨) •

فهذه أضرب الخبر ، وهذه بعض مؤكداته وكلها ينتضح منها فهم ابن الأثير لهذا النوع من الأساليب الخبرية ، وهو فهم كما رأينا يدل على ذوق أدبى رفيع يحلل ويعلل ويتذوق قبل وبعد أن يحلل ، وهذه الأمثلة على ندرتها أوردتها الرجل من أجل المقاييس والتمثيل، لا الحصر ، ولذلك وجدناه فى صدر هذا الباب يقول : (ولم أذكر هذا الموضع لان يجرى الامر فيه على ما يجرى مجراه فقط ، بل لأن يقاس عليه مواضع أخرى مما تماثله وتساوبه ، ولو كان شبيها بعيدا) (٩) •

(٧) المثل السائر ج٢ ص ٥٧ •

(٨) المثل السائر ج٢ ص ٥٨ •

(٩) المثل السائر ج٢ ص ٥٤ •

ثانيا : الاسلوب الانشائي

وكما تناول الاسلوب الاخبارى ، فانه بنفس الطريقة تناول شيثامن الاسلوب الانشائي وذلك أثناء كلامه عن التقديم والتأخير ، فتناول أداة واحدة من أدوات الاستفهام وهى الهمزة ، وبين الغرض من استخداماتها ، عند ما تدخل على الأسم ، وعندما تدخل على الفعل ، ولكنه لم يشف الغلة وعلى كل فانه قال عنه (واعلم أن من التقديم والتأخير بابا عجيب المأخذ ، كثير الفائدة ، وافر اللطائف ، وهو باب الاستفهام ، فان حاجة مؤلف الكلام اليه ماسة ، ولنورد فى كتابنا هذا ما يروقه) (١٠) •

والاستفهام كما هو معروف طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل وأدواته : الهمزة ، وهل وما ، وفى ، وأين وكيف ، وأيان وأنى ، وكم ، وأى • فمنها ما يكون تارة للتصور ، وأخرى للتصديق ، وهو الهمزة •

ومنها ما يكون للتصديق فقط وهو هل ، ، ومنها ما يكون للتصور وهو باقى الادوات (١١) فالاستفهام عن التصور يكون فى حالة التردد فى تعيين أحد أمرين تذكر بينهما أم المتصلة المعادلة ، وقد تحذف هى وما بعدها اكتفاء بما قبلها ويلى الهمزة فى هذه الحالة المستفهم عنه سواء أكان مسند اليه أم مسندا أم مفعولا أم حالا

(١٠) الجامع الكبير ص ١١٤ •

(١١) الابضاح ص ٧٨ وما بعدها وانظر دلائل الاعجاز ص ٨٤ •

أم ظرفاً فنقول عن واحد منها • أمحمد مسافر أم زيد ؟ وفى حالة الاستغناء عن المعادل نقول أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ أما التصديق فهو ادراك وقوع نسبة تامه بين المسند والمُسند اليه أو عدم وقوعها ومن تم يكون المتكلم خالى الذهن مما استفهم عنه، فيصدق الجواب ،ويكثر التصديق فى الجمل الفعلية مثل أنجح محمد؟ وفيها تكون الاجابة نبوتاً بنعم ونفياً بلا ويقل التصديق فى الجمل الاسمية نحو : أمحمد ناجح ؟

وقد قصرنا الكلام على الهمزة دون غيرها من أدوات الاستفهام لان ابن الأثير تناول الهمزة فقط ، فأردنا أن نمهد للكلام بهذه المقدمة ليتضح بالمقارنة كيف عرض ابن الأثير لهذا الاسلوب •

نقول ان ابن الاثير تكلم عن الهمزة عند ماياتى بعدها الفعل ، وعندما ياتى بعدها الفاعل ، وهى حالة التصديق التى تكلمنا عنها آنفاً ، لكن ينص على أن الشك دائماً يكون فيما بعدها ، فإذا كان فعلاً كان الشك فى الفعل ، وإذا كان اسماً كان الشك فى الفاعل وحده ، لكن اذا كان الشك فى الفعل كان الغرض من الاستفهام العلم بوجوده لاغير وذلك مثل « أفعلت كذا وكذا » ومن تم عبر عن تلك الحالة بكثرة التصديق فى الجمل الفعلية وتكون الاجابة ثبوتاً بنعم ونفياً بلا وهذا ما عناه ابن الأثير عندما ما قال (واعلم أنك اذا بدأت فى الاستفهام بالفعل فقللت أفعلت كذا وكذا كان الشك فى الفعل ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده لاغير) (١٢) ولذا فان الاجابة تكون بنعم ، أو لا على التفصيل السابق •

وإذا قلت « أنت فعلت ذلك » وقدمت الاسم على الفعل كان الشك في الفاعل دون الفعل ، لأن الفعل قد حدث والحقيقه ماثله أمام المستفهم ، لكنه يتك فيمن أحدث هذا الفعل ، ولذلك فان معنى الهمزة في مثل هذه المواقف هو التقرير ، ومن هنا يقل التصديق في مثل هذه الجمل *

وعليه ورد قوله تعالى حكاية عن قوم سيدنا ابراهيم (أنت فعلت هذا بألهتنا يا ابراهيم) فانهم والحقيقه ماثله أمامهم لم يستفهموا عنها أى عن الحدث وهو فعل تحطيم الاصنام ، بل أرادوا أن يتأكدوا ممن فعل هذا الفعل ومن هنا كانت الاجابة عليهم (بل فعله كبيرهم هذا) ، فلو كان الشك في الفعل لكانت الاجابة فعلت أو لم أفعل) *

وبجانب الشك الموجود في الهمزة يوجد الانكار أيضا ، خاصة اذا تقدم الفعل وكان ماضيا وأنه لا يكون من أصله كقوله تعالى (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما) أو كقوله تعالى (أأصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون) *

فإذا كان الفعل مضارعا فانه لا يخلو من ارادة الحال أو الاستقبال ، فإذا أراد المتكلم الحال كان المعنى نسبيها بالماضى وإذا اريد به الاستقبال كان المعنى اذا بدأت بالفعل أنك تعمد الى انكار العقل نفسه وكأنك تريد أنه لا يحدث ولا ينبغي أن يحدث وقد مثل ابن الاثير للأول بقول امرئ القيس :

أيقنلنى والمشرفى مضاجعى . . . ومسنونة زرق كانياب أغوال

وللثانى بقولك لرجل يركب الخطر (أخرج فى هذا الوقت ؟ أتغرر بنفسك ؟)

وقد يلي همزة الانكار هذه اسم فيكون الكلام موجها للمذكور بعدها بهدف انكار حدوث هذا الفعل منه لضعفه وقلة عزمه ، أو لسمو قدره وعلو همته ، فالأول كقولك (أنت تمنعني ، أنت تأخذ على يدي) أى انك أعجز من ذلك ، والثاني كقولك (أهو يسأل فلانا ؟ هو أرفع قدرا من ذلك) وعلى كل فان المقصود من مثل هذا الاستفهام أنه تنبيهه للسامع حتى يرجع الى نفسه فيخجل ويرتدع (١٣) *

وهذا هو الضرب الأول وهو منقول عن الامام عبد القاهر الجرجاني بهذه التقسيمات ، اذا أنه بعد ما فرغ من ذلك قال نفس الألفاظ والعبارات التى أوردها الجرجاني فى الدلائل (١٤) أما الضرب الثانى فكما أورده الجرجاني أورده هو ، (١٥) * وهذا الضرب عنده هو أن يكون بفعل لفاعل موجود ، فان تقديم الاسم يقتضى تشبيها بما اقتضاه فى الفعل الماضى من الاقرار بأنه الفاعل ، أو الانكار أن يكون هو الفاعل فالأول كقوله تعالى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ، والثانى كقوله تعالى (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم) (١٦) *

وبهذا ينهى كلامه عن الاستفهام ولا يزيد عما قدمنا ، وبه أيضا ينتهى كلامنا عن الاسلوب الانشائى ، ونتبع هذا الكلام عن أحوال الاسناد *

(١٣) الجامع الكبير ص ١١٦ *

(١٤) دلائل الاعجاز ص ٨٥ : ص ٩٢ *

(١٥) انظر حاشية دلائل الاعجاز ص ٩٢ رقم ١ *

(١٦) الجامع الكبير ص ١١٧ *

ثالثا : أحوال الاسناد

الاسناد الخبرى هو ان تضم كلمة أو ما يقوم مقامها الى كلمة أخرى ، أو ما يحل محلها بصورة تفيد ثبوت الحكم أو نفيه وهناك عدة صور لهذا الاسناد ، لكن الذى يهمنا هو أركان الجملة الخبرية أى المسند ، والمسند اليه ، فالمسند اليه هو ما يعرف نحويا بالفاعل أو نائبه أو مبتدأ له خبر أو اسم كان أو أن ، أو المفعول الاول لظن وأخواتها •

أما المسند فهو الخبر ، والفعل ، والمفعول الثانى لظن وأخواتها ، ولا بد أن يكون هناك رابط يربط المسند بالمسند اليه ، وهذا الرابط معروف لدى البلاعيين بالنسبة الكلامية •
ولكل من المسند اليه والمسند أحوال كثيرة كالذكر والحذف ، والتقديم والتأخير والتعريف والتشكيك •

وكالمسند اليه والمسند هناك متعلقات الفعل كالمفعول ، والحال والتمييز والاستثناء والنواسخ الثلاثة ، والتوابع الأربعة وغير ذلك ، تعرض لها أحوال أيضا ، كتلك التى تعرض للمسند اليه والمسند • غير ان ابن الاثير لم يتعرض لكل هذه الأمور ، وانما عرض لبعضها ، وكان فى بعض جوانب هذا العرض مائلا للإيجاز ، وليئنه أسهب لانه يتمتع بذوق أدبى بصير فيما يعالج أو يعرض من أمور بلاغية ، وان كان أحيانا يتوكأ على الامام الجرجانى خاصة فى كتابه دلائل الاعجاز ، ولكن يكفيه ما قدم ، وهو ما سوف نعرض له بالدرس الآن •

١ — التقديم والتأخير •

عرض ابن الاثير لبعض صور التقديم والتأخير (١٧)، ويقسمه الى قسمين (الاول يختص بدلالة الالفاظ على المعانى ، ولو آخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى ، والثانى يختص بدرجة التقدم فى الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ، ولو آخر لما تغير المعنى) (١٨)، فنتناول تقديم الخبر على المبتدأ ، والظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل ، ويرجع كل هذه الأحوال الى :

١ — الاختصاص •

٢ — مراعاة النظم •

وقد يكون التأخير كما يرى هو الأصوب الأبلغ (يكون التأخير هو الأولى والابلاغ اما لفائدة تقتضى ذلك ، واما خوفا من فساد المعنى واختلاله) (١٩) • اذن تكلم عن التقديم عند ما يكون التقديم أفضل من التأخير ، كما تكلم عن التأخير عند ما يكون أفضل من التقديم ومن ثم قسمه الى :

القسم الذى يكون فيه التقديم هو الابلاغ ويضرب لذلك أمثلة بتقديم ما ذكرنا ويكون للاختصاص ، فتقديم المفعول على الفعل مثل زيدا ضربت ففى تقديم المفعول « زيدا » على فعله أفاد تخصيصه بالضرب دون غيره فلو قدمنا الفعل وقلنا ضربت زيدا ، كان لتكلم مختاراً فى أن يوقع الفعل على زيد أو على غيره ، فيقول

(١٧) المثل السائر ج٢ ص ٣٨ وانظر الجامع الكبير ص ١٠٨ •

(١٨) المثل السائر ج٢ ص ٣٨ •

(١٩) الجامع ص ١٠٩ •

ضربت محمدا ، أو عليا ، فاذا قدم المفعول لزم الاختصاص *
ومثله تقديم الخبر على المبتدأ وضرب مثلا لذلك وهو زيد قائم
فزيد مبتدأ وقائم خبر ، فلو قدم لقال قائم زيد فقدم الخبر
على المبتدأ * وعلى نفس المنوال تكلم عن الجار والمجرور والحال
والاستثناء وأرجع هذا التقديم للاختصاص وهو القسم الاول
فى كلامه *

أما ما يكون تقديمه مراعاة لنظم الكلام فهو مثل قوله تعالى :
« اياك نعبد و اياك نستعين » (وذلك لمراعاة حسن النظم السجعى
الذى هو على حرف النون ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك
الطلاوة وزال ذلك الحسن) (٢٠) * ومثله فى تقديم المفعول قوله
تعالى « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه » (فان تقديم الجحيم على
التصلية ، وان كان فيه تقديم المفعول على الفعل الا أنه لم يكن
ههنا للاختصاص ، وانما هو للفضيلة السجعية) (٢١) *

أما فى تقديم خبر المبتدأ عليه فكقوله تعالى « وظنوا أنهم
ما نعمتهم حصونهم من الله » فهذا أفضل لمراعاة النظم مما لو قال
وظنوا أن حصونهم ما نعمتهم من الله ، وكذلك تقديم الظرف أو الجار
والمجرور ، وينتهى الى ان القرآن الكريم قد قدم الظروف كثيرا
وأنها لم تقدم للاختصاص (وانما قدمت لمراعاة الحسن فى نظم

(٢٠) المثل ج٢ ص ٣٩ *

(٢١) المثل السائر ج٢ ص ٤٠ *

الكلام) (٢٢) أما تأخيرها فإنه يقتضى النفى من غير تفضيل لان تقديمه يقتضى النفى عنه ، فالأول كقوله تعالى (ألم ذلك الكتاب لاريب فيه) والثانى كقوله تعالى (لافيه غول ولاهم عنها ينزفون) (٢٣) •

الايجاز والاطناب والمساواة

كلام المتكلم ينحصر فى صورة من ثلاث صور بحيث يكون مقبولا مفيدا معنى ، فاما أن يكون هذا الكلام ، جاء التعبير فيه على قدر المعنى لا زيادة ولا نقصان أى أن الالفاظ مساوية للمعنى ، وأحيانا يزيد اللفظ على المعنى ، وهذه الزيادة اما أن تكون لفائدة فتكون محمودة ، وقد تكون على حساب المعنى فتكون مذمومة اذ لا طائل منها فتكون حشوا وتطويلا ، وربما تكون الالفاظ قليلة ولكن المعنى الذى تحتها كثير •

والمتكلم حسب رسوخ قدمه فى مضممار البلاغة يختار أية طريقة شاء لى يعبر عما بنفسه فاما أن يكون كلامه موجزا ، وربما يكون مطنبا ، أو قد يكون بين بين ، كل هذا مع مراعاة المقام الذى سيق فيه الكلام ، فاذا عدل عن طريقة الى أخرى وكان المقام يفرض هذه أو تلك فعديل عما يستوجبه المقام كان غير بليغ ، فيجب أن يستخدم الاطناب ، أو الايجاز ، أو المساواة كل فى مكانه •

ومن ثم كان لاهل البلاغة باع كبير فى دراسة هذه الألوان

(٢٢) المثل السائر ج١ ص ٤٤ •

(٢٣) المثل السائر ج١ ص ٤٤ وقد عبر عن الجار والمجرور بالظرفية •

وفصلوا وشرحوا ووضحوا (٢٤) وجاء ابن الأثير ففسر على الدرب،
فعرّف ومثل وشرح كما سوف نعرض *

أولاً • الإيجاز : يعرفه ابن الأثير بأنه دلالة اللفظ على المعنى
من أقرب طرقه (٢٥) • أو دلالة اللفظ على المعنى من غير زيادة في
اللفظ على المعنى (٢٦) • وسواء كانت الدلالة عن غير زيادة أو من
أقرب الطرق والالفاظ مع قلتها تحوى الكثير من المعانى شريطة أن
تكون وافيه بالغرض المقصود مع الابانة والافصاح *

وقد قسمه ابن الأثير الى قسمين كبيرين ، وهى نفسها
الاقسام التى قسمها علماء البلاغة الا أنه قسمها الى أقسام أخرى ،
فالقسمان الكبيران هما :

(أ) إيجاز بالحذف ، وهو ما حذف بعض أجزائه لدلالة الكلام
على المحذوف ويكون فيما زاد معناه على لفظه •

(ب) إيجاز بدون حذف وينقسم الى ضربين :

١ - ما ساوى لفظه معناه (٢٧) ويسمى التقدير •

٢ - والآخر ما زاد معناه على لفظه وهو ما يعرف بإيجاز
القصر (٢٨) •

(٢٤) الايضاح ص ١٠٢ وما بعدها •

(٢٥) الجامع ص ١٢٤ •

(٢٦) المثل ج ٢ ص ٧٤ •

(٢٧) انظر الجامع ص ١٢ والمثل ج ٢ ص ٨١ وقارن بما جاء بدلائل

الاعجاز ص ١٠٤ •

(٢٨) المثل السائر ج ٢ ص ٧٨ والجامع الكبير ص ١٢٤ •

ويعلق عليه بمقولة نقلها عن عبد القاهر فى كتابه دلائل
الاعجاز ويثبتها فى كتابيه الجامع والمثل (*) .

وهى قوله (وذلك باب دقيق المسلك لطيف المأخذ
وتدفعها حتى تنتظر) (**) .

ولكل أقسام .

والذى عليه القزوينى فى الايضاح ان الايجاز اما ايجاز الحذف
أو ايجاز القصر (٢٩) وتوارث كثير من انبلاغيين فيما بعد هذا التقسيم،
ولعل من يطالع كتبهم سوف يقف على حقيقة ما ذهبنا اليه ، أما
هذه التقسيمات فانها من صنع ابن الاثير نفسه ، ولذا فاننا سمعنا
منه غير مرة قولته المشهورة « وهو شئ استخرجته ، ولم يكن
لاحد فيه قول سابق » وهى مبثوثة فى كتبه ، غير انه فى هذا
التقسيم يدل على ذوق أدبى يميل الى التحديد والاستنباط ، وهذا
نتاج المدرسة الأدبية وذوقها .

الايجاز بالحذف :

وأسماء فى كتابه المفتاح بالاشارة ويعرفه بقوله : (وهو
اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة) ويضرب لذلك مثلا قول
امرىء القيس :

فقل لنا يوم لذيذ بنعمة ! فقل فى مقيل نحسه متغييب (٣٠)

ويشترط أن يكون فى الكلام دليل على المحذوف وهذا كلام

(*) وهذا قريب من تعريف المساواة كما سنوضح .

(**) المثل السائر ج ٢ ص ٧٨ والجامع الكبير ص ١٢٤ .

(٢٩) الايضاح ص ١٠٥ .

(٣٠) المفتاح لمنشا ص ٣١١

وجيه منه ، وأحيانا يظهر هذا المحذوف عن طريق القواعد النحوية وليس ثمة حسن لهذا النوع ، أما الآخر فهو ما يظهر بالنظر الى تمام المعنى ويكون تبعا لذلك الحذف أولى فى حكم البلاغة (لانه متى ظهر صار الكلام الى شىء غث لا يناسب ما كان عليه أولا من الطلاوة والحسن) (٣١) *

والحذف قد يكون حذف جملة كما يكون حذف مفردات ، ويقسم حذف المفردات الى أربعة عشر ضربا * أما حذف الجمل فانه على قسمين :

(أ) حذف جمل مفيدة *

(ب) حذف الجمل غير المفيدة (٣٢) *

ويقسم بعد ذلك حذف الحمل هذا الى أربعة أضرب :

— الضرب الأول : حذف السؤال المقدّر وهو الاستئناف ويقسمه الى :

١ — اعادة الاسماء والصفات ويكون أحيانا باعادة اسم من تقدم الحديث عنه أو باعادة صفته ، فالاول كقولك : أحسنت الى زيد حقيق بالاحسان والثانى وهو أفضل من الاول وأبلغ لما فيه من تخصيص وهو : « أحسنت الى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك » وذلك كقوله تعالى (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى

(٣١) المثل ج٢ ص ٨١ *

(٣٢) وهذا ما عناه الفزوينى بقوله فى الضرب الثانى (وهو ما يكون بحذف والمحذوف اما جزء جملة أو جملة ، أو اكثر من جملة ٠٠)
الايضاح ص ١٠٦ *

للمتقين أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون)

٢ — الاستئناف بغير إعادة الاسماء والصفات كقوله تعالى :
(ومالى لأعبد الذى فطرنى واليه ترجعون أأخذ من دونه آلهة
ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون قيل
ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من
المكرمين) فخرج مخرج الاستئناف لان ذلك من مظاهر المسألة عن حاله
عند لقاء ربه ، وكأن قائله قال كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه
بعد ما كان منه ما كان ؟ فقيل : قيل له ادخل الجنة ، ولم يقل :
قيل له لان الهدف المقول لا المقول له مع كونه معلوما ، وأيضا (يا ليت
قومي يعلمون) مؤسس على تقدير سؤال سائل عما وجده .

— الضرب الثانى : الاكتفاء بالسبب عن المسبب ، وبالمسبب
عن السبب :

١ — فالاول كقوله تعالى : (وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا
الى موسى الامر ، وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قرونا
فتطاول عليهم العمر) فذكر سبب الوحي وهو طول الفترة بين
سيدنا موسى ، وسيدنا محمد ﷺ ودل به على المسبب الذى هو
الوحي وكأن تقدير الكلام : أننا أنشأنا بعد عهد الوحي الى موسى
الى عهدك يا محمد قرونا كثيرة ، فطالت مدة انقطاع الوحي فاندرست
العلوم ، لذا أرسلناك اليهم وعرفناك العلم بقصص موسى وما حدث
له لتتخير به قومك ، فالحذف اذا جملة مفيدة ولكنها اختصرت
على عادة القرآن فى الاختصار .

وأما حذف الجمل غير المفيدة ما جاء فى قصة مريم (قالت أنى
يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ، ولم أك بغيا ، قال كذلك قال
ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا

مقضيا) ففى قوله تعالى (ولنجعله آية للناس) تعليل معله محذوف وتقدير الكلام وانما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس ، فذكر السبب الذى صدر الفعل من أجله وهو جعله آية للناس ؛ ودل على المسبب الذى هو الفعل

٢ — وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب فكقوله تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) أى — والله أعلم — إذا أردت قراءة القرآن فاكتف بالمسبب الذى هو القراءة عن السبب الذى هو الارادة والدليل على ذلك أن الاستعاذة قبل القراءة •

الضرب الثالث : الاضمار على شريطة التفسير وهو أن يحذف من صدر الكلام ما يؤتى به مؤخرا فيكون هذا الاخير دليلا على الاول ، ويقسم الى أقسام ثلاثة :

١ — أن يأتى على طريق الاستفهام ، فنذكر الجملة الأولى دون الثانية ، وذلك مثل قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام ، فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين) والتقدير : أفمن شرح الله صدره للاسلام كمن أقسى قلبه ، ويدل على المحذوف قوله تعالى : (فويل للقاسية قلوبهم) •

٢ — أن يأتى على حد النفى والاثبات كقوله تعالى (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) أى لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن أنفق من بعده وقاتل ، والدليل قوله : (أولئك أعظم درجة من الذين •••) الآية •

٣ — ما لا يكون استنفهما ، ولا نفيا واثباتا كقول أبي تمام

يتجنب الاثام ثم يخافها . : فكانما حسنة اثم

ففى صدر البيت اضمار مفسر فى عجزه تقديره أنه يتجنب
الاثام فيكون قد أتى بحسنه ثم يخاف تلك الحسنة فكانما حسنة
آثام *

الضرب الرابع : خلاف كل ما تقدم فليس بسبب ولا مسبب ،
ولا اضمار على شريط التفسير ، ولا استئناف ، فأما ما حذف فيه
من الجمل المفيدة فكقوله تعالى (قال تزرعون سبع سنين دأبا فما
حصدتم فذروه فى سنبلة الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك
سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن لا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من
بعد ذلك عام فيه يعاب الناس وفيه يعصرون ، وقال الملك ائتوني
به) والحذف واضح من سياق الكلام وهو جملة مفيدة وهو جملة
الحوار بين سيدنا يوسف عليه السلام وبين فرعون مصر *

ومما حذف منه جمل ليست بمفيدة اى ليس نمه طائل من
وراء معناها ولذا كان حذفها أولى من ابقائها مثل قوله تعالى :
(يا زكريا انا نبئسرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا
** ** * * * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) فالحذف
واضح وتقديره ولما جاء الغلام يحيى ونشأ وترعرع قلنا له
يا يحيى خذ الكتاب بقوة وقد دل عليها صدر الكلام * وبهذا ينتهى
حزيم المؤلف (٣١) على القسم الاول وهو حذف الجملة ، وقد فرعها
ابن الاسير كل هذه التمريرات ، نظرا لما يتمتع به من ذوق ادبى

مرهف ، ومعرفة دقيقة بين اللفظة واللفظة الأخرى بل بين العبارة والعبارة ، كما أنه كان مدركا للمعاني المستترة خلف الكلمات .

وبعد ما انتهى من هذا القسم دلف الى القسم الثانى وهو الايجاز بالحذف ، وخصه لحذف المفردات وقد اشترط البلاغيون لذلك ان يحذف شىء من العبارة أو الجملة أو الكلام شريطة أن لا يخل بالفهم مع وجود ما يدل على المحذوف من قرينه لفظية أو معنوية وهى كثيرة متنوعة يقول القزوينى (وأدلة الحذف كثيرة منها أن يدل الفعل على الحذف والمقصود الأظهر على تعيين المحذوف) (٣٤) والاصار الحذف رديئا . وعلى كل فان ابن الاثير قد قسم هذا القسم الى أربعة عشر ضربا كالآتى :

١ — حذف الفاعل بدلالة ذكر فعله كقول حاتم الطائى :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى **منه** **إذا حشرجت يوما ضاق بها الصدر**

أى اذا حشرجت النفس . علما بانها لم تدر فى الكلام .

٢ — حذف الفعل وجوابه وهو على قسمين :

(أ) أحدهما يظهر بدلالة المفعول عليه وهو غالبا ما يكون فى التحذير كقوله تعالى : (فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) .

(ب) مالا يظهر فيه قسم الفعل ، لأنه لا يكون هناك منصوب يدل عليه ، بل يظهر بالنظر الى ملاءمه الكلام . وهذا اللون موجود

فى القرآن بكثرة ومنه قوله تعالى : (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) والتقدير فقيل لهم لقد جئتمونا • ومن هذا النوع ما يعرف فى النحو بالتنازع والاشتغال ، ومنه أيضا احلال المصدر محل الفعل بهدف المبالغة والتوكيد •

واما حذف جواب الفعل ، فبسرط أن يكون الجواب مفترنا بالماء ومعه يكون ماصيا • كقوله تعالى : ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه آحاه هارون وزيرا ففلما اذها الى القوم الذين كذبوا بآيائنا مدمرناهم ندميرا) والتقدير ففلما اذها الى القوم الذين كذبوا بآيائنا مدمرناهم فحذبوهما مدمرناهم •

٣ — حذف المفعول به كقوله تعالى حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير) فقد حذف المفعول وهو الماشية فى أربعة أماكن من هذه الآية •

٤ — حذف المضاف أو المضاف اليه واقامة كل منهما مكان الآخر ، فالأول كقوله تعالى (واسال القرية التى كنا فيها) والتقدير أهل القرية • والثانى كقوله تعالى (لله الأمر من قبل ومن بعد) أى من قبل ذلك ومن بعده •

٥ — حذف الموصوف والصفة واقامة كل منهما مقام صاحبه ، وغالبا ما يقع ذلك فى الشعر وقد ورد منه فى القرآن الكريم أيضا كقوله تعالى (وآتينا ثمود الناقة مبصرة) أى آية مبصرة ، أو قوله

تعالى حكاية عن الكافرين (يأيها الساحر) أى الرجل الساحر
فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه •

أما حذف الصفة وإقامة الموصوف مقامها ، فإنه نادر فى الكلام
لأنه غالبا يؤدي الى استغلاق الكلام وقد حصرها ابن الاثير فقال
(وقد تأملت حذفها فوجدته لا يسوغ الا فى صفة تقدمها ما يدل
عليها ، أو تأخر عنها أو فهم ذلك من شئ خارج عنها) (٣٥) •

فمثال التى تقدم ما يدل عليها قوله تعالى : (وكان وراءهم
ملك يأخذ كل سفينة غصبا) أى كل سفينة صحيحة فحذفت الصفة
لأنه تقدمها ما يدل عليها وهو (فاردت أن أعيها) ومثال التى تأخر
عنها ما يدل عليها قول يزيد به الحكم التقفى :

كل امرئ ستنيم من : به العريس أو منها يئنيم

والتقدير كل امرئ متزوج ، بدلالة قوله بعد ذلك : « ستنيم
منه أو منها يئنيم » فلا تنيم الزوجة الا من زوج ، وهو الامن زوجة •

وأما ما يفهم حذف الصفة فيه من شئ خارج عن الكلام ،
فكقوله ﷺ (لا صلاة لجار المسجد الا فى المسجد) أى لا صلاة
كاملة أو فاضلة ، وهذا قد علم من شئ خارج عن الألفاظ التى صيغ
بها الحديث •

٦ — حذف الشرط وجوابه • فحذف الشرط مثل قوله
تعالى : (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية) والتقدير
فخلق فعليه فدية •

وأما حذف الجواب فكتوله تعالى : (قل، أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين) فحذف جواب الشرط والتقدير : ان كان القرآن من عند الله وكفرتم به الستم ظالمين ، ويدل على المحذوف قوله تعالى : (ان الله لا يهدى القوم الظالمين) *

٧ — حذف القسم وجوابه ، فحذف القسم مثل « لأفعلن » أى والله لأفعلن أو غيرها من ألوان القسم المحلوف بها ، أما حذف الجواب مثل قوله تعالى : (ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب) والتقدير : ق والقرآن المجيد لتبعن بدلالة ما جاء بعد ذلك وهو (أنذامتنا وكنا ترابا وعظاما ذلك رجع بعيد) وكثير ما حذف جواب القسم فى القرآن الكريم .

٨ — حذف لو وجوابها فحذف لو مثل (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون) أى اذ لو فعلت ذلك لارتاب المبطلون ، وأما حذف الجواب مثل : (لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) وتقدير المحذوف الذى هو الجواب لو أن لى بكم قوة لدفعتمكم أو منعتمكم * ولا بد من دلالة على المحذوف فى مثل هذه الأمور .

٩ — حذف جواب لولا : كتوله تعالى : (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا * * * * * ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله رءوف رحيم) والتقدير لولا فضل الله عليكم ورحمته لعجل لكم العذاب .

١٠ - حذف جواب لما وأما : فحذف جواب لما مثل : (فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم) الآية ، والتقدير وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا كان ما كان مما ينطق به الحال * وأما حذف جواب أما فمثل (فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) والتقدير فيقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم *

١١ - حذف جواب اذا مثل (واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ، وما تانيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) فحذف جواب اذا وهو : واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم أعرضوا ، ثم قال ودأبهم الاعراس عن كل آية وموعظة *

١٢ - حذف المبتدأ والخبر : ومثل لحذف الخبر من الكلام بقول البحتري :

كل عذر من كل ذنبٍ ولو كان عذرًا أعوز العذر من بياض العذار

فحذف خبر المبتدأ وتقديره كل عذر من كل ذنب مقبول او مسموع *

١٣ - حذف لا من الكلام وهي مرادة مثل (قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف) أى لا تفتأ ، فحذفت لا من الكلام وهي مرادة *

١٤ - حذف الواو من الكلام وإثباتها : وهذا لا يكون الا فى كل اسم نكرة جاء خبره بعد الا فيجوز اثبات الواو فى خبره وحذفها ، فنقول مار رأيت رجلا الا وعليه ثياب أو : الا عليه ثياب بدون الواو ، فان كان الذى يقع على النكرة ناقصا فلا يكون الا بحذف الواو مثل « ما أظن قرشا الا هو كافيك » ولا يصح أن

نقول الا وهو كافيك لان الظن يحتاج الى شيئين ؛ فلا يعترض فيه بالواو ، فينشبه بالفعل الذي ينصب مفعولا واحدا ، وأيضا خبر كان وان ، والمفعول الثانى لظن فلا يقترن بالواو عدا ليس فنقول ليس احد الا وهو قائم فأثبتنا الواو ، وأيضا أصبح وأمسى ورأى فان الواو فيهن أسهل • وقد ورد فى القرآن الكريم أمثلة للاثبات وأخرى للحذف ، وذلك مثل قوله تعالى (وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم) وقوله تعالى (وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون) ، ومن ثم يتضح قياسا على هاتين الآيتين أن الواو لا يجوز حذفها واثباتها فى كل موضع ، بل ما شابه هاتين الآيتين •

وبعد أن فرغ من الوان الايجاز بالحذف تناول بعد ذلك الايجاز بدون حذف وقد قسمه على عادته وولعه بالتقسيمات الى قسمين :
الاول ايجاز تقدير ، والثانى ايجاز قصر •

ويرى أن هذا القسم من الايجاز فيه عسر ومشقة (فالتنبه له عسر لأنه يحتاج الى فضل تأمل وطول فكرة لخفاء مايستدل عليه ، ولا يستتبط ذلك الا من رست قدمه فى ممارسة علم البيان وصار له خليفة وملكة) (٣٦) •

واستتباعا للايجاز فسوف نعرض لايجاز القصر عنده ثم بتضمين المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة من غير حذف (٣٧) •

فايجاز القصر ، الذى يعرف أحيانا بأنه ايجاز البلاغة يكون بتضمين المعانى الكثيرة ألفاظ قليلة من غير حذف (٣٧) •

(٣٦) المثل السائر ج٢ ص ٧٨ •

(٣٧) الايضاح ١٠٥ •

ويقسمه أيضا ابن الاثير الى قسمين :

(أ) ما يدل على احتمالات متعددة •

(ب) مالا يكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها (٣٨)

(أ) فالضرب الاول وهو الذى يدل على احتمالات عديدة ، فان فى القرآن الكريم الكثير منه وذلك مثل قوله تعالى فى حكاية فرعون وموسى (فعشيهم من اليم ماغشيهم) فبرغم قلة الالفاظ الا أن المعنى الذى تحتها كثير جدا وتقديره أى غشيهم من الامور الهائلة والخطوب الفادحة مالا يعلم كنهه الا الله ولا يحيط به غيره ، ومنه أيضا قوله تعالى (أولئك لهم الأمن) فدخل تحت الأمن كل ما هو محبوب ونفى عنهم الخوف من الفقر والموت وزوال النعمة ونزول النقمة وما الى ذلك ومما ورد وشعرا قول السموعل بن عاديا :

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها ؛ فليس الى حسن الثناء سبيل

فقد احتوى هذا البيت على جميع مكارم الاخلاق التى تجد النفس فى حملها منسقة كالشجاعة ولاسماحة والفقة والتواضع والحلم والصبر وغير ذلك •

(ب) الضرب الثانى مالا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفى عدتها (وهو أعلى طبقات الايجاز مكانا وأعوزها امكانا ،

واذا وجد فى كلام البلغاء فانما يوجد شاذا ونادرا (كما يقول
ابن الأثير (٣٩) •

وقد ورد منه فى القرآن الكريم كثيرا وذلك مثل قوله تعالى
(ولكم فى القصاص حياة) فان قوله تعالى القصاص حياة لا يمكن
التعبير عنها الا بألفاظ كثيرة تتقديرها : اذا قتل الحاكم القاتل
امتنع غيره عن القتل خوفا على حياته ، فأوجب ذلك حياة لغيره من
الناس • وهذا أفضل من قول العرب (ألقننى المقتل) من وجوه
ثلاثة :

١ — الآية لفظتان والمثل العربى ثلاثة •

٢ — فى المثل تكرير ليس فى الآية •

٣ — ليس كل قتل نافيا للمقتل الا اذا كان على حكم
القصاص (٤٠) •

وهذا معنى قوله الكلام الذى لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ
أخرى مثلها وفى عدتها ، وغير ذلك ليس داخلا فى هذا القسم •

لكن الغريب حقا هو ادماجه القسم الاول من هذا اللون فى
الايجاز لان تعريفه له يقترب من حد المساواة التى هى تأديه المعنى
المراد بعبارة مساوية اى أن تكون الألفاظ على قدر المعانى ، لا يزيد
بعضها على بعض ، ويعرفه هو بقوله (ما ساوى لفظه معناه ويسمى
التقدير) (٤١) ، ولذا فاننى سوف اناقسه على انه الضرب الثانى

(٣٩) المثل السائر ح ٢ ص ١٢٥ •

(٤٠) المثل السائر ص ج٣ ص ١٢٦ وانظر الايضاح ص ١٠٥ •

(٤١) الجامع الكبير ص ١٤٢ والمثل ج٢ ص ١١٤ •

وهو المساواة لان الامثلة التى أوردتها فى شرحها هى أمثلة للمساواة

كما أن كلامه عنها فى المفتاح المنتسا يتفق مع ما ذهبنا اليه فهو يقول المساواة هو أن يكون اللفظ مساويا للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص غير محتاج الى زيادة كقول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة .: ولو خالها تخفى على الناس تعلم (٤٢)

ثانيا : المساواة :

وقد سبق التعريف بها فهمى تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له ، فتكون الالفاظ على قدر المعانى لا يزيد بعضها على بعض ، كما أننا لو حذفنا لفظا لاختل المعنى وذلك الحذف يتبعه نقص فى الكلام، ومن ثم جاءت التسمية بالمساواة وذلك مثل قوله تعالى : (من كفر فلعبه كفره) ، أو قوله تعالى : (ولا يحق المكر السىء الا بأهله) (٤٣) وقد عرف ابن الأثير المساواة سواء فى كتبه الجامع أو المثل أو المفتاح كما أوضحنا سلفا ويمثل له بقوله تعالى (قتل الانسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفه خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ، ثم اذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره) •

ويشرح هذا المثال بما لا يدع مجالا للشك بأنه المساواة وليس غير فيقول « قتل الانسان » دعاء عليه وقوله « ما أكفره » تعجب من افراطه فى كفران النعمة ، وقد وصف الله خلق الانسان الى منتهاه فقال « من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره » أى هياؤه لما يصلح له « ثم السبيل يسره » أى سهل خروجه من بطن أمه ، كما يسر له الطريق اما للخير واما للشر ، ثم « أماته

(٤٢) المفتاح المنتسا ص ٣١١ •

(٤٣) الايضاح ص ١٠٥ •

فأقبره » أى يوارى فى قبره « ثم اذا شاء أنسره » أى احياء
 « كلا » حرف ردع للانسان لما هو عليه « لما يقض ما أمره » أى
 أن الانسان لم يخل من تقصير قط (٤٤) اذا اللفظ على قدر المعنى
 (ولو أردت أن تحذف جزءا من أجزائه لما قدرت على ذلك لأنك
 كنت تذهب بجزء من معناه ، ويختل عليك نظمه ، فان أسقطت الجملة
 الاولى التى هى صدر الكلام زال معنى الدعاء عليه • وأن أسقطت
 الجملة الثانية زال معنى التعجب من كفران نعمة ربه ، وان أسقطت
 الجملة الاستفهامية أو غيرها زال ما تضمنته من المعانى التى لولها
 لما كان (٤٥) وهذه هى المساواة بعينها ويأتى بأمثلة كثيرة من
 القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة والاشعار العربية
 الرصينة •

فما قاله الرسول ﷺ (انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ
 ما نوى) ومنه قول النابغة :

فانك كالليل الذى هو مدركى . : وان خلت ان الخنثى عنك واسع

وهذا المثال نفسه هو ما تمثل به القزوينى للمساواة (٤٦) وغير
 هذا كثير •

(٤٤) المثل السائر ح ٢ ص ١١٥ ، والجامع الكبير ص ١٤٢
 (٤٥) المثل السائر ج ٢ ص ١١٥ والجامع الكبير ص ١٤٢ •
 (٤٦) الايضاح ص ١٠٥ •

ثالثا : الاطناب

وكما تكلم ابن الأثير عن القسمين السابقين وهما الإيجاز والمساواة ، تكلم أيضا عن الاطناب وفرق بينه وبين التطويل والتكرار وقسمه الى أقسام ، كما ذكر الغرض البلاغى أو الفائدة من الاطناب كما سوف نعرض الآن *

فحد الاطناب عنده زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، وهذا التعريف هو ما حد به علماء البلاغة الاطناب (٤٧) ، وقد نص ابن الأثير فى التعريف على الفائدة المأخوذة من الاطناب ، وهو محق فى هذا لأن الزيادة اذا لم تكن لفائدة وغير معينة سمي تطويلا ، وليسر اطنابا ، أما اذا كانت الزيادة فى الكلام معينة ولا تفسد المعنى سمي حشوا (٤٨) *

وهذا نفسه ما عناه ابن الأثير عندما فرق بين الاطناب والتطويل ، والحشو الذى أسماه بالتكرار ويعرفه بقوله (وأما التكرار فانه دلالة اللفظة على المعنى مرددا) (٤٩) وقد قسم التكرار الى قسمين فمنه ما يأتى لفائدة وهو جزء من الاطناب ، ومنه ما يأتى لغير فائدة وهو جزء من التطويل *

وحد التطويل بقوله (هو زيادة اللفظ عن المعنى لغير فائدة) (٥٠) فإذا كان لفائدة فهو اطناب ، وان كان لغير فائدة فهو

(٤٧) الايضاح مثلا ص ١٠٢ *

(٤٨) الايضاح ص ١٠٣ *

(٤٩) المثل السائر ج ٢ ص ١٢٩ *

(٥٠) المثل السائر ح ٢ ص ١٢٩ *

تطويل ، وإذا كان مرددا فهو تكرير ومن ثم فان التكرير صار بذلك قاسما مشتركا بين الاطناب والتطويل عند ابن الاثير (ان كل تكرير يأتي لفائدة فهو اطناب ، وليس كل اطناب تكريرا يأتي لفائدة ، وأما الذى يأتي من التكرير لغير فائدة فانه جزء من التطويل وهو أخص منه ، فيقال حيث : ان كل تكرير يأتي بغير فائدة تطويل ، وليس كل تطويل تكريرا يأتي بغير فائدة) (٥١) *

أما فائدة الاطناب عنده فهي (زيادة التصور للمعنى المقصود ، اما حقيقة واما مجازا * وهو على الحقيقة ضرب من ضروب التأكيد) (٥٢) وذلك كقوله تعالى « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » فيحصل لمن يسمع هذه الآية زيادة تصور للمدلول عليه ، لانه اذا طبقه على نفسه تصورهما جوفاً يحتوى قلبين كان ذلك أسرع للانكار ومن تأتى فائدة هذا الاسلوب وأنماطه ويقسم ابن الاثير الاطناب الى قسمين كبيرين :

(أ) الاطناب فى الجملة الواحدة الكلام *

(ب) ما يوجد فى الجمل المتعددة ، وهذا هو الابلغ لاتساع المجال فى إيراد * والقسم الأول الذى يوجد فى الجملة الواحدة اما أن يكون حقيقة أو مجازا *

١ — الحقيقة ، كقول القائل : رأيته بعينى ، وقبضته بيدي ،

(٥١) المثل السائر ج ٢ ص ١٢٩ . *

(٥٢) الجامع الكبير ص ١٥١ . *

ووطئته بقدمى وذقته بسمى + فقد يظن ظان أن تمة زيادة لاجاجة إليها ، لان الرؤية بالعين ، والقبض باليد ، والوطء بالقدم ، والذوق بالفم ، لكن ذكر هذه الأمور فى تل شىء توجد صعوبة فى الحصول عليه ، فجاءت هذه الالفاظ دلالة على التوكيد فى الحصول عليه والوصول إليه +

ومن هذا قوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم) فالسقف لا يكون الا من فوق ولكن لما كان المقام مقام ترهيب وتخويف ، وانكار وتعظيم ذكر لفظة (فوقهم) للفائدة التى لا توجد مع اسقاطها (وأنت تحس هذا من نفسك فانك اذا تلوت هذه الآية يخيل اليك أن سقفا خر على أولئك من فوقهم ، وحصل فى نفسك من الرعب مالا يحصل مع اسقاط تلك اللفظة) (٥٣) وعلى ذلك فان مثل هذه الامور كثيرا ما ترد فى القرآن الكريم ، وفيها من الأسرار البلاغة الشىء الكثير وذلك بحسب المقام الذى سيقى فيه والموقف الذى ذكرت من أجله +

٢ - وقد يأتى على طريقة المجاز ، وهو يفضل الحقيقة كثيرا لأنه كما هو شائع المجاز أبلغ من الحقيقة هذا من ناحية ، وأيضا (لمكان زيادة التصوير فى اثبات وصف الحقيقى للمجازى ، ونفيه عن الحقيقى) من ناحية أخرى (٥٤) ، وذلك مثل قوله تعالى (فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فالعمى يكون بطمس حدقة العين والعمى مكانه البصر ، أما استعماله فى القلب ، فعلى سبيل الاستعارة (فلما أريد اثبات ما هو خلاف

(٥٣) المثل ج٢ ص ١٣١ .

(٥٤) المثل السائر ج٢ ص ١٣٣ .

المعارف عليه من نسبة العمى الى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار
احتاج الامر الى زيادة تصوير وتعريف ليتقرر أن مكان العمى
انما هو القلوب لا الأبصار (٥٥) *

هذا ما يخص القسم الأول من الأطناب عند ابن الاثير ، أما
القسم الثاني وهو المختص بالجمال فانه يشمل أربعة أضرب *

الضرب الاول : أن يذكر الشيء فيؤتى فيه بمعان متداخله
الا أن كل معنى يختص بخصيصه ليست للآخر ، فكل معنى له
ما يخصه وهو وقف عليه لا يمكن أن يكون لغيره لأنه ليس من
أسبابه كقول أبي تمام *

قطعت الى الزايبين هباته . : . والثالث فاول السحاب الميل
من منة مشهورة وضعية . : . بكر واحسان أغر محجل

فالمنة والضيعة والاحسان تتداخل معانيها لكن الشاعر
وصف كل واحدة منها بوصف يمنعها من التداخل ، وبالتالي من
التكرير ، فالمنة مشهورة ، والضيعة بكر لم يأت أحد بمثلها من قبل
أما الاحسان فانه أنمر محجل ، وهذه الأوصاف المتباينة منعت
التداخل والتكرير *

الضرب الثاني : ويسميه ابن الاثير النفي والاثبات (٥٦) وهو
أن يذكر الشيء منفيا ثم يذكر مثبتا أو العكس ، ولا بد أن يكون في
أحدهما زيادة ليست للآخر والا كان تكريرا ، والغرض به تأكيد

(٥٥) المثل السائر ج٢ ص ١٣٣ *

(٥٦) المثل السائر ج٢ ص ١٣٥ *

المعنى المقصود ، وهو أوتد وجوه الاطناب فمما جاء منه على سبيل
النفى ، ثم ذكر على سبيل الاثبات قوله تعالى (لا يستأذنك الذين
يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله
عليم بالمتقين ، انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر
وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون) فبدأ سبحانه وتعالى
بالنفى فقال (لا يستأذنك ..) الآية ثم عقب بالاثبات فقال (انما
يستأذنك ..) الآية وزاد فيها قوله تعالى (وارتابت قلوبهم فى
ريبهم يترددون) فانتفى التكرار وثبت الاطناب •

أما مثال الاثبات ثم النفى فهو كقوله تعالى (الم غلبت
الروم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس
لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم
غافلون) فقال سبحانه (يعلمون) بعد (لا يعلمون) فنفى علم
الناس لما خفى عنهم من تحقيق وعده ، وأثبت لهم العلم بظاهر
الامور وليس بعلم ، فالعلم بما كان بباطن الامور •

الضرب الثالث : أن يجيء المعنى الواحد تاما لا يطلب زيادة
ويمثل له بمثال من التشبيه كقول البحرى :

ذات حسن لو استزادت من الحسن : من اليه لما أصابت مزيدا
فهى كالشمس بهجة والقضيب اللد : دن قدا والبريم طرفا وجيدا

فانه قد بلغ الغاية فى وصف حسنها ، وقد عبر الشاعر عن ذلك
بقوله (لو استزادت لما أصابت مزيدا) فجمع لها كل الاشياء

الحسنة ، غير أن التشبيه أفاد مزية أخرى ، وهى أفادة السامع تخيلا
وتصويرا لا يحدث له من البيت السابق •

الضرب الرابع : استيفاء معانى الغرض المقصود من كتاب
أو خطبة أو قصيدة وهذا كما يقول (أصعب الضروب الاربعة طريقا ،
وأضيقها بابا ، لانه يتفرع الى أساليب كثيرة من المعانى ... ومثاله
ومثال الايجاز ، مثال مجمل ومفصل) (٥٧) وقد ضرب له ابن الاثير مثلا
فى صفة بستان فى قرابة صفحة من كتابه وبدأه بقوله (جنة
علت أرضها أن تمسك ماء ، وغنيت بينبوعها أن تمسك سماء وهى
ذات ثمار مختلفه الغرابة ...) الى أن ختمه بقوله (ولقد دخلتها
فاستهوتنى حسدا ، ولم ألم صاحبها على قوله لن تبديد هذه
أبدا) (٥٨) •

التكرير

هذه هى دراسة ابن الاثير لهذا الشق من الاطناب وقد اردف
بعد ذلك بالكلام على التكرير وهو يعلم أنه جزء من الاطناب ، غير
أن شهوة التقسيم ومحاولة السبق ، والاحساس بأنه أتى بما لم
يأت به الآخرون دفعه الى تلك التقسيمات ولقد أصر منذ البداية
على أن يزيل من الفهم ما قد يتبادر للذهن من الفصل بين الاطناب
والتكرير الذى هو أحد أنواعه فعند ما قسم التكرير الى قسمين جعل
القسم الاول منه وهو الذى يأتى لفائده جزءا من الاطناب وقدمتقدم

(٥٧) المثل السائر ج٢ ص ١٣٦ ، ص ١٣٧ •

(٥٨) المثل السائر ج٢ ص ١٣٧ ، ص ١٣٨ •

سلفا قوله (ان كل تكرير يأتى لفائدة فهو اطناب ، وليس كل اطناب تكريرا) (٥٩) وبذا صار التكرير اخص من الاطناب وقد عرفه وفرق بينه وبين الاطناب والتطويل كما مر *

اقسام التكرير : ينقسم التكرير الى قسمين :

١ — ما يوجد فى اللفظ والمعنى مثل قول القائل لمن يستدعيه « أسرع ، أسرع » *

٢ — ما يوجد فى المعنى دون اللفظ وذلك مثل قولك لآخر « اطلعنى ولا تعذبنى » فالأمر بالدلالة نهى عن المعصية *

وقد قسم ابن الانبىر هذين القسمين الى أربعة أقسام أخرى فجعل كل واحد منهما ينقسم الى قسمين آخرين ، وهما مفيد ، وغير مفيد ، غير انه يعنى بالمفيد هنا هو ما جاء لمعنى أى ما أضاف معنى زائدا لمداول الاسم ، وغير المفيد ما انعدم فيه ذلك ، وهذا بخلاف ما يعنيه النحاة من مائة مفيد ، اذا المفيد عندهم هو لفظ المركب من اسم مع آخر اعلمت تربطها ، أو اسم مع فعل أو العكس وما شابه ذلك يقول (واعلم ان المفيد من التكرير يأتى فى الكلام تأييدا له ، وتشييدا من أمره ، وانما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشئ الذى نريد فيه التاكيد ، اما مبالغة فى مدحه أو ذمه أو غير ذلك ، * * * * * وغير المفيد لا يأتى فى الكلام الا عيا وخطلا من غير حاجة اليه) (٦٠) *

(٥٩) المثال السابق ص ١٢٩

(٦٠) المثال السابق ص ١٥٨ وانظر الجامع الكبير ص ٢٠٤

أولاً : أقسام ما يوجد فى اللفظ والمعنى :

١ - المفرد وينقسم الى فرعين .

(أ) اذا كان التكرير فى اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمقصود به غرضان مختلفان كقوله تعالى (واذا يعدكم الله احد الطائفتين أنهما لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويفطخ دابر الكافرين ، ليحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) مكرر سبحانه وتعالى (يحق الحق) (وليحق الحق) غير أن المراد بهما مختلف ، فالاول تمييز بين الارادتين ، والثانى بيان لغرض فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها ، وأنه سبحانه وتعالى ما نصرهم وخذل الكافرين الا لهذا الغرض .

(ب) اذا كان التكرير فى اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد والمراد به غرض واحد كقوله تعالى (فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر) . فكرر دلالة على التعجب من تقديره واصابته الغرض ، وهذا كما يقال : قتله الله ما أسجعه ، أو ما أسعره .

وقد يكون التكرير للتأكيد وتقرير المعنى مثل : قوله تعالى مى سورة الرحمن (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فانه أيضا يكون للترغيب والنهي كقوله تعالى (وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرنساد يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار) فكرر نداء قومه ليستميل قلوبهم كيلا يتسكوا فى اخلاصه لهم فى نصحه (وهذا من التكرير الذى هو أبلغ من الإيجاز وانسد موقعا من الاختصار) (٦١) .

(٦١) المثل السائر ج٢ ص ١٦٨ وانظر الجامع الكبير ص ٢٠٧ .

ثانيا : غير المفيد : ففي تكريره اضعاف للمعنى واسفاف به
ووجوده وعدمه سواء لانه لا يأتى الا بمعنى واحد فقط كقول مروان
الاصغر *

سقى الله نجدا والسلام على نجد .: وياحبذا نجد على النأى البعد
نظرت الى نجد وبغداد دونها .: لعللى أرى نجدا وهيئات من نجد

فان تكرير كلمة نجد فى البيتين ست مرات ، وهن المعنى ،
ولم يأت بطائل يذكر فمقصوده فى البيت الأول الثناء والتلذذ بذكر
نجد ، وفى الثانى التلفت ناظرا من بغداد ، وهذا المعنى غير
محتاج الى كل هذا التكرير وهذا من العى الضعيف كما يقول
ابن الاثير (٦٢) *

أما لو اقتصر على البيت الأول فقط لأدخل فى التكرير المقبول
لان الموقف موقف تشوق وتحرق والم لفراق نجد ومن ثم دخل تحت
أحد أغراض التكرير وهو التلذذ بذكر الشئ المحبوب أكثر من مرة *

القسم الثانى من التكرير وهو الذى يوجد فى المعنى دون
اللفظ ، وينقسم الى قسمين أيضا كسابقة :

(أ) مفيد *

(ب) غير مفيد *

(أ) المفيد وينقسم هو الآخر الى قسمين :

١ — اذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنيين مختلفين ، كدلالته على الجنس والعدد مثلا (وهو موضع من التكرير مشكل لانه يسبق الى الوهم أنه تكرير محض يدل على معنى واحد فقط) (٦٣) ، وذلك كقوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد) والفائدة من ذكر (الهين اثنين ، اله واحد) هو أن الاسم الحامل لمعنى الافراد والتثنى يدل على الجنسية والعدد المخصوص (فاذا أريدت الدلالة على أن المعنى به واحد منهما وكان الذى يساق اليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكد ، فدل به على القصد اليه والعناية به ، ألا ترى أنك لو قلت « انما هو اله » ولم تؤكد بواحد لم يحسن ، خيل أنك تثبت الالهية لا الوجدانية) (٦٤) ومن هذا النوع ذكر الخاص بعد العام (٦٥) وفائدته التنبيه على فضله ، حتى كأنه لفضله وسمو مكانته جزء آخر مغاير لما قبله كقوله تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) ومن ذكر الخاص بعد العام ما فائدته تعظيم الشأن ، وتفخيم لامره وهذا مذكور فى القرآن الكريم كثيرا مثل قوله تعالى (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها) فالجبال جزء من الارض ، لكن لفظ الارض عام ، والجبال خاص ، وبذا عظم شأن الامانة وفخم أمرها •

(٦٣) الجامع الكبير ص ٢٠٩ •

(٦٤) الجامع الكبير ص ٢١٠ •

(٦٥) وانظر أيضا المثل ج٢ ص ٣٢ النوع الثامن : وهو فى استعمال

العام فى النفى والخاص فى الاثبات •

٢ — اذا كان التكرير فى المعنى يدل على معنى واحد لا غير
كقولك لمن تخاطبه : أظعننى ولا تعصنى فالأمر بالطاعة نهى عن
المعصية ، والفائدة من ذلك تثبت الطاعة فى نفس المخاطب •

ومنه أيضا الترغيب فى العفو والصفح كقوله تعالى (يأيها
الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، وان
تعفوا وتصفحوا او تغفروا فان الله غفور رحيم) فالعفو ، والصفح
والمغفرة بمعنى واحد ، وانما كرر للزيادة فى تحسين عفو الوالد
عن ولده والزوج عن زوجته • ومن أنواع الاطئاب التى ذكرها
مبعثرة فى كتبه التفسير بعد الابهام ويقول عنه (اعلم أن هذا النوع
لا يعتمد الى استعماله الا لضرب من المبالغة ، فاذا جىء به فى كلام ،
فانما يفعل ذلك لتفخيم أمر المبهم واعظامه لانه هو الذى يطرق
السمع أولا فيذهب بالسامع كل مذهب (٦٧) وضرب له أمثلة عديدة
قرأنا وشعرا ونثرا وسنكتفى بمثال واحد يبين هذا النمط وهو قوله
تعالى (وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع) ففى ابهامه
أولا وتفسره بعد ذلك تفخيم للامر وتعظيم لشأنه ، فانه لو
حذف لفظة (الامر) لما كان الكلام بهذه المنزلة من العظمة لان
الابهام يوقع السامع فى حيرة وتفكر واستعظام لما يقرع سمعه ،
فيتشوف الى معرفته والاطلاع على حقيقته ، فأبهم فى كلمه الامر
ثم وضعه بعد ذلك تهويلا لامر العذاب •

(٦٧) المثل السائر ج٢ ص ٢٧ وهذا شبيهه بعطف المظهر على ضميره
والانفصاح به بعده انظر المثل ج٢ ص ٢٤ •

(ب) غير المفيد ، وذلك كقول أبي تمام :

**قف بالطول الدراسات عالما .: أضحت حبال قطينهن رثا
تسيم الزمان ربوعها بين الصيا .: وقبولها وديورها أثلا**

والصبا والقبول بمعنى واحد ، فالتكرير لم يأت بفائدة ، وهذا النوع من التكرير لا يجوز للناثر أن يستخدمه ، وإنما يجوز للشاعر في حالة واحدة فقط وهي إقامة والقافية كقول امرئ القيس :

وهل ينعمن الا سعيد مخلد .: قليل الهموم لا يبيت بأوجال

فإذا كان قليل الهموم ، فانه لا يبيت بأوجال والذي سوغ ذلك هو القافية .

وقد تنبه ابن الاثير الى نوع عده القزويني (٦٨) من أغراض التكرير وهو التكرير اذا طال الفصل لثلايجيء الكلام مبتورا ليس له طلاوة ، فلم يعده ابن الاثير من التكرير فقال (ولربما أدخل في التكرير من هذا النوع ما ليس منه) (٦٩) وذلك مثل قوله تعالى : (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم) فكرر (ان ربك) مرتين وذلك أدل على المغفرة ومنه قوله تعالى (ولا تحسبن الذين يفرحون بما اتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) .

وأیضا قوله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف عليه السلام (اذ

(٦٨) الايضاح ص ١١٣ .

(٦٩) المثل السائر ج ٢ ص ١٦٦ .

قال يوسف لآبيه ياأبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) فلما طال الفصل كرر الرؤية ومنه قول الشاعر :

وان امرا دامت موثيق عهده .: على مثل هذا انه لكريم

ويدل على صدق رأيه أنه اذا طال الفصل من الكلام وكان أوله يفتقر الى اتمام لكى يفهم ، فمن الفصاحة أن يعاد اللفظ الاول مرة ثانية ليكون مقارنا لتمام الفصل من ناحية ، ولكيلا يكون مننورا من ناحية أخرى ، ونراه يحدد الموضع لى ان وأخواتها فيقول (فاذا وردت ان وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام ، فاعادة ان أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة . . . فاذا لم تعد ان مرة ثانية لم يأت على الكلام بهجة ولا رونق) (٧٠) .

ومن أنواع الاطناب الاعتراض ، الذى يذكره المتكلم لغرض يقصده فى كلامه ، فيأتى فى أثناء الكلام ، أو بين كلامين متصلين فى المعنى بجملة معترضه أو اكثر ، وقد يكون فى آخر الكلام ، وقد أسماه ابن الاثير بالاعتراض وذكر أن بعضهم يسميه بالحتسو . وقد مر بنا أثناء حديثنا عن الفصاحة العيوب التى ترد بها فصاحة الكلام وذكرنا منها التداخل بين ألفاظه ومعانيه ، والفصل المخل بين مالا يصح فصله لانه سوف يؤدى الى خلل فى سياق الكلام . واضطراب فى معانيه ، وهذا هو الفصل المخل بالمعنى والسياق . غير أن هناك فصلا قد لا يفسد المعنى ولا يؤدى الى ذلك .

الاضطراب ، وهو ما يعرف عند ابن الاثير بالاعتراض أو ما يسميه بعضهم بالحشو ، أى ما يأتى محسوا ، أو معترضا بين أطراف الكلام كالمبتدأ والخبر ، والصفة والموصوف والمتصايفين وما أشبه ذلك •

لكن ما الفرق بين هذه الاعتراضات ، وبين العيوب التى تدخل على الكلام ، فتذهب فصاحته ؟ سوف نجد أن هذا الحشو أو تلك الاعتراضات لم تخل بالمعنى ، كما أنها لا تؤدى الى التعاقل فان الجملة الموضوعية بين جزئين رئيسيين تنواعم معهما فى المعنى ولو اسقطت من الكلام لم ينقص المعنى أو يخل شئ منه بخلاف ما سبق كقول الشاعر :

فأصبحت بعد خط بهجتها . : . كان قفرا رسوبها قلما

وبذلك تريد من قوة المعنى فى العبارة خاصة اذا كانت جملة دعائيه أو قسما أو ما أشبه ذلك •

ويعرف ابن الاثير الاعتراض والحشو بقوله : (كل كلام ادخل فيه لفظ مفرد أو مركب ، لو اسقط لبقى الأول على حاله) (٧١) أى سواء كان الداخل لفظا واحدة أو جملة بأكملها بين عنصرى الجملة فان ذلك ليس مما يفسد الكلام أو يؤدى الى خلط المعنى شريطة أنه اذا سقط من الكلام لبقى المعنى قائما ، فلو قلنا مثلا : زيد قائم ، فان المعنى قد تم بالمبتدأ والخبر ، ولو جئنا بفصل كالقسم بينهما لم يفسد المعنى بل يزداد توكيدا ، ولو حذفناه لن يتغير المعنى ، هذا بالنسبة لدخوله لفظا مفردة •

أما لو أدخلنا جملة بين زيد ، وقائم ، أى بين المبتدأ والخبر
فان الكلام أيضا لن يخل * فنقول مثلا : زيد على ما يعانيه من
المرض قائم ، فقد أدخلنا جملة على ما يعانيه من المرض « بين المبتدأ
والخبر ، وقد أفادت معنى زاد على المعنى الأول واتحد المعنيان
لخدمة الجملة الخبرية ، ولو حذفنا الجملة التى أضفناها لظل المعنى
على حاله دون تغيير وهو الافادة بقيام زيد » *

ولكن ليس كل اعترض حسن أو جائز ، والمعول على ذلك
كتب العربية وقواعدها ، فان فيها ميزانا وقاعدة لما يحسن استعماله
أو يجوز ، ولما يقبح ، وينكر استعماله ، وليس هذا من وكدنا بل
الهدف هو الوقوف على الجيد والردىء من مثل هذه الأمور *

ويقسم ابن الاثير الاعتراض والحشو الى قسمين (٧٢) :
أحدهما : لا يأتى فى الكلام الا لفائدة وهو جار مجرى
التوكيد *

الآخر : أن يأتى فى الكلام لخير فائدة ، فاما أن يكون دخوله
كخروجه منه ، واما أن يؤثر فى تأليفه وفى معناه فسادا *

وهذا القسم الأخير ينقسم هو ايضا الى ضربين :

الأول : يكون دخوله فى الكلام كخروجه منه لا يكتسب به
حسنا ولا قبحا *

الثانى : وهو الذى يؤثر فى الكلام نقصا وفى المعنى فسادا (٧٢) . أما بالنسبة للقسم الاول — الذى يأتى لفائدة فانه ورد كثيرا فى القرآن الكريم والشعر العربى . فمن أمثلته مما جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) وفى هذه الآية اعتراضان أحدهما هو قوله تعالى (وانه لقسم لو تعلمون عظيم فانه اعتراض بين قوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) ، وبين قوله تعالى (انه لقرآن كريم) أى فيه فاصل أو اعتراض بين القسم وجوابه بقوله تعالى : (انه لقسم لو تعلمون عظيم) وأيضا فان فى هذا الاعتراض اعتراض آخر وهو قوله تعالى (لو تعلمون) ووقع بين الموصوف وهو قسم والصفة التى هى عظيم .

وهذا الاعتراض كما هو واضح انما جاء خدمة للمعنى فالقصد منه تعظيم شأن القسم به فى نفس السامع ، فيقدره حق قدره ويكبره ويظل متأملا متطلعا الى معرفة عظيمته .

وكما سلف أن قلنا فان القرآن الكريم مليء بالاعتراضات كالاتراض بين القسم وجوابه كما مر ، أو كالفصل بين المتعاطفين أو بين اذا وجوابها ، أو غير ذلك مما ورد فى القرآن الكريم ، وكلها ترد فى الموضع الذى يتعلق بنوع من الخصوصية والمبالغة والتهويل أو التعظيم فى المعنى المقصود .

(٧٢) المثل السائر ج٢ ص ١٨٥ وما بعدها .

وكما ورد فى القرآن ورد فى الشعر العربى وذلك مثل قول
امرىء القيس :

لو ان ما اسعى لادنى معيشة .: كفىنى ولم اطلب قليل من المال

فمقدّر الكلام كفىنى قليل من المال ، فاعتراض بين الفعل
ولفاعل بقوله « ولم اطلب » ، فإفاد تحقيق المعيشة ، وأنها
حاصلة بغير جهد ولا مشقة ومنه قول كثير هاجيا :

لو ان الباخلين وانت منهم .: راوك تعلموا منك المطالا

فاعتراض بين اسم ان وخبرها بجملة وأنت منهم *

وفائدة الاعتراض فى الشعر غالبا أن الكلام اذا كان فى الغزل
أضفى عليه لطفًا ورقّة ، أما اذا كان مديحا فان يكسوه
جمالا وجلالا ، فاذا كان هجاء أكده فى نفس السامع وما أشبه
ذلك * ومن ثم فان هذا النوع يؤدى الى زيادة المعنى وإضافة
ظلال تسمو به ، بخلاف ما لو حذف منه *

القسم الثانى من الاعتراض وهو الذى يأتى لغير فائدة ، أى
لا يفيد لطفًا ولا رقّة ، ولا جمالا ولا تأكيدًا ، ويكون دخوله فى
الكلام كخروجه منه فلا يكتسب الكلام به حسنا ولا قبحا وهو
جملة (لا أبالك) وغالبا فانها تكون مع الجمل الخبرية فاذا كانت
مع الجملة الانشائية فانها غالبا ما تزيد الكلام حسنا ، وتضفى
عليه توكيدا *

فالأول كقول النابغة :

يقول رجال يجهلون خليقتى .: لعل زيادا - لا أبالك - غافل

أو قول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش .: ثمانية حولا - لا أبالك - يسام

فان قولهما لا أبالك زيادة واعتراض لافائدة منها فى البيتين

ولم تؤثر فى المعنى لا حسنا ولا قبحا ، عكس قول أبى تمام :

عتابك عنى - لا أبالك - واقتصدى .: . . . البيت

فانه لما كره عتابها اعترض بقوله لاأبالك فجاءت موقعها
وأضافت زيادة فى الكلام فاكسبته توكيدا فى ذهن المخاطب والجملة
كما نرى انشائية ، نوعها أمر وغرضه أو مقصوده الذم ، والاعتراض
جاء بين فعل الأمر ، وبين المعطوف عليه وهو قوله اقتصدى .

وهذا هو الضرب الاول من القسم الثانى ، أما الضرب الثانى

من القسم الثانى ، فهو الذى يهجن الكلام ، ويفسد المعنى ، وقد
تكلمنا عنه فى المعاطلة مثل قول الشاعر :

فقد والشك بين لى عناء .: . . . البيت

أو قول الآخر : فأصبحت بعد خط بهجتها . . .

وبهذا تنتهى دراسات ابن الاثير لعلم المعانى وكان الرجل ذا قدم

راسخة وعلى علم ودراية بهذا الفن من فنون البلاغة،والآن نتجه صوب

علم أو فن البيان لنقف على مدى فهم ابن الاثير له أيضا .

دراسات ابن الأثير للبيان وأبوابه

شيئان لا نهاية لهما
البيان والجمال
ابن الاثير

دراسة ابن الاثير للبيان وأبوابه

بعد أن تناولنا بعض أبواب علم المعاني التي أوردها ابن الاثير ورأينا كيف كان فهمه لكل منها ، نعرض الآن لدراسته لعلم البيان ، وكيف تناول أبواب هذا القسم من البلاغة ، وكما هو معروف فان علم البيان يعنى بإيراد المعنى الواحد بطرق وتراكيب متباينة فى الوضوح والدلالة على هذ المعنى ، فربما اعتقد المتكلم أن طريقا أفضل أو أوضح من طريق فى الدلالة على المعنى الذى يدور بخلده ، ومن ثم يعبر بطرق مختلفة ، فأحيانا يعتمد الى التشبيه ، فيشبه الأشياء الغامض بالشئ الواضح ، وأحيانا يتوجه ناحية المجاز لاذاء ذلك المعنى ، وقد يلجأ الى الكناية وربما استخدم الاستعارة ، وهذه الطرق كلها توصل الى ما يرمى اليه وما يهدف ، ومدار الامر كله فى هذه الطرق أنه يسخر المجاز ، فهو القاسم المشترك الاعظم بين هذه الطرق ، بل هو الرابط بينها وبين المعنى الحقيقى الذى دار بخلد المتكلم طالما كان سليم الذوق جيد الطبع .

وقد عرض له ابن الاثير فى كتبه مقتاترا هو وأبوابه ، وان كان كلها ينبع من ركية واحدة ، ويكمل كل منهما الآخر ، غير أنه شديد الاحتفاء بعلم البيان اذ هو الركن الرئيس لتأليف النظم والنثر ، فهو بمنزلة أصول الفقه للاحكام وأدلتها ، ومداره على الذوق السليم الموهوب ، فتمتى اعطى الناظم أو الناثر هذا الذوق ، فانه سوف يعينه على نظم الفرائد ، بل هو أجدى للناظر والناثر من الخبرات المكتسبة بالتعليم ، طالما أوتى صاحبه الدربة والممارسة والمران (فان الدربة

والادمان أجدى عليك نفعا وأهدى بصرا وسمعا وهما يريانك الخبر
عيانا ، ويجعلان عسرك من القول امكانا ، وكل جارحة منك
قلبا ولسانا (١) •

وإذا كان صاحب كل صناعة يسأل عن أحوالها التي تعرض
لها ، فإن صاحب علم البيان أو صناعة البيان يسأل عن الفصاحة
والبلاغة سواء من الناحية اللفظية أو المعنوية ، والدلالة وفضيلتها،
والهيئة المخصوصة من الحسن وعلم البيان بهذه الخصوصية يفترق
عن علم النحو ، فإذا كان علم النحو ينصب على الالفاظ والمعانى
وأحوالهما الدلالية من جهة الاوضاع اللغوية فإن علم البيان ينظر
فى فضيلة تلك الدلالة ومن ثم فإن (موضوع علم البيان هو الفصاحة
والبلاغة وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية ، وهو
والنحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالة الالفاظ على
المعانى من جهة الوضع اللغوى ، وتلك دلالة عامة ، وصاحب علم
البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة ، وهى دلالة خاصة والمراد بها
أن يكون على هيئة مخصصة من الحسن ، وذلك أمر وراء النحو
والاعراب الا ترى أن النحوى يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور
ويعلم مواقع اعرابه ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة
والبلاغة (٢) ولذا قرر أن النحاة لا يفتياليهم فى مواقع الفصاحة
والبلاغة (٣) لأن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والاعراب •

(١) المثل السائر ج١ ص ٦ ت محيى العين •

(٢) المثل السائر ج١ ص ٧ •

(٣) المثل السائر ج٢ ص ١٦٤ •

المجاز وعلم البيان

قلنا فيما سبق ان المتكلم يستطيع أن يؤدي ما بنفسه من معان متباينة بطرق شتى وهذه الطرق ، قاسمها المشترك الأعظم هو المجاز ، ومن هنا توثقت الصلة بين المجاز وعلم البيان ، لان اللفظ الذى يطلقه المتكلم قد لا يقع الا لمعنى واحد ، وقد يقع لمعنيين ، وهذان المعنيان اما أن يكونا حقيقيين ، وأما أن يكون أحدهما حقيقيا والآخر مجازيا ، واما أن يكونا مجازيين •

فمثال الحقيقيين قول الرسول ﷺ « التمسوا الرزق فى خبايا الارض » فلفظه خبايا معناها الكنوز المخبوءة فى باطن الارض ، والاخر الزراعة من حرث وغرس ، والمقصود والمرجح من هذه اللفظة هنا هو الزراعة دون الاخر •

ومثال المجازيين قول أبى تمام :

قد بلونا أبا سعيد حدثا .: وبلونا أبا سعيد قديما
ووردناه ساحلا وقليبا .: ورعيناه بارضا وجميما (٤)
فعلما أن ليس يشق الف .: فس صار الكريم يدعى كريما

فيعلق ابن الاثير على هذه الابيات قائلا (فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان أحدهما أنه أراد بهما الكثير والقليل بالنسبة الى الساحل والقليب ، والاخر أنه أراد بهما السبب وغير السبب ، وكلا هذين المعنيين مجاز ، فان حقيقة الساحل والقليب

(٤) البارض أول خروج النبت من الارض والجميم انتشاره •

غيرهما •• •• فكأنه قال أخذنا منه تبرعا ومسألة ، وقليل
وكثيرا (٥) •

أما النوع الثالث وهو الحقيقة والمجاز فكقوله تعالى : (ويوم
يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤوها شهد
عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) فلفظة الجلود
هنا تفسر على الحقيقة ، والمجاز ، أما الحقيقة فيكون مطلق الجلود ،
أما المجاز فيكون تخصيص الفروج ، وهذا التعبير من الطف الكنايات
لانه كنى عما يستقبح ذكره وجاء به واضحا بينا والذي رشح ذلك
هو مراعاة النظم بين الجوارح من سمع وبصر وجلود أى فروج •

ومهما يكن من أمر فان المقصود بالدراسة هنا هو المجاز على
وجه العموم لاهميته القصوى لعلم البيان كما بينا آنفا ، ونظرا
لهذه الاهمية يذهب ابن الأثير الى أن المجاز هو علم البيان بأجمعه
لان مجيء العبارات على المجاز يجتنى منه فوائد كثيرة وتبعاً لهذه
الاهمية فانه أفرد فصلاً خاصة لدراسة الحقيقة (٦) التى
يعرفها بأنها اللفظ الدال على موضوعه الأسمى •

ويعرف المجاز بأنه (ما أريد به غير المعنى الموضوع له فى
أصل اللغة) (٧) • وهذا التعريف ناقص بعض النسيء عن التعريف

-
- (٥) المثل السائر ج ١ ص ٤٣ ، ٤٤ •
 - (٦) المثل السائر ج ١ ص ٥٧ •
 - (٧) المثل السائر ج ١ ص ٥٨ •

الاصطلاحى للمجاز اذ قد عرفه علماء البلاغة: بأن استخدام اللفظى غير ما وضع لعلاقته مع قرينه ما نعة من ارادة المعنى الاصلى •

وأحيانا تكون العلاقة مقيدة بالمشابهة فيكون مجازا بالاستعارة وأحيانا تكون العلاقة مطلقة تتحدد من سياق الكلام فهذا هو المجاز المرسل كل هذا مع وجود قرينة اما للمظية واما معنوية (٨) يمنع السامع من فهم اللفظ على حقيقته ، 'ذ لو أردنا اللفظ على الحقيقة لما كان ذلك مجازا البته • ومهما يكن من أمر ، فان ابن الانير فى تحليله للفظ مجاز قارب من التعريف الاصطلاحى سالف الذكر له •

فيرى أن المجاز اسم مكان ، يقصد به الانتقال من مكان لآخر فاستعير لنقل الالفاظ من محل الى محل لوجود صلة بينهما (كقولنا زيد أسد فان زيدا انسان والاسد هو هذا الحيوان المعروف ، وقد جزنا من الانسانية الى الاسدية أى عبرنا من هذه الى هذه لوصلة بينهما وتلك الوصلة هى صفة الشجاعة وقد يكون العبور وصلة وذلك هو الاتساع) (٩) • وسمى المجاز بهذا الاسم لأنه جيز به المعنى أو الغرض المقصود فى نفس السامع عن طريق التخيل ومن ثم فان كل مجاز له حقيقية وليس العكس ، ولذا صار المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة فى باب الفصاحة والبلاغة لانه يثبت المعنى أو الغرض المقصود فى نفس السامع عن طريق التخيل

(٨) انظر الكلام بتفصيل اكثر بين الحقيقة والمجاز والقرائن فى كتابنا البلاغة وقضايا المشترك •

(٩) المثل السائر ج١ ص ٥٨ وهذا تسبيه بليغ مضمحل الاداة !!

والتصوير حتى ليكاد يتجسم أمامه هذا المعنى محسوسا ، ومن ناحية أخرى فإن التعبير المجازى له فعل السحر فى نفس السامع ، ويجد له نشوة لا تكون للتعبير الحقيقى ، فتجعل الجبان سجاعا والبخيل كريما ، وإذا لم تتحقق هذه الفوائد المرجوة من المجاز وجب على المتكلم أن يعدل الى الحقيقة لأنها أصل والاصل أولى فى التعبير من الفرع •

نخرج من كل ما تقدم الى أن المتكلم اذا عدل عن الحقيقة الى المجاز لمشاركته بين المنقول والمنقول اليه كان ذلك التعبير استعارة أما اذ كان العدول عن الحقيقة الى المجاز لغير المشاركة بين المنقول والمنقول اليه فيكون ذلك بطلب التوسع فى الكلام ، وذلك بتعدد العلاقات ، وينتهى الى أن أقسامه ثلاثة : اما توسع ، أو تنسيب أو استعارة (١٠) ويقصد بالتوسع المجاز المرسل •

وأثناء كلامه عن الاستعارة اعترض عل الغزالى فى كتابه اصول الفقه فيما كتبه عن المجاز وأقسامه ، تبعا لتنوع علاقاته المعروفة فى المجاز المرسل ، وان كنت لا أوافقه على هذا الخلط ، وما ذهب اليه الغزالى هو الصواب بل هو المعروف لدى البلاغيين ، وان كان ولا بد من مثال فسوف نورد بعض اعتراضاته على الامام الغزالى فى قسم من أقسام المجاز المرسل ، فقد ذكر الغزالى — حسبما أورد ابن الاثير — قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام

ومن دخل معه السجن (انى أرانى أعصر خمر) وكما هو معروف لدى البلاغيين فهذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يؤول اليه أى انى أعصر عنباً يؤول ويصير ويتحول الى خمر ، وهذا لا خلاف عليه عندهم غير أن ابن الاثير لا يرى ذلك مجازاً مرسلًا ، وانما يراه استعاره فيقول (وهو من باب الاستعارة ، لا ، بل أوغل فى المشابهة من ذاك لان الخمر من العنب) (١١) وهذا رأى مدحوض لابن الاثير لانه لاشك فى أن هذا مجاز مرسل علاقته اعتبار ما يكون والمثال الاخر من الامثلة التى عدها الغزالي من المجاز المرسل ورفضها ابن الاثير ما علاقته الجزئية فقال : (تسمية الشيء باسم جزئه كقولك لمن •• تبغضه أبعد الله وجهه عنى ، وانما تريد سائر جثته) (١٢) • فاعتبر ذلك أيضا من الاستعارة ، وهذا خطأ من ابن الاثير لان ذلك أيضا مجاز مرسل علاقته الجزئية ، وهذا من نوع قوله تعالى (فتحرير رقبه مؤمنه) فالتكلم ذكر لفظ الجزء فى المثال والاية الكريمة غير أن المراد هو لكل لا الجزء •

وعلى كل فان الغزالي كان مصيبا فى دراسته للمجاز ، ولكن سهوة المناقضة والانتقاص لدى ابن الاثير جعلته يقف موقفا متخبطا من دراسة الغزالي لهذا اللون البيانى • والملاحظ أنه كان يقسم المجاز الى أقسام ثلاثة : هى التوسع ، والتشبيه ، والاستعارة وقد جاءت هذه الدراسة ، وتلك الاقسام أثناء كلامه عن الاستعارة ، وهى التى سوف نعرض لها فيما بعد ، مع باقى ألوان علم البيان •

(١١) المثل السائر ج١ ص ٣٦٩ •

(١٢) المثل السائر ج١ ص ٣٧١ •

التشبيه

معروف أن التشبيه هو الحاق أمر بأمر فى معنى من المعانى بأداة من أدوات التشبيه ، فالأمر الأول هو المشبه والثانى هو المشبه به ، والمعنى الذى يشتركان فيه هو وجه الشبه بأداة من أدوات التشبيه المعروفة سواء كانت اسما أو فعلا ، أو حرفا ، وقد قسم علماء البلاغة مصطلح التشبيه الى أقسام عديدة سواء بالنسبة للطرفين من حيث الحسية والمعنوية ، أو من حيث الافراد والتركيب ، ومن ناحية اثبات الاداة وحذفها ، ومن ناحية وجه الشبه ، من حيث الحسن والقبح وما الى ذلك •

ودرس ابن الاثير فى كفته أيضا التشبيه ، وكان له رأى فيه خاصة التشبيه المضر الاداة ، وثمة حقيقة نود أن نقررها بادئ ذى بدء ، وهى أن ابن الاثير خلط أحيانا بين التشبيه والاستعارة على عادته فى الخلط بين أبواب المجاز والوانه على نحو ما سنوضح فى دراستنا له •

تعريف التشبيه عنده ، يعرف ابن الاثير التشبيه بقوله (حد التشبيه هو أن يثبت للمشبه حكم من أحكام المشبه به) (١٣) وهذا تعريف قاصر للتشبيه لانه لم يتناول الطريقة التى يتم بها هذا الاثبات ، كما قد يكون هذا الاثبات لاجمال فيه ، ولا قبح ، بل

يكون على طريقة التقريب ، كأن نقول هذا اللون ، أو هذا اللباس
 فى سواده يشبه سواد الليل ، فلا قيمة بلاغية مرجوة من هذا
 التشبيه ، بل هو مبتذل يجرى على ألسنة العوام كثيرا ليس فيه
 قوة التخيل ، لانه خال من الابداع ، ولذا فأننا اذا ايمننا تجاه
 كتابه الجامع الكبير فى صناعة المنظوم والمنثور ، وجدنا تعريفا آخر
 للتشبيه أقرب الى الحد البلاغى له عند البلاغيين فيقول (وحده
 أن يثبت للمثبه حكم من أحكام المثبه به ، ويقال : هو الدلالة على
 اشتراك شيئين فى معنى من المعانى ، وأن أحدهما يسد مسد الآخر ،
 وينوب منابه سواء كان ذلك حقيقة أو مجازا ***** واعلم
 أن التشبيه يكون بأداته كالكاف ، وكأن ، وما جرى هذا المجرى ،
 ويكون بغير أدواته ، وهو أن يجعل الكلام خلوا منها صالحا لتقديرها
 فيه (١٤) •

وهذا التعريف كما نرى يتطابق الى حد كبير مع تعريف
 البلاغيين للتشبيه كما بينا سلفا ولكن الذى زاده فى هذا التعريف
 هو تعريفه للتشبيه البليغ عندما تحذف الاداة ووجه الشبه ، ومما
 يحمده له أيضا أنه أثبت أن تشبيه شىء بشىء اما أن يكون على
 الحقيقة ، أو على المجاز ، فما كان على الحقيقة فهو كتشبيه شىء
 أبيض باخر أبيض مثله ، أو بشىء أسود ، باخر مثله ، ولذا فانه
 بقول على مثل ذلك التشبيه (وليس هذا من غرضنا) (١٥) ، وأما

(١٤) الجامع الكبير ص ٩٠ ، ٩١ •

(١٥) الجامع الكبير ص ٩٠ •

المجاز فكقولنا زيد أسد ، فليس زيد هو نفسه ذلك الحيوان المفترس لكنه شبيه به فى بعض أوصافه وذلك يكون على سبيل المبالغة ،
والبيان والايجاز (١٦) •

وقد قسم التشبيه بعد ذلك الى أقسام ، كما فعل البلاغيون ، سواء من حيث الطرفين — أى المشبه والمُشَبَّه به — أو من حيث الاداة، أو من حيث وجه الشبه ، وتكلم عن التشبيه المقلوب ووسمه بأنه المسمى بغلبة الفروع على الاصول كما تناول التشبيهات الحسنة، وبين الرديئة كما سوف نعرض •

أولا : أقسامه من حيث الافراد والتركيب : يقسم التشبيه من حيث الافراد والتركيب فى كتابه الجامع الى ثلاثة أقسام :

(أ) مفرد بمفرد •

(ب) مركب بمركب •

(ج) مفرد بمركب (١٧) •

أما فى كتابه المثل السائر فانه يقسمه الى أربعة أقسام فيزيد على الثلاثة المتقدمة نوعا رابعا ، وهو تشبيه المركب بالمفرد •

ويقرر منذ البداية بأن تشبيه المفرد بالمفرد يكون فيه تشبيه شىء واحد بشىء واحد ، أما المركب فيكون التشبيه فيه بين شيئين أو أكثر بشيئين أو أكثر كذلك (١٨) • وضرب لكل نوع مثاله •

(١٦) المثل السائر ج١ ص ٣٩٤ •

(١٧) الجامع الكبير ص ٩٢ •

(١٨) المثل السائر ج١ ص ٣٩٨ •

(أ) فمن تشبيهه المفرد بالمفرد قول البحترى :

تبسم وقطوب فى ندى ووغى . كالغيث والبرق تحت العارض البرد

(ب) ومن أمثله المركب بالمركب قوله تعالى (انما مثل الحيوة كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس) • فقد شبه حال الدنيا بسرعة زوالها وانقراض نعيمها وادبارها ، بهيئة نبات الأرض فى جفافه وذهابه طعاما بعدما التفت وتكاث وزين الأرض •

(ج) ومثل لتشبيهه المفرد بالمركب بقول الشاعر :

كان السها انسان عين غريقة . من الدمع يبد وكلما ذرفت زرفا (١٩)

(د) وهو تشبيهه المركب بالمفرد وقد مثله له بقول أبى تمام فى وصف الربيع :

ياصاحبى نقصيا نظر يكما تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد ثاباه زهر الربا فكأنما هو مقمر

ثم يقول معلقا على ذلك (فشبه النهار المشمس مع الزهر الأبيض بضوء القمر وهو تشبيه حسن واقع موقعه مع ما فيه من لطف الصنعة) (٢٠) •

(١٩) الجامع الكبير ص ٩٣ : ص ٩٦ •
(٢٠) المثل السائر ج ١ ص ٤١٥ •

والنوع الأخير عنده ينقسم الى قسمين :

١ — تشبيه شيئين مشتركين بشيء واحد كقول أبى تمام
سالف الذكر فى وصف الربيع *

٢ — تشبيه شيئين منفردين بشيء واحد كقول المتنبي :

تشرق أعراضهم وأوجههم .: كأنها فى نفوسهم شيم

ثم يقسم التشبيه ايضا باعتبار طرفيه تقسيما آخر من حيث
الحسية والمعنوية فالحسنى ما يدرك هو أو ما دته باحدى الحواس
الخمسة ، أما المعنوى فهو المدرك بالعقل لا بالحواس ، ويورد لذلك
ثلاثة أقسام بكتابه الجامع (٢١) ، ويوردها أربعة فى المثل ، والاقسام
الأربعة هى :

١ — معنى بمعنى *

٢ — صورة بصورة *

٣ — معنى بصورة *

٤ — صورة بمعنى *

ويقصد بالمعنى هو ذلك الشيء المدرك بالعقل عكس الصورة ،
فانه يعنى بها المدرك الحسى وجاء عليه بالامثلة :

ففى تشبيه المعنى بالمعنى ضرب مثلا لذلك بقوله : زيد كالاسد

وان كنت أعتقد أن ظاهر هذا المثل يوحي بأنه تشبيه صورة بصورة
لان زيدا مرئى ، الأسد كذلك ، وهناك وجه بعيد ربما ذهب اليه
ابن الأثير وهو أنه أراد أن يشبه شجاعة زيد ، بشجاعة الأسد
وهذا بعيد (٢٢) *

— وتشبيهه صورة بصورة كقوله تعالى : (وله الجوار
المنشآت فى البحر كالاعلام) *

— واما تشبيهه معنى بصورة كقوله تعالى : (والدين كفروا
اعمالهم كسراب بقيعة) *

ممثل لما يدرك بالعقل وهو الأعمال بما يدر بالحس وهو السراب

— وآخر الاقسام وهو تشبيه صورة بمعنى ومن له بقول
أبى تمام :

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا . . . فتك الصياغة بالحبي الفرم

فشبه فتكه بالمال وبأعدائه ، بفتك الحب بالحبيب ، فالاولى
صورة حسيه مرئية عكس الثانية فهى معنوية عقلية ، ولذا نراه
علق على ذلك بقوله (وهذا القسم من ألطف الاقسام الأربعة ،
لأنه نقل صورة الى غير صورة) (٢٣) *

وهذا يجعل السامع بدون شك يتخيل المعنى ، وأثبت هذا
المعنى فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، بالاضافة الى جانب

(٢٢) المثل السائر ج١ ص ٣٩٨ *

(٢٣) الجامع الكبير ص ٩١ *

المبالغة والوضوح ، والايجاز •

أما من حيث الاداة ثانه تكلم عن التشبيه مثبت الاداة كما تقدم في الأمثلة سالفه الذكر ، وتكلم أيضا عن التشبيه مضمير الاداة ، مضمير وجه التشبه أيضا ، غير أنه وان لم يذكر اضمار وجه التشبه صراحه لكن ذلك موجود في الامثلة التي جاء بها ، فعندما تكلم عن حد التشبيه فقال (ويكون بغير أدواته ، وهو أن يجعل الكلام خلوا منها صالحا لتقديرها فيه ، واذا جاء التشبيه بغير أدواته كان أبلغ وأوجز) (٢٤) ويضرب لذلك مثلا : «زيد أسد» اذ تقدير الكلام زيد كأنه الأسد ، فحذف الاداة وكذا وجه التشبه ، فصار المشبه هو نفسه المشبه به فأخذ كل ما للأسد من تسجاعة وقوة وهيبه الى غير ذلك — دون الحيوانيه طبعاً — وبذا صار هذا اللون من ألوان التشبيه أبلغ وأشد موقعا بالنفس وأوجز •

وأثناء كلامه عن هذا اللون من التشبيه تناول تشبيه التمثيل وان لم يعرفه ، وكما هو معروف عند البلاغيين فان تشبيه التمثيل ما كان وجهه وصف منتزع من متعدد كقول بشار بن برد :

كان مثار النقع فوق رؤوسنا . . . واسيفنا ليل تهاوى كواكبها

وعلى كان فان ابن الأثير اثناء تقسيمه التشبيه مضمير الاداة قسمة الى أقسام منها تشبيه المفرد بالمفرد ، أو المفرد بالمركب ، كما مر

سلفا ، لكنه أتى بأقسام ثلاثة فقال (والقسم الثالث لا يرد الا فى تشبيه مركب بمركب ، والقسم الرابع والخامس لا يردان الا فى تشبيه مركب بمركب) وقد مثل لهذه الاقسام أمثلة تدل على ماذهبنا اليه فمن تلك الامثلة قول الرسول ﷺ (وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم الا حصائد ألسنتهم) •

أو قول الفرزدق فى هجاء جرير :

ماضر تغلب وائل أهجوتها — : أم بليت حيث تقاطع البحران

(فثبته هجاء جرير تغلب وائل ببوله فى مجمع البحرين ، فكما أن البول فى مجمع البحرين لا يؤثر شيئا فكذا هجاؤك هؤلاء القوم لا يؤثر شيئا) (٢٥) • فإذا ما طبقنا تعريف البلاغيين لتشبيه التمثيل وجدناه يصدق على هذه الامثلة فان وجه التشبه فى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام وبيت الفرزدق منتزع من متعدد سواء فى المنسب أو المشبه به ، وان كان قد خلط بين التشبيه مضمرة الاداة ، وبين الاستعارة أحيانا على نحو ما سوف نوضح فى درسنا للاستعارة عنده ، وأثناء كلامه عن التشبيه المضمرة الاداة ينتبه الى لون من التشبيه قد يخفى على البعض الا وهو نوع من التشبيه ينتج من المصدر المضاف وهو أحد ألوان التشبيه البليغ أيضا لانه جاء حاليا من الاداة ووجه التشبه وضرب له مثلا : قدم اقدام الاسد،

(٢٥) المثل السائر ج١ ص ٣٩١ •

وفاض فيص البحر ، والتقدير أقدم كإقدام الأسد ، وفاض كفيص البحر ، أو كقول أبي نواس في وصف الخمر .

وإذا ما مزجوها . وثبت وثب الجراد

وإذا ما شربوها . أخذت أخذ الرقاد

إذا التقدير وثبت كوثب الجراد ، وأخذت كأخذ الرقاد وهذا من أفضل أنواع التشبيه وأحسنها ولذا يقول عنه ابن الأثير (وهو أحسن ما استعمل في باب التشبيه) (٢٦) .

وآخر الألوان التي أوردتها لأقسام التشبيه ما عرف لدى البلاغين بالتشبيه المقلوب أو المنعكس ، وهو ما يرجع فيه وجه الشبه إلى المشبه به ، وذلك عندما يراد تشبيه الزائد بالناقص ، ويلحق الأصل بالفرع بقصد المبالغة ، وهو جار على خلاف العادة في التشبيه ، ولذا يفضل غيره ، وقد عرفه ابن الأثير بقوله (واعلم أن من التشبيه ضربا يسمى « غلبة الفروع على الأصول » وهو ضرب من الكلام ظريف ، ولا تكاد تجد شيئا منه الا والغرض به المبالغة) (٢٧) .

وسواء أكانت التسميه المقلوب أو المنعكس أو غلبة الفروع على الأصول فإن هذا التشبيه جار على خلاف العادة في التشبيه حيث أننا في التشبيه نضرب الشيء بما هو أحسن أو اعظم أو أظهر أو

(٢٦) المثل السائر ج ١ ص ٣٩٥ .

(٢٧) الجامع الكبير ص ٩٧ .

أشهر منه بهدف الايضاح أو المبالغة أما فى هذا النوع (فيجعل
المشبه به مشبها والمشبه مشبها به) (٢٨) •
وذلك مثل قول ذى الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعتة .: اذا البسته المظلمات الحنايس

فالعادة أن تشبه أعجاز النساء بكثبان الرمل لا العكس ، لكن
ذا الرمة عكس فتشبيه كثبان الانقاء بأعجاز النساء بقصد المبالغة •
ومنه أيضا قول البحتري :

فى طلعة البدر شيء من محاسنها .: وللقضيب نصيب من تنثيها

فالعرف قد جرى بأن تشبه الطلعة بالبدر ، والقذ بالقضيب
لا العكس كما فعل البحتري ، بل جعلها الأصل فى الاشياء التى
أخذها منها البدر والقضيب ولعلك تلاحظ المبالغة التى تطل
برأسها من لفظتى شيء ونصيب •

كما تناول الحسن والرديء من التشبيه فعرف التشبيه الرديء
بأنه الذى (يكون بين المتشبه ، والمشبه به تباین) وبعد (٢٩) ، وقد
كان العربى يمدح بأنه اذا شبه قارب ، من ذلك ما مدح به امرئ
القيس ، ولذا عيب من باعد بين المشبه والمشبه به كقول الشاعر :
ملا حاجبيك الشعر حتى كأنه .: ظباء جرت منها سنيح وبارح

(٢٨) المثل السائر ج١ ص ٤٢١ ويسميه أيضا ابن الاثير بتشبيه
الطرد والعكس •

(٢٩) الجامع الكبير ص ٩٦ والمثل ج١ ص ٤١٧ •

(٣١) المثل السائر ج١ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ •

فثبته شعرات بيضاء فى حاجبيه بالظباء السانحة والبارحة
وفرق بعيد بين هذه النعيرات ، وبين الظباء •

أما الحسن منه ما قارب فيه المتكلم بين المشبه والمشبّه به ،
أو أن يمثل الأستر بالأظهر ، أو غير المعتاد المعروف أو تمثيل الشيء
بما هو أعظم منه ، كل ذلك من أجل بيان المقصود وإيضاح المعنى
المراد أو بهدف المبالغة أو التحسين والتزيين ، و هو التقييح والتنفير
ومثلوا لهذا بقول ابن الرومى فى مدح العسل وذمه :

تقول هذا مجاج النحل تمدحه . : وان تعب قلت ذاقى الزنابير

ولعل هذا من بلاغة التشبيه • وأغراضه وهى كثيرة متنوعة
فأحيانا يكون فى معرض المدح ، وأخرى فى معرض الذم ، وأحيانا
للإبانة والإيضاح أو المبالغة •

وبعد فهذا هو التشبيه ، وهذه دراسة ابن الأثير له وهذا ما
قدمناه عنه وهو فى كثير من جوانبه يأتى وفق ما قدمه علماء
البلاغة لهذا اللون من ألوان البيان بأقسامه وأنواعه وأمثله ،
وان كان يؤخذ عليه أنه اتى بألوان من الاستعارة واعتبرها من
التشبيه مضمرا الاداة وذلك مثل قوله تعالى (وآية لهم الليل نسلخ
منه النهار) وقوله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) (٣٠) • وهو
ما سوف نعرض له عند الكلام عن الاستعارة •

الاستعارة ودراسة ابن الأثير لها

درس ابن الأثير الاستعارة ، كما درس التشبيه ، باعتبارها من ألوان المجاز غير أن دراسة ابن الأثير لها دراسة مسطحة لاعمق فيها مثلما فعل غيره من البلاغيين الذين غاصوا في أعماقها وسبروا أغوارها واستخرجوا دررها ، أما هو فليس له إلا التفريق بينها وبين التشبيه مضمرة الاداة ، وان خلط أيضا خلطا فاحشا بينهما ، وما عده من التشبيه مضمرة الاداة ، في كتابه المثل السائر ، عاد واعترف بأنه من أحسن الاستعارات في كتابه الجامع على النحو الذي سوف نعرض له . ويحدد خطته في الدراسة ، فإنه سوف يتناول (ما يختص بالاستعارة التي هي جزء من المجاز ، ولم سميت بهذا الاسم ، وكشف عن حقيقتها ، وميزتها عن التشبيه المضمرة الاداة) (٣١) .

والاستعارة عند البلاغيين هي استخدام اللفظ في غير ما وضع له لعلاقته المشابهة مع قرينة مانعة من ارادة المعنى الأصلي ، كقولنا : رأيت أسدا يخطب في الناس ، فقد استعرنا كلمة أسد لتدل على رجل بينه وبين الأسد صلة ، أو صفة اشتركا فيها سويًا وهي الشجاعة وجاءت كلمة يخطب في الناس لتمنع ارادة لفظ الأسد على حقيقته فتعين أن يكون رجلا

(٣١) المثل السائر ج١ ص ٣٥٥ ، ص ٣٥٦ .

موصوفا بالشجاعة كالأسد ، وهى قائمة أساسا على التشبيه إلا أننا نحذف المشبه ، والاداة ، ووجه الشبه ، وبذا تسمى الاستعار بالتشبيه الناقص ، كما تفتقر عن المجاز المرسل من ناحية العلاق فهى فى الاستعارة مقيدة بالمشابهة أما فى المجاز المرسل فلم تقيّد بهذا القيد ، لتنوع العلاقات •

وقد عرف ابن الأثير الاستعارة ، فقال (ان الاستعارة جـمـيع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما ، يكسب بيان أحدهما بالآخر) (٣٢) ، ويعرفها أيضا فى كتابه المثل فيقول عنها (حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ الى لفظ لمشاركة بينهما • مع ذكر المنقول اليه) (٣٣) ، كما تكلم عن القرينة ورأى أنها تفهم من فحوى اللفظ ، أى من سياق الكلام أو من اللفظة الموجودة المانعة •

أما فى كتابه المفتاح المنشأ فلم يعفها واكتفى بأن دلك عليها بأشياء تتم عن فهمه لها فقال (وأما الاستعارة ، فهو أن نقول خرت الجبال الرجاك واستغنى النهار بشعاع البيض عن الشمس وجرى نهر الصياح حتى ملأ الأفق ، ولقد أحسن ابن الطثرية فى قوله :

ولما قضينا من منى كل حاجة . : ومسح بالاركان من هو ما سمح
وشدت على دهم المهادى رحالنا . : ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا باطراف الاحاديث بيننا . : وسالت بأعناق الطى الاباطح (٣٤)

(٣٢) الجامع الكبير ص ٨٣ •

(٣٣) المثل ج ١ ص ٣٦٥ •

(٣٤) المفتاح المنشأ ص ٣١١ •

وفهمه وتعريفه للاستعارة مقبولان خاصة تعريفه لها لأنه قريب من واقع الاستعارة خاصة بعدما استلزم القرينة المانعة ، وقد حدد أركان الاستعارة فاشتراط أنه لا بد للاستعارة من ثلاثة أشياء :

١ — المستعار •

٢ — المستعار منه •

٣ — المستعار له •

فالمفهوم المستعار هو الذى قد نقل من أصل الى فرع بهدف التوضيح والابانة ، أما الطرفان أى المستعار منه والمستعار له فهما لفظان حمل أحدهما على الآخر فى معنى من المعانى ، وهذا المعنى المأخوذ أو المحمول حقيقى ومجازى فى وقت واحد فهو حقيقى بالنسبة للمأخوذ منه ، مجازى للمحمول اليه ، فمثلا قوله تعالى :

« واشتعل الرأسى شييا » فالاشتعال هو المستعار ، وهو خاص بالنار فنقل الى الشيب بهدف الابانة ، فالاشتعال للنار حقيقة ، وللشيب مجاز ، وبذا تصير النار مستعارا منه ، والشيب مستعار له ، ومن ثم توجب أن تكون ثمة مناسبة بين المستعار منه ، والمستعار له ، اذ لو افتقدت هذه المناسبة لعسر فهمها (ان الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له ، فانها لا تجيء الا ملائمة مناسبة ، ولا يوجد فيها مباينة ، ولا تباعد لأنها لا تذكر مطوية الا لبيان المناسبة بين المستعار منه والمستعار له ، ولو طويت، ولم يكن هناك مناسبة بين المستعار منه والمستعار له لعسر فهمها

ولم يبين المراد منها (٣٥) • ولما كانت الاستعارة قائمة على التشبيه فانه آلى على نفسه الا أن يبين الفرق بينها وبين التشبيه المضمحل الاداة ، غير أنه يتمحل فى هذا التفريق ، فيقول فى المثل ان الفرق بين التشبيه مضمحل الاداة ، والاستعارة (أن التشبيه المضمحل الاداة يحسن اظهار اداة التشبيه فيه ، والاستعارة لا يحسن ، وعلى هذا فان الاستعارة لا تكون الا بحيث يطوى ذكر المستعار له الذى هو المنقول اليه ، ويكتفى بذكر المستعار الذى هو المنقول) (٣٦) •

ومن حيث الطى فنعم ، أما من حيث الاداة فلا لأنه نسي أو تناسى القرينة المانعة من ارادة المعنى الاصلى للكلام ، فعندما مثلنا بالمثل السابق : رأينا أسدا يخطب فى الناس ، فان لفظه يخطب معنت من ارادة الاسد على حقيقته ، وتحقق أن يكون هذا استعارة لاتشبيهها •

ولسنا أيضا نوافقه فى ادعائه بأن قول الشاعر :

فرعاء ان نهضت لحاجتها : عجل القضيبي وابطأ الدعص

تشبيه ، أى عجل قد كالقضيبي : وأبطأ ردف كالدعص ، ويراه من قبيل قولنا زيد أسد ، فكلاهما تشبيه مضمحل الاداة بدليل

(٣٥) المثل السائر ج١ ص ٢٨٣ •

(٣٦) المثل السائر ج١ ص ٣٥٧ •

استحسان دخول الاداة عليهما دون ذلك أو ذهاب لفصاحة الكلام ، ونحن لو وافقنا معه ورددنا الاداة في المثال الثانى لجاز لأنه فى الأصل تشبيه حذف أداته ووجه شبهه فنقول زيد كالاسد دون أن نحذف أو نضيف شيئاً بعد ذلك ، فلو طبقنا هذا على كلامه لاحتجنا الى المشبه مرة ثانياً وهو القدر والردف فيستحيل الكلام الى تشبيهه ويبعد عن الاستعارة ، وهذا مما يؤخذ على ابن الاثير (٣٧) فهذا من التشبيه وليس من الاستعارة فى شئ وليس هذا هو التخليط الوحيد فى الاستعارة ، فان ما عده من التشبيه المضر الاداة عنوة وقهراً فى كتابه المثل وسخف به الراى الآخر لأنه كان يناقش لأجل المناقشة فقط ، عاد واعتبره من أجود الاستعارات فى كتابه الجامع .

فيقول : ومن محاسن التشبيهات قوله تعالى ... ومن هذا الاسلوب قوله تعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » ... وهذا تشبيه فى غاية الحسن ، وكذلك ورد قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » (فهذه أوصاف أربعة جامعة بين المشبه والمثبه به) (٣٨) .

ويقول أيضاً : (ومما أورده ابن سنان فى كتابه الموسوم ببسر الفصاحة قول امرئ القيس فى صفة الليل :

فقلت له لا تمطى بصلبه . وأردف أعجاز وناء بكل

(٣٧) انظر المثل ج١ ص ٣٥٧ : ص ٣٦٠ .

(٣٨) انظر المثل السائر ج١ ص ٤٠٠ وقد درسه ضمن باب التشبيه المضر الاداة .

وهذا البيت من التشبيه المضمّر الأداة (٣٩) •

وكل هذه الأمثلة للاستعارة وليست من التشبيه فى نىء ،
والدليل على ذلك بالاضافه الى دراستنا المتقدمه فى التشبيه ،
اعترافه هو نفسه فى كتابه الجامع الكبير فقال عن قوله تعالى :
(واشتعل الرأس شيبا) ، (فهذا مستعار ، ومستعار منه ومستعار
له ، فالمستعار هو الاشتعال ••• وأما المستعار منه فهو النار
والاشتعال لها حقيقة ، وأما المستعار له فهو الشيب والاشتعال
مجاز) (٤٠) •

وعن قوله تعالى : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار) فبعد
أن أجرى الاستعارة علق قائلا (فانظر أيها المتأمل لهذه الاستعارة
شدة التناسب الذى بينها وبين ما استعيرت له ، ومشابهتها اياه ،
فانها من الاستعارات التى لا أمد فوقها فى الحسن) (٤١) • أما
بيت امرئ القيس فبعد أن أورد رأى الأمدى ، وابن سنان الخفاجى ،
وأكد أنها استعارة علق قائلا (وذلك من الاستعارات المناسبة التى
لا أمد فوقها فأعرفها) (٤٢) • وكما خلط بين التشبيه المضمّر الأداة
والاستعارة ، خلط أيضا بين القناية والاستعارة ، فعد أشياء من
الاستعارة وهى من صلب الكناية من ذلك على سبيل المثال : قول

(٣٩) انظر المثل السائر ج ١ ص ٣٨٤ •

(٤٠) الجامع الكبير ص ٨٤ •

(٤١) الجامع الكبير ص ٨٤ •

(٤٢) الجامع الكبير ص ٨٨ •

الرسول ﷺ (« أما انكم لو أكثرتم من ذكرها ذم اللذات لشغلكم عما أرى ») وهاذم اللذات أراد به الموت ، وهو مطوى الذكر (٤٣) فهذه كناية عن موصوف وليست استعارة كما ذهب .

كما أورد للاستعارة أيضا قول الشاعر مسكين الدارمي :

لحافى لحاف الضيف والبيت بيته . : ولم يلهنى عنه غزال مقنع
أحدثه ان الحديث من القرى . : وتعلم نفسى انه سوف يهجع
وعلق عليه قائلا (فالغزال المقنع هنا استعارة للمرأة
الحسنة) (٤٤) .

وهذا أيضا ليس من الاستعارة بل هو كناية عن موصوف وهو المرأة الحسنة . ولكن ليس معنى هذا أنه لم يقدم شيئا عن الاستعارة ، بل يكتفية ما قدم بجانب هذه الأمثلة العديدة للاستعارة (٤٥) سواء من أقواله أو من أقوال الآخرين بالاضافة الى تقسيمه الاستعارة الى جيدة مناسبة ، وغير مناسبة (٤٦) وقد اقام الجيدة وغير الجيدة منها على القرب أو التباعد بين المستعار منه والمستعار له ، وهذا يدل على ذوق وبصر بالاستعارة . من ذلك ما أورده فى كتابه المفتاح المنشأ فقد أورد فيه نوعا عرف باسم المماثلة ، وقال عنه انه

(٤٣) المثل السائر ج١ ص ٣٧٥ .

(٤٤) لمثل السائر ج١ ص ٣٧٦ .

(٤٥) المثل السائر ج١ ص ٣٧٤ وما بعدها ، والجامع ص ٨٢ وما بعدها

(٤٦) الجامع الكبير ص ٨٤ ، ص ٨٨ .

ضرب من الاستعارة لانه فعلا قائم عليها فيستعار فيه تسيء لشيء
آخر كقول زهير :

ومن يعص أطراف الزجاج فانه . : مطيع العوالي ركبت كل لهزم (٤٧)

فالزجاج لا تعصى ، والرماح لا تطاع ، وانما يفعل ذلك مع
حاملها * ويرى تقديره أن من لم يرض بأحكام الصلح رضى
بأحكام الحرب والذي يتحكم هو الانسان المحارب لا الحرب
نفسها *

الكناية والتعريض

من المعروف أن الكناية هي استخدام لفظ ويراد به لازم معناه
الحقيقى لقريئة غير مانعة من ارادة المعنى الحقيقى مع المعنى المراد،
وذلك مثل قوله تعالى : (ويوم يعص الظالم على يديه) نقول ان فى
هذه الآية كناية فعص اليمين لم يقصد على حقيقته وهو العص ،
وانما اريد ما يلزم العص ، وهو الندم على فوات محبوب أو مأمول
غير أن عص اليمين على الحقيقة ليس ثمة ما يمنع من جواز ارادته
أيضا اذا المعروف ان الانسان النادم غالبا ما يعص على يديه أسى
وحزنا ، وهذا معنى قولهم لقريئة غير مانعة من ارادة المعنى
الحقيقى مع المعنى المراد ، وبهذا تختلف الكناية عن الاستعارة
والمجاز المرسل اد القرينه فيهما مانعة من ارادة المعنى الحقيقى *

ويقسم البلاغيون الكناية الى ثلاثة أقسام باعتبار المكنى عنه •

(أ) كناية صفة : وفيها يصرح المتكلم بالموصوف وصفة ليست هى المرادة بل تستلزم الصفة المرادة مثل : محمد كثير الرماد رفيع العماد •

(ب) كناية عن موصوف : ويصرح فيها بالصفة التى تختص بالموصوف الذى لا يذكر مثل قوله تعالى : « وحملناه على ذات الواح ودر » •

(ج) كناية عن نسبة : فتذكر نسبة غير مرادة لكنها تستلزم النسبة المرادة مثل قولنا : المجد يمشى فى ركاب على •

والهدف من استعمال الكناية هو الوقوف على الحقيقة المدعومة بالبرهان ، أو إبراز المعنى فى صورة حسية ، أو أداء المعنى باللفاظ لا يمجها الذوق ولا ينفرد منها السمع •

هذه صورة موجزة للكناية عند البلاغيين ، والسؤال الآن كيف درسها ابن الأثير ؟ انم ن يقرأ كتب الرجل سوف يراه درسها كما درس الاستعارة قبلها بسورة بسيطة لا عمق فيها ولا غور ، وكأننا به استفرغ جعبته واستنفذ طاقته فى فن التشبيه ، نقول درسها ، ولكنه لم يقسم ولم يفصل ، وان قسم تقسيمات بمسميات بعيدة عما تعارف عليه البلاغيون • غير ان حدها عنده يدل على فهم بها ، ومما يحمد له تفريقه بين الكناية والتعريض ، اذ المعروف الشائع أن التعريض غرض من أغراضها ، لكنه فرق بينهما تفريقا

وجيها كما سوف نعرض وقد عرف ابن الاثير الكناية فقال : (انها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبى الحقيقة والمجاز ، بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز) (٤٨) أو هي بايجاز : أن يذكر المتكلم شيئاً ، ويقصد به سواء (٤٩) وهذا دليل على أن المستخدم للكناية عندما يتكلم فان كلامه يدل على ما تكلم به ، وعلى ما أراد من غيره فهو قد استخدم الالفاظ على الحقيقة ، لكنه يريد ما تحتها من معان مجازية ، وهذه المعانى المجازية هي التى وردت فى تعريف البلاغيين وعرفت عندهم بالازم المعنى وليس هناك مانع من ارادة الحقيقة والمجاز ومن ثم يقول ابن الأثير (وكل موضع ترد فيه الكناية فانه يتجاذبه جانباً حقيقة ومجاز ، ويجوز حمله على كليهما معا) • وبهذا تتفوق الكناية عن التشبيه من ناحيه ، وعن الاستعارة من ناحية أخرى • فأما وجه الفرق بين الكناية والتشبيه ، أن الكناية يجوز أن يقصد بها الحقيقة ، كما يقصد بها المجاز ، فهي تحمل على الجانبين معا ، أما التشبيه ، فانه لا يجوز حمله الا على جانب المجاز خاصة • اذا لو أردنا المعنى الحقيقى مع المعنى المجازى لفسد المعنى واستحال ، فعند ما نشبه زيدا بالاسد ونقول زيد أسد ، فأننا لا نقصد من وراء هذا التشبيه الا المعنى المجازى من حيث الشبه بينهما فى القوة والشجاعة أو غير ذلك ، أما فى الناحية الحقيقية فلا لأننا (لو حملناه على جانب الحقيقة لاستحال المعنى لان زيدا لبس ذلك الحيوان ذا الاربع والدنب والوبر والأنياب والمخال) (٥٠) •

(٤٨) المثل السائر ج٢ ص ١٩٤ وانظر الجامع الكبير ص ١٥٧ •

(٤٩) المفتاح المنشا ص ٣١٢ •

(٥٠) المثل السائر ج٢ ص ١٩٣ •

وثمة فروق بينها وبين الاستعارة أيضا ، فالكناية جزء من الاستعارة لأنها تنأتى على حكمها اذ الاستعارة لا بد أن يطوى فيها ذكر المستعار له ، وكذا الكناية لا بد أن يطوى ذكر المكنى عنه ، فتكون النسبة بينهما نسبة خاص الى عام فكل كناية استعارة لوجود جانب المجاز وليس كل استعارة كناية لوجود جانب الحقيقة •

كما أن الاستعارة لفظها صريح ، والكناية بخلاف ذلك لأنها عدول عن ظاهر اللفظ • هذا بالاضافة الى جانب الحقيقة والمجاز فى الكناية ، فتكون الكناية بجانب المجاز جزء من الاستعارة والاستعارة جزء من المجاز (فتكون نسبة الكناية الى المجاز نسبة جزء الجزء ، وخاص الخاص) (٥١) •

وبعد هذا العرض نقول انه قسم الكناية الى أقسام ، لكنها غير أقسام البلاغيين فيقسمها الى ضربين : أحدهما يحسن استعماله والآخر ضده أى يقبح استعماله ، وقسم ما يحسن استعماله الى أربعة أقسام (٥١) ، كما قسم الأرداف الى خمسة أقسام

(٥١) المثل السائر ج٢ ص ١٩٧ •

(٥٢) هذا التقسيم ورد فى الجامع الكبير ص ١٥٧ أما فى كتابة المثل السائر فقد قسمها الى ثلاثة أقسام : تمثيل وارداً ومجاورة والرابع من كتابه الجامع وهو ما ليس بتمثيل ، ولا ارداف ولا مجاورة كما أن الارداًف يكون عنده أحياناً ، كناية عن صفة ، وأخرى عن موصوف •

الاول : التمثيل : وهو أن ترد الإشارة الى معنى ، فيوضع لفظ لمعنى آخر ، ويكون ذلك مثالا للمعنى الذى أريدت الإشارة اليه والعبارة عنه ، مثل فلان نقى الثوب ، أى منزّه عن العيوب ، أو كقوله تعالى : (أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) فان الأول كناية عن صفة هى الطهر ، والثانية عن الغيبة والنميمة ، فان الكناية فى هذه الآية على طريق التمنيـل كما يقول ابن الاثير (فانظر أيها المتأمل لهذا التمثيل كيف مطابقتة لما مثل به تجده من أبلغ التمثيلات وأندرها مثلا فتتمزيق العرض ، مثل أكل الانسان لحم من يعتابه ، لان ذلك تمزيق على الحقيقة ، وجعل بمنزلة لحم الاخ لأجل المبالغة فى الكراهة . والميت لا متنازع الاحساس به واتصال ما هو مستكره بالمحبة لما فى طبع الأنفس من الشهوة للغيبة والميل اليها) (٥٣)

الثانى الاردا ف : وهو ان ترد الإشارة الى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ويكون ذلك من لوازم — رادفا — المعنى الذى أريدت الإشارة اليه على الحقيقة ، وهذا بخلاف القسم السابق فى قولنا فلان نقى الثوب أى منزّه عن العيوب ، لان نقاء الثوب على الحقيقة لا يلزم النزاهة من العيوب بخلاف كناية الاردا ف عندما نقول محمد طويل النجاد ، فان طول النجاد هذا لا بد أن يكون حقيقة لمعنى آخر وهو طول القامة .

وأقسام الازداف خمسة وهى :

١ — فعل المبادهة : ويكنى به عن عدم التثبيت قبل اصدار الحكم كناية عن سفاهة الرأى كما يذهب ويمثل له بقوله تعالى : « ومن أظلم من افترى على الله كذبا وكذب بالحق لما جاءه » فقوله تعالى : « لما جاءه » كناية عن سفاهة رأيه أى أنه لم يتوقف تكذيبه وقت ما سمعه ، ولم يتثبت كما يتثبت أو لوا الرأى والتدبر حتى يتضح الصدق من الكذب (٥٣) •

٢ — النوع الثانى من الازداف وهو باب « مثل » وكانت العرب تأتى بهذه الصيغة فى هذا الموضع توكيدا للكلام وتثبيتا لأمره (يقول الرجل اذا نفى عن نفسه القبيح « مثلى لا يفعل هذا » أى أنا لا أفعله فنفى ذلك عن مثله وهو يريد نفيه عن نفسه قصدا للمبالغة فسلك به طريق الكناية ، لانه اذا نفاه عن يماثله أو يشابهه فقد نفاه عنه لا محالة) (٥٤) •

٣ — وهو ما يأتى فى جواب الشرط كقوله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث » فكنى بقوله (فهذا يوم البعث) عن بطلان كذبهم وانكارهم لذلك اليوم (وذلك ارداف له ، ونظيره قولك تتكر حضور زيد فيها هو زيد ، أى فأنت كاذب ، وهذا من دقائق الكناية فاعرفه) (٥٥) •

(٥٣) الجامع الكبير ص ١٦٠
 (٥٤) الجامع الكبير ص ١٦١
 (٥٥) الجامع الكبير ص ١٦٢

٤ — وهو الاستثناء غير الموجب كقوله تعالى (ليس لهم طعام الا من ضريع) والضريع لا يأكل أصلاً ، فكفى به عن عدم الاطعام ، فذكر الضريع رادف لانتفاء الطعام •

٥ — والنوع الخامس هذا ليس فيه شيء مما تقدم ، من الاثماء الاربعة المذكورة ويمثل له بقوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » (والمعنى المراد من هذا الكلام : أنك أخطأت ، وبئسما فعلت ، وقوله أذنت لهم بيان لما كنى عنه بالعفو أى مالك أذنت لهم وهلا استأنيت ؟ فذكر العفو دليل على الذنب ورادف له ، وان لم يذكره) (٥٦) •

والقسم الثالث من الكناية هو المجاورة : وهو أن يذكر فى الكلام شيء ، فيترك ذكر هذا الشيء الى ما جاوره ، ويقتصر عليه اكتفاء بدلالته على المعنى المستهدف •

كقول عنتره :

وشككت بالرمح الاصم ثيابه . . . ليس الكريم على القنا بمحرم

فيعلق على هذا البيت قائلاً (أراد بالثياب هاهنا نفسه ، لأنه وصف المشكوك بالكرم ولا توصف الثياب به ، فتبت حينئذ أنه أراد ما تشتمل عليه الثياب وفى ذلك من الحسن ما لا ينكره العارف بهذه الصناعة) (٥٧) •

(٥٦) الجامع الكبير ص ١٦٣ •

الجامع الكبير ص ١٦٤ وانظر المثل السائر ص ٢٠٠ ج ٢ •

أما القسم الرابع فقد عرفه بأنه ما ليس بتمثيل ولا ارداف ولا مجاوره ، ويضرب له مثلا قوله تعالى (أو من ينتأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) فكأنى بذلك عن النساء لأنهن ينتأن في الزينة والنعمة ، أما في الخصومة والمجادلة والمحااجة فانهن لا يستطعن المحااجة والخصومة +

ومنه قول أبى نواس :

نقول التي خفن بيتها محملى .: عزيز علينا أن نراك تسيير

وبعلق على ذلك (ألا ترى الى حسن هذه الكناية عن ذكر امرأته بقوله « التي من بيتها خف محملى » فانه من ألطفها مذهباً) (٥٨) •

وعريب حقا هذه القسمة وتلك الاقسام من ابن الاثير الذي نسي انه ناقشها مناقشة مستفيضة في كتابيه المثل والجامع الا أنه بعد صفحات قليلة — وبعد هذا الحماس في المناقشة خراميعترض على هذا التقسيم في كتابه المثل السائر فقط فيقول (وهذا التقسيم غير صحيح لان من شروط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصا بصفة خاصة تفصله عن عموم الاصل) فيعترض على التمثيل ، ويرى أن قوة المناسبة بين الكناية والمكنى عنه أفضل وخاصة اذا كان في الالفاظ المركبة ، أما اذا كان في الالفاظ المفردة فان المناسبة والمثابة تكون ضعيفة ولذا عاب هذا النوع من الكناية قائلا : (وهذا الذي ذكر من أنه من الكناية تمثيلا وهو كذا وكذا غير سائق ولاوارد، بل

الكناية كلها هي ذاك (٥٩) ، وبرغم ما فى هذا الرفض من إبهام
الا أننا أيضا لا نستطيع منه هذا التقسيم الذى رفضه فى المثل ،
وأيدته فى الجامع ، بل تحمس وناقش ومثل ووصف بالانداع والحسن
على عادته فى التخييل بين الأشياء لأننا لو تدبرنا الأقسام الأربعة
لوجدناها لا تعدو الأقسام الثلاثة التى قسمها علماء الكناية لها ،
فبدراسته تحليليه لأمنلته التى أوردتها نستطيع القول بأن القسمين
الاول والثانى ، أى التمثيل والارداف هما كناية عن صفة *

والقسم الثالث : مريب جدا من الكناية عن نسبة ، أما القسم
الرابع فهو كناية عن موصوف ، وان كان قد خلط أيضا بين هذه
الأقسام الثلاثة فنداح بعضها مع بعض ، لكن مما يحمده أنه
نبيه الى الكناية الحسنه ومثل لها ، وبالكناية الرديئة وحللها ومثل لها،
منه فى ذلك مثل باقى البلاغيين (٦٠) *

وقدما درس الكناية غمانه أيضا درس التعريض وعرفه بأنه
(اللفظ الدال على التسمية من طريق المجهول ، لا بالوضع الحقيقى
ولا المجازى) (٦١) • أى أن المقصود يفهم من سياق الكلام وعرضه
مبجد المتكلم يعرض فى طلب نسيء ، ويدل على طلبه من غير ذكر
المطلوب (٦٢) ، ومن يم هو غير معتمد لا على الحقيقة ولا على المجاز،
وذلك دقول فقير أمام عنى ، والله انى لاحتاج وليس عندى نسيء،

(٥٩) المثل ص ٢٠٠ ج ٢ •

(٦٠) المثل السائر ج ٢ ص ٢٠٨ وما بعدها وانظر الجامع الكبير ص ١٥٧
وما بعدها •

(٦١) المثل السائر ج ٢ ص ١٩١ والجامع ص ١٥٧ •

(٦٢) المفتاح المنشا ص ٣١٣ •

وأنا عريان أتأذى من البرد فهو هنا يعرض حالته ويعرض بها ،
وقد فهم ما يقصده من سياق الكلام وهذا بخلاف « يوم يعرض الظالم
على يديه » الموضوع كناية عن الندم كما وضحنا سلفا ، ولذا نراه
يفرق بين الكناية والتعريض •

فالتعريض أخفى من الكناية ، لان دلالة الكناية لفظية وضعية
من جهة المجاز • عكس دلالة التعريض لانها من جهة المفهوم لا
بالوضع الحقيقي ولا المجازى •

كما أن التعريض سمي بهذا الاسم لان المعنى المقصود يفهم
ميه من عرصه ، عكس الكناية فهي مشتقة من الستر • فيقال كُتِيت
النساء اذا سترته ، واجرى هذا الحكم فى الالفاظ التى يستتر فيها
المجاز بالحقيقه فتكون دلالة على الساتر والمستور معا (٦٣) •

كما أن الكناية تشمل اللفظ المفرد والمركب معا ، فتأتى على
هذا وعلى ذلك بخلاف التعريض فانه مخصص باللفظ المركب ولا يأتى
فى اللفظ المفرد أبدا ، ويفهم من جهة التلويح والاشارة ، وذلك
لا يستقل به اللفظ المفرد فيحتاج فى الدلالة عليه الى اللفظة المركب •
وذلك كقول الرجل العزب لامرأة عزباء . انك لخليه وانى لعزب •
ويضرب بعد ذلك مجموعة من الأمثلة (٦٤) سواء من القرآن الكريم
أو الاحاديث النبوية الشريفة أو مما استعماله هو فى رسائله ، ولكن
يكفى من القلادة ما أحاط بالعنق فنورد مثالا له ونورد أيضا كيفية
تحليله لهذا المثال •

(٦٣) المثل السائر ج٢ ص ١٩٥ •

(٦٤) المثل ج١ ص ٢١٢ : ص ٢١٥ والجامع ص ١٦٦ وما بعدها •

يقول : (فمما جاء منه — أى من التعريض — قوله تعالى :
« قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم ، قال بل فعله كبيرهم
هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون » وغرض ابراهيم صلوات الله
عليه من هذا الكلام اقامة الحجة عليهم ، لانه قال « فاسألوهم ان
كانوا ينطقون » وذلك على سبيل الاستهزاء ، وهذا من رموز الكلام ،
والقول فيه أن قصد ابراهيم عليه السلام لم يردبه نسبة الفعل
المصادر عنه الى الصنم ، وانما قصد تقريره لنفسه ، واثباته على
اسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من الزام الحجة عليهم والاستهزاء
بهم ، وقد يقال فى هذا غير ما أشرت اليه وهو أن كبير الاصنام
غضب أن تعبد معه هذه الاصنام الصغار فكسرها ، وغرض ابراهيم
عليه السلام من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله تعالى من هودونه
فان من دونه مخلوق من مخلوقاته ، فجعل احالة القول الى كبير
الاصنام مثالا لما أراد (٦٥) * وعلى هذا المنوال حلل باقى الامثلة
التي أوردها باستثناء بعض العبارات التي يزخرف بها كلامه من
مثل : وهذا من التعريضات اللطيفة أو من خفى التعريض وغامضه ،
أو هو من التعريض المعرب عن الأدب ، أو من أحسن التعريضات
أو من بدیع التعريض ، أو من مشكلات التعريض وما شابه ذلك (٦٦)
ولولا خسية الاطالة لاوردنا العديد من مثل هذه الامثلة وتحليلاتها ،
لكنها جميعا لا تخرج عن المثال سالف الذكر .

(٦٥) المثل السائر ج١ ص ٢١٢ وما بعدها .

(٦٦) الجامع الكبير ص ١٦٦ وما بعدها .

ثالثا : دراسات ابن الأثير

لفن البديع

رأينا فى الصفحات السابقة دراسة ابن الأثير لعلمى المعانى والبيان ، والآن سوف نعرض لدراسة ابن الاثير لثالث الثلاثة وهو علم البديع .

ونود أن نقول اذا كان علم المعانى يبحث فى صميم المعنى المراد ، من حيث مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وعلم البيان يبحث أيضا فى صميم المعنى المستهدف عن طريق أدائه بأساليب مختلفة واضحة بعد مراعاة شروط المعانى ، فان علم البديع يبحث فى اخراج هذا المعنى فى صورة مدبجة جميلة ، ولذا سمي بالمحسنات البديعية . ومن ثم ارتبطت العلوم الثلاثة ببعضها بعضا لان كل منها يكمل الآخر ، ولذا فان الكلام اذا كان غير مطابق لمقتضى حال السامع ، أو كان خفى الدلالة صار البديع كقلادة علقت فى جيد خنزير .

ومن هنا فان تعريف البلاغيين لعلم البديع بعد ، لم يأت من فراغ ، فعندما قالوا عن حد البديع : هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة (١) ، فقد اشترطوا فى تعريفه رعاية المطابقة ، ووضوح الدلالة ليتحرز بذلك عما يكون داخلا فى البلاغة مما يتبين فى علوم المعانى والبيان واللغة والنحو والصرف ، فسوف يدخل فى وجوه التحسين ما ليس من المحسنات التابعة لبلاغة الكلام كخلوه من التنافر ، اذن فلا يجوز

(١) الايضاح ص ١٩٢ .

أن يراد بوجوه التحسين ، المفهوم الشامل الأعم لها (بل تقول لا يخرج منها الا مطابقة مقتضى الحال والخلو عن التعقيد مطلقا بأن يجرى وضوح الدلالة أيضا على مفهومه المتبادر ، فيبقى الخلو عن التنافر بين الحروف أو الكلمات والخلو عن مخالفة القياس ، والخلو عن ضعف التاليف كلها مندرجه فيها مع أنها ليست من علم البديع ، وأما الخلو عن الغرابة فيمكن ادراجه فى وضوح الدلالة (٢) *

ومهما يكن من امر ، فان المحسنات البديعه تنقسم الى قسمين قسم راجع الى المعنى ، واخر راجع الى اللفظ ، وهذا هو ما عليه علماء البلاغة .

اولا المحسنات المعنوية

وهى التى يرجع التحسين فيها الى المعنى ، وان كان بعضها لا يخو من تحسين اللفظ وذلك مثل *

الطباق والمقابلة

الطباق عند أهل البلاغة هو أن يجمع المتكلم فى كلامه بين معنيين متقابلين فى جملة واحدة ، وقد سموه بالمطابق أو المطابقة ، أو التضاد لما فيه من جمع بين متضادين ، غير أن ابن الأثير يرفض هذه التسمية ، فيدمج الطباق فى المقابلة ويجعلها بابا واحدا ، ويعلل ذلك بأن المقابلة قد تكون بين الشيء وضده ، أو بين الشيء وما ليس بضده (٣) *

-
- (٢) الايضاح شرح محمد عبد المنعم خفاجى ج٦ ص ٥٤، الهامش *
- (٣) المثل السائر ج٢ ص ٢٨٠ وقد عرف الطباق فى المفتاح الانشا لحديقة الانشا : بأنه الجمع فى سجة أو سجتين بين ضدتين أو اكثر انظر ص ٣١٠ *

وهذا التعريف قريب من تعريف المقابلة ، وهى الاتيان بمعنيين متوافقين ، أو معان متوافقه ، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب ، فاذا كان الطباق بين الألفاظ المفردة فان المقابلة تكون بين الالفاظ المركبة ، فليس ثمة فروق جوهرية ، بالاضافة الى أن القاسم المشترك الأعظم بينهما هو التقابل بين صدر الكلام وعجزه والدليل على ذلك دراسته للطباق وتعريفه فى كتابه المفتاح المنشا حيث قال عنه هو الجمع فى سجة أو سجتين بين صدين أو أكثر ، ومثل له بقول جرير :

وباسط خير فيكم بيمينه . : وقابض شسر عنكم بشمالها

فقد جمع بين البسط والقبض ، والخير والشر (٥) .

ألا أن كلمة أكثر فى هذا التعريف أخرجت الطباق وجعلته فى حيز المقابلة التى هى الجمع بين أكثر من معنيين متوافقين، وعلى هذا فالبيت يتمثل به للمقابلة التى درسها فى هذا الكتاب على أنها قسم قائم برأسه وعلى الرغم من ذلك فان كلامه عنها يقترب من كلامه على الطباق فقال عنها هو أنه تأتى فى سجة أو سجتين أن فلانا فيه ما يسر الصديق ، وفيه ما يسوء العدو ، وينبغى الأولياء ، ويفقر الاعداء ومثل له بقول النابغة الجعدى :

فتى تم فيه ما يسر صديقه . : على ان فيه ما يسوء الاعاديا (٥)

(٤) المفتاح المنشا ص ٣١١ .

(٥) المفتاح المنشا ص ٣١١ .

وهذا البيت يتساوى مع البيت الذى مثل له بالمطابق وعلى هذا يكون الطباق عند ابن الاثير داخل فى حيز المقابلة فصار قسما من أقسامها كما سوف نرى •

أقسام المقابلة عنده

تنقسم الى :

- (أ) مقابلة الشئ بضده •
- (ب) مقابلة النسيء بما ليس بضده •

(أ) مقابلة الشئ بضده ويقسمه أيضا الى :

١ — مقابلة فى اللفظ والمعنى ، وقد تكون هذه المقابلة بين لفظين مفردين كما تكون بين الألفاظ المركبة ، وكما أسبق أن أشرت ، فانه أدمج بهذا الطباق فى المقابلة وجعلهما شيئا واحدا ، فأما مثال اللفظ المفرد قوله ﷺ « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » •

أما الألفاظ المركبة ، وهى التى يتعدد فيها التقابل بين لفظين أو أكثر وما يقابلها ، كقوله تعالى (فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيرا) فقابل بين الضحك والقلّة والبكاء والكثرة على الترتيب ، كما مثل لمقابلة ثلاثة بثلاثة وأكثر من ذلك (٤) وهذه هى المقابلة المعروفة من القسم الاول •

(٤) المثل السائر ج٢ ص ٢٨٣ وما بعدها •
والجامع الكبير ص ٢١٣ •

٢ — المقابلة فى المعنى دون اللفظ ، وهى تختلف عن الاولى،
التي تكون الالفاظ فيها واضحة غير محتاجة الى تأويل لكى يتوصل
عن طريقها الى المقابلة وقد مثل لذلك ابن الاثير بقول المقنع الكندى
من شعراء الحماسة :

لهم جل مالى ان تتابع لى غنى . : وان قل مالى لم اكفلهم رفدا

وقد قابل بين « تتابع لى غنى » و « قل مالى » وذلك عن
طريق تأويل التتابع ، بالكثرة ، فتكون المقابلة بين كثر مالى المؤولة
عن « تتابع لى غنى » وبين « قل مالى » فهذه مقابلة معنوية كما
يقول ابن الاثير (فاذا ترك المفرد من الالفاظ ، وتوصل الى مقابلة
بلفظ مركب كان ذلك مقابلة من جهة المعنى لا من جهة اللفظ ، كقول
الشاعر « تتابع لى غنى » فى معنى كثر مالى ، وهذه مقابلة معنوية
لا لفظية) (٥) وبهذا ينهى قسمه الاول من المقابلة التى هى مقابلة
الشيء بضده .

**(ب) مقابلة الشيء بما ليس بضده وتنقسم أيضا عنده الى
قسمين :**

أحدهما أن لا يكون مثلا ، أى غير مماثل له .

والآخر أن يكون مثلا أى مماثلا له فى اللفظ .

والضرب الاول وهو أن لا يكون مثلا وهو ما يعرف فى الملحق
بالطباق بتعلق السببية ، أو تعلق اللزوم ، وهو الجمع بين معنيين

يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق ، وليس بينهما تناف ، بل
يجتمعان ، ومن ثم يمتاز عن الطباق ، ولذا فإن ابن الأثير قد قسم
هذا القسم الى نوعين :

النوع الأول : ما كان بين المقابل ، والمقابل نوع مناسبة وتقارب
وهذا هو القسم الاول مما عنياه سلفا بتعلق السببية ، ومثل له
بقول قريط بن أنيف :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة :: ومن اساءة أهل السوء احسانا

وليس الظلم مقابل للمغفرة ، بل المقابل له هو العدل ، ولكن
كانت المغفرة مسببة عن العدل وقريبة منه فحسنت مقابلة الظلم
بالمغفرة ، وعلى هذا جاء قوله تعالى (أشداء على الكفار رحماء
بينهم) فإن الرحمة مسببة عن اللين الذى هو ضد الشدة ولذا علق
على هذا بقوله (فإن الرحمة ليست ضدًا للشدة ، وإنما ضد الشدة
اللين ، الا أنه لما كانت الرحمة من مسببات اللين حسنت المقابلة
بينها وبين الشدة) (٦) *

النوع الثانى : هو ما كان بين المقابل والمقابل به بعد ، ورأى
أنه مما لا يحسن استعماله ، وأنه قد ورد كثيرا فى الاثعار العربية،
وهو ما عرفناه سلفا بتعلق اللزوم ، وليست ببعيدة — كما عبر ابن
الأثير لمن له تعلق بالبلاغة وعلومها واللغة ودلالاتها ، وجعلها الضرب

(٦) المثل السائر ج٢ ص ٢٩٠ .

الثانى من النوع الثانى وهى مقابلة الشئ مثله ، وهو ما عناه بالمثلية من قبل عندما قال أن يكون مثلا ، وعلى كل فانه قد مثل له بقول المتنبي

لن نطلب الدنيا اذا لم ترد بها . سرور محب أو اساءة مجرم

فقابل بين المحب والمجرم ، ولكن لما كان المبغض مجرما فى حق صديقه عبر عنه بالمجرم وذلك لان الاجرام من لوازم المبغض الكاره فتم التقابل بين المحب والمجرم لتعلق اللزوم بين المبغض والمجرم . وليس الأمر كما ذهب ابن الأثير عندما قال (ليس كل من أجرم اليك كان مبغضا لك) (٧) ، فما دام أجرم كان مبغضا .

وقد تناول ابن الأثير أثناء كلامه عن الطباق والمقابلة ، تناول المشاكلة كما تكلم عن الجمع مع التقسيم أيضا أثناء كلامه عنها ودمج فى ذلك ما يعرف باسم تشابه الاطراف ، ولذا وجب علينا الفصل بين هذه الأنواع ودراسة كل نوع على حده ونبدأ بالمشاكلة .

المشاكلة

وهى كما هو معروف عنها أنها ذكر الشئ بلفظ غيره وقت وقوعه فى صحبتته تحقيقا أو تقديرا ومن ثم فانها تختلف عن المقابلة اختلافا بينا ، ولذا نتعجب من وضع ابن الاثير لها ضمن المقابلة بل عدها ضربا ثانيا وقال عنها مقابلة الشئ بما ليس بضده وذلك

(٧) المثل السائر ج٢ ص ٢٩٢ .

بأن يكون اللفظ ممثلاً للفظ ، وبانتفاء الضدية تنتفى المقابلة
وتدخل المشاكلة يقول (الضرب الثانى : فى مقابلة الشئ مثله) (٨)
ولكن بدون تضاد ، ويفرعا الى فرعين :

أحدهما : مقابلة المفرد بالمفرد *

والآخر : مقابلة الجملة بالجملة ولا أرتضى له بأن يقول مقابلة
كذا بكذا ، اذا الأفصل التعبير بمشاكلة ومصاحبة المفرد للمفرد ،
ومصاحبة أو مجاوره الجملة للجملة *

الأول : أى مشاكلة ومصاحبه المفرد للمفرد وذلك مثل قوله
تعالى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا) فقد سمي الله سبحانه وتعالى
تدبيره لنجاة نبيه صالح عليه السلام من كيد قوم نمود والذين أرادوا
هلاكه هو وأهله « مكرا » مشاكلة لوقوعه فى صحبه مكر أعداء
نبيه لان المكر على حقيقته لا يصح أن ينسب الى الله تعالى عن ذلك
علوا كبيرا بمعناه الحقيقى اذ المكر تحايل لجلب الضرر الى الغير
وذلك ينبئ عن ضعف وخور تعالى الله عن ذلك *

ومثله أيضا مما أورده ابن الأثير — وان كان لم يفسره —
قوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) فجزاء السيئة العقوبة ،
فسميت العقوبة سيئة مشاكلة لوقوعها فى صحبه السيئة وقد ذكر
اللفظ الذى سمي النسئ باسمه فى هذين المثالين * النانى : وهوقائم
على المعنى دون اللفظ وعرفه بأنه مقابلة جملة بجملة ويقول : (أعلم
أنه اذا كانت الجملة من الكثر مستقبلة فوبلت بمستقبلة ، وان

كانت ماضية قوبلت بـماضية ، وربما قوبلت الماضية بالمستقبلية ،
والمستقبلية بالماضية اذا كانت احدهما فى معنى الأخرى (١) أى
أن تذكر الجملة الثانية كالجمله الاولى طالما هى فى صحبتها ،
وأحيانا تأتى على خلافها اذا كان المعنى يربطهما وذلك كقوله تعالى
(قل ان ضللت فأنما أضل على نفسى ، وان اهتديت فبما يوحي الى
ربى) فهذا من جهة المعنى (وبيان تقابل هذا الكلام من جهة
المعنى هو أن النفس كل ما عليها فهو بها ، أعنى أن كل ما هو وبال
عليها وضار لها فهو بسببها ومنها لأنها الامارة بالسوء وكل ما هو لها
مما ينفعها فبهدياية ربها وتوفيقه اياها) (١٠) *

التقسيم

حد التقسيم هو : ذكر متعدد ، بم يضاف الى كل فرد
من أفراد ما يخصه على جهة التعيين ، وينقسم الى قسمين :
١ — ذكر أحوال الشيء مضافا الى كل منها ما يليق به *
٢ — استيفاء اقسام الشيء بالذكر (١١) *

وقد عرفه ابن الأثير بقوله (وانما نريد بالتقسيم هنا
ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم

(٩) المثل السائر ج ٢ ص ٣٠٠ *
والجامع الكبير ص ٢١٤ *
(١٠) المثل السائر ج ٢ ص ٣٠١ *
(١١) الايضاح ص ٢٠٥ مثلا *

واحد ، واذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه ، ولم يشارك غيره
 فتارة يكون التقسيم بلفظة اما ، وتارة بلفظة بين كقولنا بين كذا
 وكذا ، وتارة منهم ، كقولنا منهم كذا ، ومنهم كذا ، وتارة بأن يذكر
 العدد المراد أولا بالذكر ثم يقسم + (١٢) ، وقد اشترط بعد هذا
 التعريف شرطا للتقسيم وهذا الشرط هو أن لا تتداخل أقسامه بعضها
 في بعض والافسد التقسيم + (١٣) كما اشترط ترتيب الألفاظ على
 المعانى حتى يكون جميع السجع متناسبا لفظا ومعنى (١٤) ، فاذا
 ذكر لفظ ألحق به ما يناسبه ، وهو بهذا التعريف قد تناول كل أقسام
 التقسيم وان كان فى كلامه عن ذكر العدد ما يتسعر بأنه الجمع مع
 التفريق والتقسيم كما سنرى . فمن ذلك قوله تعالى (تم أورثنا
 الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم
 مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات) فقد استوفت هذه الاية جميع
 الأقسام وأضاف لكل مذكور ما يليق به ، فأقسام العباد ثلاثة :
 اما عاص ظالم لنفسه ، واما مطيع مبادر بالخيرات واما مقتصد
 بينهما ، وقد تم التقسيم بلفظة منهم .

وكذا قوله تعالى (وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما
 أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون

(١٢) المثل السائر ج٢ ص ٣٠٥ .

(١٣) المثل السائر ج٢ ص ٣٠٩ .

(١٤) الفتح المنشأ ص ٣١٢ ومثل له بقول طريح :

ان حاربوا وضعوا او سالوا رفعوا . : او عاقدوا ضمنوا او حدثوا صدقوا

السابقون) وهذه الآية كسابقتها فى التخريج الا أنها تختلف ، فقد ذكر العدد المراد أولا ، ثم تم التقسيم بعد ذلك • ومنه قول الاعرابى الذى وقف على مجلس الحسن البصرى فقال : (رحم الله عبد أعطى من سعة ، أو آسى من كفاف ، أو أثر من قلة) فلما رآه الحسن البصرى قد استوفى جميع الأقسام قال : ما ترك لأحد عذرا (١٥) •

اللف والنشر

وقد تناوله أيضا ابن الأنير وأسماء بترتيب التفسير وما يصح منه وما يفسد ، واللف والنشر معروف عند البلاغيين بأنه ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الاجمال ثم ذكر ما لكل اليه من غير تعيين تقه بان السامع يردده اليه ، وذلك عن طريق انقراض اللفظية أو المعنوية المذكورة فى الكلام أو المدلول عليها بسياق الكلام • وقد يكون النشر على ترتيب اللف ، وقد يكون على غير ترتيبه وهو المعروف بالنشر المشوئ •

ويعرف ابن الأثير اللف والنشر بقوله (اعلم أن صحة الترتيب فى ذلك أن يذكر فى الكلام معان مختلفة ، فاذا عاد اليها بالذكر ليفسرها ، قدم المقدم ، وآخر المؤخر ، واذا لم يراع المؤلف ذلك كان مأخوذا عليه لانه يخل بشطر من الصناعة) (١٦) وهذا التعريف

(١٥) المثل السائر ج٢ ص ٣٠٧ •

(١٦) الجامع الكبير ص ٢٢١ وانظر المثل السائر ج٢ ص ٣١٥ •

قريب من التعريف السابق ومثل اذلك بقوله تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) * فقد ذكرت الآية المتعدد على جهة الاجمال نم ذكرت مالميل ، وما للنهار *

ومنه أيضا قوله تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار مبصرا ولتبتغوا من فضله) فلما قدم الليل في الذكر على النهار قدم سبب الليل وهو السكون ، على سبب النهار وهو التعايش *

ومما يجدر ذكره أن ابن الأثير كان بصيرا بمثل هذه الاساليب البلاغية وكان يدبج بها كتبه ، ولولا خنسية الاطالة لاوردنا الكثير مما كتب ، غير أننا نكتفى هنا بمثال له في هذا المضمار ، يقول (ولقد أوحشت منه المعالي كما أوحشت المنازل ، وآمت المكارم ، كما آمت الخلائل ، وعمت لوعة خطبه فما تشتكى ثكلى الا الى ثاكل وما أقول فيمن عدمت الارض منه حياها ، والمحامد محياها ، فلو نطق الجماد بلسان ، أو تصور المعنى لعيان ، لاعربت تلك عن ظمأ صعيدها ، وبرزت هذه حاسرة حول فقيدها) (١٧) *

وقد أورد كثيرا من الابيات الشعرية تمثيلا للنثر المشوش وذلك مثل قول الفرزدق :

(١٧) المثل السائر ج٢ ص ٣١٢ *

كيف أسلو وأنت حقف وغصن .: وغزال لحظا وردفا وقدا (١٨)

وقال ، هذا مما يؤخذ على الفرزدق .

كما أتى بأمثلة للنشر على ترتيب اللف وقال عنه ان ذلك فى عاية الحسن كقول القاضى الارجانى :

يوم الميتم فيك حول كامل .: يتعاقب الفصلان فيه اذا اتى
مابين حر جوى وماء مدامع .: ان حن صافوان بكى وجدا شتا^(١٩)

الاقتصاد والأفراط والتفريط

لقد درس ابن الاثير تحت هذا العنوان الوانا من الصناعة اللفظية والمعنوية وبعضها هو الأفراط الذى يقابل أحد أنواع المبالغة وهو الغلو ، بل ما قال عنه بأنه الاقتصاد ما هو الا غلو مقبول لاحتوائه على ألفاظ مثل يكاد ، أو كأن ، فيكون بذلك قد جمع تحت المبالغة قسمين من هذه الأقسام وهما الاقتصاد والأفراط ، أما بالنسبة للتفريط ، فان تعريفه له قائم على الملائمة والمناسبة بين معانى الكلام ومكانه ومن قيل له هذا الكلام : وهذا بعيد عن باقى أقسام المبالغة .

ويعرف الثلاثة قائلا (أما الاقتصاد فهو أن يكون المعنى المضمن فى العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه فى منزلته ، وأما التفريط

(١٨) الجامع الكبير ص ٢٢٣ .

(١٩) المثل السائر ج ٢ ص ٣١٣ وانظر الجامع الكبير ص ٣٢٢ .

والأفراط فهو أن يكون المعنى المضمن فى العبارة بخلاف ما يقتضيه منزلة المعبر عنه فاما انحطاطا دونها وهو التفريط ، واما تجاوزا عنها وهو الافراط (٢٠) ومن هذا التعريف يتضح أن رأى ابن الاثير فى التفريط هو أن يكون المعنى المتضمن فى العبارة يؤدى الى انحطاط منزلة الموصوف بها ومن ثم قبحه فقال (والتفريط فى ايراد المعانى الخطابية قبيح لا يجوز استعماله بوجه من الوجوه) (٢١) لأنه يؤدى الى الذم وليس للمدح فيه نصيب ، وقد ورد فى الشعر العربى الكثير من أمثال هذا اللون نجتزئ منه قول أبى تمام :

مازال يهذى بالكارم والعلا . حتى ظننا انه محموم

فانه أراد أن يمدح بل يبالغ فى ذكر من يمدحه ولهجه بالكارم والعلا ، فجعله محموما يهذى ، وهذا ذم صريح وليس بمدح .

ومثله أيضا قول الآخر :

ويلحقه عند المكارم هـزة .! كما انتفض الجهود من أم ملدم

وأم ملدم هى الحمى ، فهذا تشبيه فى غاية الذم والسخف ، (وهذا وأمثاله لا يجوز استعماله ، وان كان المعنى المقصود به حسنا ، وكفى ممن يتأول معنى كريما فأساء فى التعبير عنه حتى صار مذموما كهذا وأمثاله) (٢٢) .

(٢٠) الجامع الكبير ص ٢٢٦ .

(٢١) المثل السائر ج ٢ ص ٣١٦ .

(٢٢) المثل السائر ج ٢ ص ٣٢٥ .

أما القسمان الآخران من هذه الضرب فانهما وكما سبق أن
أشرت يندرجان تحت ما يعرف باسم الغلو ، وهو أن يدعى لوصف
بلوغه في الشدة أو الضعف حدا مستحيلا أو مستبعدا لئلا يظن أنه
غير متناه في الشدة أو الضعف وهو غير ممكن لا عقلا ولا عادة،
وهذا غير مقبول ، وانما الذي يجعله مقبولا أن يدخل عليه ما يقربه
للصحة ، وذلك كلفظة يكاد ، أو كإن أو لو وما تضمن نوعا حسنا
من التخيل ، أو ما جاء على سبيل الهزل (٢٣) فالقسم الأول عند ابن
الأثير هو الأفراط ، والثاني هو الاقتصاد كما سنوضح .

الأفراط أو الغلو

والأفراط أو المبالغة عنده منها ما هو مقبول ، ومنها ما هو
مستهجن ، والمستهجن عنده هو الذي بلغت المغالاة فيه حدا غير
مقبول من الأفراط تصل لدرجة الكذب ، أما المستحسن فعليه مدار
الاستعمال عنده (٢٤) ومثله قول عنتره :

وإنا المينة في المواطن كلها . : . والظن مني سابق الأجل

والمستهجن كقول النابغة الذبياني في وصف امرأة :

وأنا المينة في المواطن كلها . : . والظن مني سابق الأجل

(وهذا يصف طول قامتها ، لكن من الأوصاف المنكرة التي
خرجت بها المغالاة عن حيز الاستحسان) (٢٥) .

(٢٣) الايضاح ص ٢٠٧ .

(٢٤) المثل السائر ج ٢ ص ٣٣٢ .

(٢٥) المثل السائر ج ٢ ص ٣٣٣ .

ومثله قول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى انه .: لتخافك النطف التي لم تخلق

وهذا المستهجن يحسن اذا دخل عليه كأن أو لو ، أو كأنما

وقد استعمله المتنبي في شعره فحسن كقوله :

عجاجة تعثر العقبان فيه .: كان الجو وعث أو خيار

وهو نفس المعنى في قوله :

عقدت سنانيكها عليه عثيرا .: لو تبتغي عنقا عليه لأمكننا

(وهذا أكثر مغالاة من الأول) (٢٦) لكن الذى حسنه دخول

لو عليه ، أو قوله :

كأنما تتلقاهم لتسللهم .: فالطعن يفتح فى الاجواف ما يسع

لكن التخييل الحسن هو الذى سوغ مثل هذا :

أما فى كتابه المفتاح المنشأ فانه ذكر المبالغة صراحه ومنل

لها ، فعرفها بقوله : (هو أن يذكر معنى لو يقتصر عليه لكان كافيا ،

فيما قصده ، فلا يقتصر على ذلك حتى يؤكد به شئ آخر) وقد

مثل له بقول عمرو بن الاهيم :

ونكرم جارنا مادام فينا .: ونتبعه الكرامة حيث مالا

فلو اقتصر على قوله : ونكرم جارنا مادام فنيا :

كان كافيا ، فبالغ بقوله : ونتبعه الكرامة حيث مالا (٢٧) .

الاقتصاد

وهو عنده قسم قائم برأسه لكنه جزء من أجزاء الغلو المقبول، بل هو نفسه المستهجن الذي حسن بدخول بعض الألفاظ أو الأخطاء عليه فحسنته وهذا نفسه ما عناه ابن الاثير أثناء كلامه عن هذا اللون فقال (وأما الاقتصاد فهو وسط بين المنزلتين والأمنلة به كثيرة لا تحصى ، اذ كل ما خرج عن الإفراط والتفريط فهو اقتصاد، ومن أحسنه أن يجعل الإفراط مثلا ، ثم يستثنى فيه بلو ، أو يكاد وما جرى مجراها) (٢٨) وضرب اذلك الامثلة ، فمن ذلك قوله تعالى: (يكاد البرق يخطف أبصارهم) ، ومثله قول الفرزدق :

يكاد يمسه عرفان راحته .: ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم

ومثال لو كقول البحترى .

لو أن مشتاقا تكلف فوق ما .: فى وسعه نسعى اليك النبر

ومن هذا القبيل ما عرفه باسم الغلو وعرفه : بأن يكرر صفة واحدة كقول أبى نواس :

توهمتها فى كأسها وكأنما .: توهمت شيئا ليس يدركه العقل (٢٩)

(٢٧) المفتاح المنشا ص ٣١٢ .

(٢٨) المثل السائر ج ٢ ص ٣٦ .

(٢٩) المفتاح المنشا ص ٣١٢ .

فأحراج البيت بهذه الطريقة قد حسنه وحسن الغلو فيه .

التجريد

ويعرّمه ابن الأثير (بانه اخلاص الخطاب لعيرك وانت تريد به نفسك لا المخاطب نفسه) (٢) وهذا التعريف قريب من تعريف القزويني له (٣١) الذى ينبت أن فائدة التجريد فى المبالغة فى كمال الصفة المنتزعة ، غير أن ابن الأثير ينبت فائدتين له الأولى : طلب التوسع فى الكلام ، لأن ظاهر الكلام خطاب لعيرك ، وهو خطاب لنفسك . الثانية : يراها أبلغ من الأولى وهى أن يتمكن المخاطب من اجراء الأوصاف المقصودة من مدح أو غيره على نفسه ، اذ يكون مخاطبها غيره ليكون أعذر وأبرأ من التبعه فيما يقوله غير محجور عليه (٣٢) .

ويقسم التجريد الى قسمين : قسم محض ، وآخر غير محض . والفرق بينهما أن المتكلم فى المحض ، وجه الخطاب لغيره مريداً به نفسه فى الحقيقة ، كما يقصد به التوسع أحياناً ، ويرى أن هذا هو التجريد الحق لأنه متفق مع التعريف الذى حده به .

أما غير المحض ، فيراه نصف تجريد لأنه ليس تجريداً كاملاً ، وهو خطاب الانسان لنفسه كأنها شخص آخر يعى ويسمع ما يلقى عليه .

ولكن الغريب حقاً أنه عاب على أبى على الفارسى أشياء من التجريد ، اذا يراها خارجة عنه وذلك مل قول العرب : لئن لقيت

(٣٠) المثل السائر ج ١ ص ٤٢٣ .

(٣١) الايضاح ص ٢٠٦ .

(٣٢) المثل السائر ج ١ ص ٤٢٣ .

فلانا لتلقين به الاسد ، ولئن سألته لتسألن به البحر ، فيرى أن هذا من التشبيه مضمرة الأداة •

ونحن لا نوافقه على هذا ، بل نرى رأى أبى على الفارسي لانه تجريد وذلك لدخول باء المعية فى المنتزع ، وليس لاداة التشبيه هنا مكان ، ومن ثم فتقديره الاداة باطل حيث يقول (فان هذا تشبيه مضمرة الاداة ، اذ يحسن تقدير أداة التشبيه فيه ، وبيان ذلك أنك تقول : لئن لقيت فلانا لتلقين منه كالاسد ولتسألن منه كالبحر وليس هذا بتجريد لأن حقيقة التجريد غير موجودة فيه ، وانما هو تشبيه مضمرة الاداة) (٣٣) •

وهذه تأويلات عليه لاله ، فانه أتى بمن وهى أيضا للتجريد بدلا من باء المعية التى هى للتجريد ، بالاضافة الى قوله بأن هذا تشبيه خطأ واضح ، لان أساليب التشبيه يكون الحكم فيها باثبات المشابهة ، وأسلوب التجريد ليس كذلك فانه يخلو من المشابهة لان فلانا فى المثالين هو نفسه الاسد والبحر على سبيل المبالغة ، وليس كالاسد ، أو كالبحر حتى يكون تشبيها ، لانه لو كان كذلك لاضرد فى اسلوب التشبيه لاتحاد المنتزع والمنتزع منه (والحق هو أنه استعارة ، ولكن المنتزع قد يعبر عنه أحيانا بلفظه الحقيقى ، وقد

يعبر عنه أحيانا بلفظه المجازى (٣٤) • ومن ثم فالخطأ عند ابن الأثير ، والصواب مع أبى الفارسي كما بينا •

أما أقسامه فهي •

الاول : التجريد المحض كقول الحيمس بيص مخاطبا نفسه :

الام يراك المجد في ذى شاعر . : . وقد نحتت شوقا فروع المناير
كتمت بعيب الشعر حلما وحكمة . : . ببعضها ينقاد صعب المفاخر
أما وأبيك الخير انك فارس الـ . : . مقال ومحبي الدارسات الغواير
وانك أعييت المسامع والنهي . : . بقولك عما في بطون الدفاتر

فقد أجرى الخطاب لغيره ، وهو يريد نفسه ليتمكن من ذكر الصفات والفضائل التي يريد اثباتها لنفسه •

ومثله أيضا قول المتنبي :

لا خيل عندك تهديها ولا مال . : . فليسعد النطق ان لم تسعد الحال
وأجز الأمير الذي نعماه فاجئة . : . بغير قول ونعمى القوم أقوال

ويرى أن هذا من التوسع •

النوع الثانى : غير المحض ، وهو مخاطبة الانسان نفسه وهو مايسميه بنصف تجريد كقول عمرو بن الاطنابة مخاطبا نفسه :

(٣٤) الابصاح ج٦ ص ٦١ شرح محمد عبد النعم خفاجى ط محمد على
صبيح سنة ١٩٥٠ المطبعة الفاروقية •

أقول لها وقد جشأت وجاشت .: رويدك تحمدى أو تستريحي
فالمخاطب هو المخاطب بعينه ، وليس ثم خارج عنه كما يقول (٣٥) .

التورية

ويسمى ابن الأثير بالمغالطات المعنوية لأنها (من أحلى ما
استعمل من الكلام والطفه لما فيه من التورية) (٣٦) .

ويعرفها بأن يذكر معنى من المعانى له مثل فى شئ آخر
ونقيض ، والنقيض أحسن موقعا ، وألطف مأخذا ، وما عبر به هنا
عن المعنى والمثل هو نفسه ما قيل فى حد الاستعارة اصطلاحيا
حيث يطلق المتكلم لفظا له معنيان أحدهما قريب غير مقصود ، والاخر
بعيد هو المقصود ، أى هو خاص بالألفاظ المشتركة المعنى ، أو ما
يعرف عند اللغويين بالمشترك اللفظى الا أن الدلالة تحدد المراد
من المعنى المقصود (٣٧) .

وتبعا لهذا التعريف فانها تنقسم عنده الى :

(١) س ادى ينون له مثل يقع فى الألفاظ المشتركة كقول
أبي .

يشلهم بكل أقب نهـد .: لفارسه على الخيل الخيار
وكل أصم يعسل جانباه .: على الكعبين منه دم مـمار
يغادر كل ملتفت اليه .: ولبتـه لثـلبه وجـار

(٣٥) المثل السائر ج ١ ص ٤٢٧ .

(٣٦) المثل السائر ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣٧) انظر البلاغة وقضايا المشترك « التورية » .

فالثعلب هنا لفظ له معنيان ، أحدهما قريب غير مراد ، وهو الحيوان المعروف وبعيد وهو : طرف سنان الرمح وهو المقصود ، برغم وجود المرشح بعد افظ التورية وهو لفظ وجار التي ترشح المعنى القريب وهو الحيوان، والمعنى أن الرمح الموصوف بهذه الصفات يترك من التفقت اليه بعد أن غاب في نحره وطعن ، فصار نحر المطعون بالرمح ، وللرمح ، كالوجار للثعلب * (وهذا نقل المعنى من مثل الى مثله) *

ومثله أيضا للمتنبى :

برغم شبيب فارق السيف كفه . : . وكانا على العلات يصطحبان
كان رقاب الناس قالت لسيفه . : . رفيقك قيسى وأنت يمانى

ففى كلمة يمانى تورية لان لها معنيان : أحدهما قريب وهو الرجل المنسوب لليمن والاخر بعيد وهو السيف الذى ينسب لليمن، والمرشح للمعنى القريب كلمة قيسى نسبة الى قيس ، والعداوة مشهورة بين القيسية واليمانية *

ويريد المتنبى أن كف شبيب القيسى وسيفه متنافران عندما قتل ، فكأن الناس قالوا لسيفه أنت يمانى وصاحبك قيسى ، ولهذا جانبه السيف وفارقه * وهناك أمثلة عديدة نثرية أوردها فى رسائله العديدة ولولا خسبة الاطالة لأوردنا بعضها (٣٨) *

(ب) القسم الآخر وهو النقيض ويراه قليلا ،لانه لا يتهيا
ستعماله كثير وذلك مثل قول بعض الشعراء ،

وما اشياء تشريها بما فان نفقت فاكسد ما تكون

فالتورية فى لفظة نفقت ، فيقال نفقت السلعة اذا راجت وكان
ها سوق ، ويقال أيضا نفقت الدابة ، اذا ماتت (وموضع المناقضة
هنا فى قوله : انها اذا نفقت كسدت ، فجاء بالشىء ونقيضه ، وجعل
هذا سببا لهذا ، وذلك من المغالطات الحسنة) (٣٩) •

الارصاد

وهو أن يبنى الشاعر البيت الشعرى على قافية قد أرصدها
له ، أى أعدها فى نفسه فاذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتى به
فى قافيته ، فخير الكلام ما دل بعضه على بعض (٤٠) سواء كان فى
الشعر أو النثر ، وهذا ما استدركه ابن الأثير بعد تعريفه للارصاد ،
وقصره فى هذا التعريف على الشعر فقال : (وقد جاء الارصاد فى
الكلام المنثور كما جاء فى الشعر) وقد عرفه فى كتابه المفتاح
المنشا : (انه اذ ذكر فى سجعة معنى ، اقتضى أن يكون فى السجعة
التانية تمامه) أى تمام هذا المعنى (٤١) وقد مثل لكلا النوعين شعرا
ونثرا بما تساع من أمثلة له فى كتب البلاغة •

(٣٩) انظر المثل السائر ج٢ ص ٢٢١ •

(٤٠) انظر المثل السائر ج٢ ص ٣٤٨ وانظر ايضا التعريف فى ايضاح

القزوينى ص ١٩٨ وقد شمل الشعر والنثر •

(٤١) السابق ص ٢٤٩ والمفتاح المنشا ص ٣١٢ ، والجامع الكبير ص ٢٣٨

فمن ذلك قول البحتري :

**أطت دمي من غير جرم وحرمت . : . بلا سبب يوم اللقاء كالمى
فليس الذى حلتته بمحلال . : . وليس الذى حرمته بحرام**

فالارصاد فى قوله « حرمة » خاصة بعد أن عرفت القافية
فى البيت الأول أنها فى البيت الثانى لابد أن تذكر لفظة « بحرام »
وأىضا كقول البحتري :

فاذا حاربوا أذلوا عزيزا . : . واذا سالوا أعزوا ذليلا

فيعلق عليه بقوله (فاذا حاربوا أذلوا عزيزا اقتضى
أن يكون تمامه ، واذا سالوا أعزوا ذليلا) (٤٢) ،

ومن النثر قوله تعالى : « مثل الدين اتخذوا من دون الله أولياء
كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ، وإن أو هن البيوت لبيت العنكبوت) ،
فاذا سمع السامع قوله تعالى (وإن أو هن البيوت) لعلم أن بعده
بيت العنكبوت .

أما ما عده من التسهيم فى كتابه المفتاح ، فإنه ليس من التسهيم
أو الارصاد فى شىء لأنه من اللف والنسر ، وتعريفه له قريب جدا
من تعريف البلاغيين له ، فهو عبارة عن ذكر متعدد على جهة التفصيل
أو الاجمال ، ثم ذكر مالكل واحد من غير تعيين ثقة من أن السامع
يرده اليه (٤٣) .

وهذا نفسه معنى تعريف ابن الأنير له فى قوله : (وهو أن
يأخذ المنشئ فى معنى فيورده غير مشروح ، فيقع أن الواصل

(٤٢) المفتاح ص ٣١٢ .

(٤٣) الايضاح ص ٢٠٢ .

اليه الكتاب لا يتصوره بحقيقته ، فيعود اليه راجعا الى ما قدمه،
اما أن يظهره ، واما أن يجلى الشبهة فيه (٤٤) * وقد مثل القزويني
لهذا النوع بمثال هو نفسه الذى مثل له به ابن الأثير وهو قول
ولهذا النوع بمثال هو نفسه الذى مثل له به ابن الأثير وهو قول
ابن الرومى :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم .: فى الحادثات اذا دجون نجوم
فيها معالم للهدى ومصابح .: تجلو الدجى والاخريات رجوم
ويلق عليه ابن الاثير شارحا ، بأن الشاعر عندما ذكر البيت
الاول رآه مبهما لن يستطيع القارئ أن يفهمه بهذا الاجمال ، فأتى
بالبيت الثانى مفصلا له *

كما ذكر ما يعرف بالتبيين وهو من هذا النوع ، وليس له فيه
الا التعريف فقط ، أما التمثيل والشرح ، فهو منقول بالكامل من
الخطيب التبريزي (٤٥) ، فاذا كان الشاهد السابق على ترتيب اللف
والنشر ، فان الشاهد التالى على غير ترتيبه *

وتعريفه لهذا النوع (هو أن يضع — المتكلم كلاما — ثم يلحقه
بما يبينه) (٤٦) *

ومثل له ايضا بقول الفرزدق :

لقد خنت قوما لو لجأت اليهم .: طريد دم أو حاملا ثقل مغرم
لائيت فيهم معطيا أو مطاعنا .: وراك شزرا بالوشيج القوم

(٤٤) المفتاح ص ٣١٦ *

(٤٥) الكافى فى العروض والقوافى ص ١٩٣ *

(٤٦) المفتاح المنشأ ص ٣١٦ وقارن هذا التعريف *

بالتعريف السابق *

وعلق عليه نقلا عن التبريزي فقال : (لواقصر على البيت
الاول لكان جيدا ودخل فى باب ما حذف جوابه ، فبين قوله
« حاملا ثقل مغرم » بقوله « لألفيت فيهم معطيا » ، وقوله « طريد
دم » بقوله « مطاعنا » (٤٧) .

المكس والتبديل

ويسميه ابن الاثير بالمعكوس أو بالتبديل ويدرسه ضمن الجناس،
اذ يراه مشبها بالتجنيس ، غير أنه يصبو رأى قدامة بن جعفر
فى تسميته بالتبديل وكما هو عليه جمهور البلاغيين فى تلك
التسمية ولذا قال ابن الاثير عنها (وذلك مناسب لمسامه ، لأن مؤلف
الكلام يأتى بما كان مقدما فى جزء كلامه الاول مؤخرا فى الثانى،
وبما كان مؤخرا فى الاول مقدما فى الثانى) (٤٨) . وهذا الذى
استصوبه ، ومال اليه هو نفسه قريب جدا من تعريف البلاغيين
له ، فهو أن يقدم فى الكلام جزء ثم يؤخر ، أى هذا الجزء الذى
تقدم (٤٩) .

ويقسم هذا التبديل الى قسمين :

الاول : عكس الالفاظ ، والاخر عكس الحروف .

(٤٧) المفتاح ص ٣١٦ وانظر الكافى ص ١٩٣ .

(٤٨) المثل السائر ج ١ ص ٢٦١ ، والجامع الكبير ص ٢٦٢ .

وانظر المفتاح المنسا ص ٣١٣ وكلامه عنه يدخله ضمن عكس الالفاظ
لا عكس الحروف .

(٤٩) الايضاح ص ٢٠٠ .

أما من ناحية عكس الحروف فغير مدرج ضمن هذا اللون
لأنه تلاعب بالالفاظ مع اختلاف معانيها ، وهذا هو المعروف بالمقلوب
ويمثل له بقول الشاعر :

كيف السرور باقبال واخـره . إذا تأملته مقلوب اقبال (٥٠)

ومقلوب الاقبال هو لابقاء (٥١) .

أما عكس الالفاظ فانه يدرسها دون أن يفرق بينها ، بل أوردنا
كيفما اتفق ودمثل لها بأنوان من الشعر ، واخرى من النثر بعضها
من القرآن الكريم وبعضها الاخر عبارات من حقه التي كتبها وهي
طويلة ، ويأتى فيها هذا اللون قسرا وعنوة ولولا خسيه الاطالة
لملنا بها ، غير أن فى الامثلة الاخرى غناء عنها .

النوع الأول : كقول بعضهم : عدات السادات ، سادات
العادات ، أو تسيم الاحرار أحرار التسيم . وهذا اللون معروف
بأنه ما يقع بين طرفى جملة وما أضيف اليه ، فالعادات ، أحد
طرفى جملة ، وهو مضاف والسادات مضاف اليه .

النوع الثانى : وهو الذى يقع بين متعلقى فعلين وفى جملتين
كقوله تعالى : « يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى »

(٥٠) المثل السائر ج١ ص ٢٦٢ .

(٥١) وهو المعروف باسم مالا يستحب بالانعكاس ، أنظر جواهر البلاغة
ص ٤٠٨ .

النوع الثالث : أن يجمع بين لفظين في طرفي جملتين كقول
ابن قريع :

قد يجمع المال غير آكله . : . ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه . : . ويلبس الثوب غير من قطعه
أو كقول عتاب بن ورقاء :

ان الليالي للنام منـاهل . : . تطوى وتنشر بينها الاعمار
فقصارهن من الهموم طويـلة . : . وطوالهن من السرور قصار
أو قول مالك بن اسماء :

واذا الدر زان حسن وجوهه . : . كان للدر حسن وجهك زينا (٥٢)
أو كقول رسول الله ﷺ (جار الدار أحق بدار الجار) (٥٣) *

(٥٢) المفتاح المنشأ ص ٣١٣ .
(٥٣) انظر المثل السائر ج ١ ص ٢٦٠ : ص ٢٦٢ والايضاح ص ٢٠٠ .

ثانيا : المحسنات اللفظية

هذه التسمية « المحسنات اللفظية » ليست من وضع ابن الاثير
 هى والسابقة أعنى « المحسنات المعنوية » ، انما وضعتها من عندى لى
 أفرق بين الدراستين على عادة العرف البلاغى ، أما هو فقد دمج
 عناصر هذه بتلك ، باستثناء القسمة التى قسمها ، وهى الصناعة
 اللفظية ، وخص بدراستها مقاله الاولى وأورد تحتها بعض الألوان
 التى تتصل بالصناعة اللفظية ، والمقالة الثانية فى الصناعة المعنوية،
 وأورد تحتها ما يتصل بالمعنى ، ولم يقصر هذه أو تلك على علم
 البديع فقط ، بل أورد تحت هاتين المقاتلتين كل ما يندرج تحت علوم
 النبلاء الثلاثة المعانى ، والبيان ، والبديع ، الا أنه لم يتناول كل
 ألوان البديع لانه قصر كلامه على المتصل بصناعة الكتابة فقط ،
 وليئنه توسع فى كل أضرب البديع ، لكنه فيما يذهب اليه الظن أنه
 تناول ما كان معروفا معدودا فى ألوان البديع بين طبقة الكتاب .
 غير أنه سواء أكان هذا أم ذاك فإنه تكلم عن الألوان التى سوف
 نفصل القول فيها فيما بعد ونبدأ بالجناس وأقسامه .

الجناس

ويسميه التجنيس ، ودراسته له ، دراسة قيمة ، لأنه تقيد
 بتعريفه له ، ومن ثم نفى عنه ما ليس منه ، وذلك مثل المتفق
 لفظا ومعنى ، وأطلق عليه الترديد ، لان اللفظ والمعنى متفقان ،
 وضرب لذلك مثلا بقول أبى تمام :

أظن الدمع فى خدى سيبقى ٢٠ رسوما من بكائى فى الرسوم

(وهذا ليس من التجنيس فى شئ ، اد حد التجنيس هو اتفاق اللفظ واختلاف المعنى ، وهذا البيت المشار اليه هو اتفاق اللفظ والمعنى معا) (٥٤) فالرسم بمعنى واحد وهذا مما يحسب له ، وان كان هناك مما يحسب عئيه كاحتسابه العكس والتبديل من الجناس (٥٥) وأيضا المقلوب (٥٦) *

ويعرف الجناس بقوله (وحقيقته أن يكون اللفظ واحدا ، والمعنى مختلفا) (٥٧) * وهذا التعريف أفضل كثيرا من تعريف القزوينى له ، فقد قصر القزوينى تعريف الجناس على التشابه بين اللفظين ، ولم يتكلم عن المعنى (٥٨) فجاءت تسمية ابن الاثير له جامعة مانعة الى حد كبير *

فأخرجت أمثال قول أبى تمام سالف الذكر حيث هو من جناس الاشتقاق ، وقد الحق مثل هذا النوع بالجناس وهو ليس منه ، ومرد ذلك الى الخلاف بينهما فكما هو معروف عن الجناس أنه اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، أما هذا النوع فهو تشابه اللفظين

(٥٤) المثل السائر ج١ ص ٢٥٣ *

(٥٥) المثل السائر ج١ ص ٢٦٠ *

(٥٦) المثل السائر ج١ ص ٢٦٢ *

(٥٧) المثل السائر ج١ ص ٢٤٦ *

(٥٨) الايضاح ص ٢١٦ * وانظر اسرار البلاغة ص ١٢ وما بعدها *

فى الحروف والاصول ، وفى المعنى كذلك ، ومن ثم الحقوه بالجناس
لجرد هذا التشابه (٥٩) .

ويقسم ابن الأثير الجنس الى سبعة أقسام ، وان كان يرى
أن واحدا منها هو الذى يدل على حقيقة التجنيس وستة أخرى
مشبهة بالجناس وقد اندرجت جميعها تحت اسم الجنس .

أولا : القسم الأول : وهو التام الذى رأى اتفاق اللفظ دون
زيادة أو نقصان مع اختلاف المعنى وذلك كقوله تعالى (ويوم تقوم
الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) فالجناس واقع فى
لفظة ساعة ، اذ المقصود بها أولا يوم القيامة ، والثانية الساعة
الزمنية ، فتساوت حروف الفاظه فى تركيبها ووزنها ، ومثله قول
أبى تمام :

فاصبحت غرر الايام مشرقة .! بالنصر تضحك عن أيامك الغرر

فالغرر الأولى استعارة من غرة الوجه ، والغرر الثانية مأخوذة
من غرة الشيء أكرمه وأمثال هذا كثير ، لكنه تنبيه الى ما كان محمودا
منه وهو الذى يجيء عفوا والى المرزول منه ويسميه الغث البسارد
المتكلف الذى يتنى به الشاعر ، ولا حاجة لاستقصائه ، ونكاد نسمع
صوت عبد القاهر الجرجانى فقد ذم أيضا المتكلف من القول فى
السجع والجناس (ولن نجد أيمن طائرا ، وأحسن أولا وآخرا ،

(٥٩) انظر شروح التخليص ج٤ ص ٤٣٠ والمثل السائر ج١ ص ٢٥٢
والبلاغة وقضايا المشترك فصل الجنس .

وأهدى الى الاحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعانى على سجيئتها وتدعها تطلب لانفسها الألفاظ ، فانها اذا تركت وما تريد لم تكتس الا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض الا ما يزينها ، فأما أن تضع فى نفسك أنه لا بد من ان تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت بعرض الاستكراء ، وعلى خطر من الخطا والوقوع فى الذم ***) (٦٠) ومن نم كان معيار ابن الأثير فى الاستحسان وعدمه ، فمما استحسنته قول البحتري :

إذا العين راحت وهى عين على الهوى ؟ فليس بسر ما تسر الاضالع

فالعين الجاسوس ، والعين الحاسه المعروفة ، وأمنال هذا كثير (٦١) * هذا هو القسم الاول عنده ، أما باقى الأقسام فيراها مشبهة بالتجنيس وهى عنده ستة أقسام ، غير أننا تناولنا القسم الرابع فى دراستنا السابقة بعنوان العكس والتبديل ، وتكلمنا أناء عن المقلوب ، أما باقى الأقسام فهى *

١ — أن تكون الحروف متساوية فى تركيبها مختلفه فى وزنها وهذا هو الجناس المحرف (٦٢) ومثل له بقوله **صَلِّ** (الهم كما حسنت خلقتى حسن 'خلقى) ويوضحه قائله (الا ترى أن هاتين اللفظتين متساويتان فى التركيب ، مختلفتان فى الوزن * * *) اذ وزن الخلق فعل بفتح الفاء ، ووزن الخلق فعل بضم الفاء (٦٣)

(٦٠) اسرار البلاغة ص ١٠

(٦١) المثل ج١ ص ٢٥١ وما بعدها

(٦٢) الايضاح ص ٢١٨

(٦٣) المثل السائر ج١ ص ٢٥٣

ومنه قول بعضهم : لا تتال عرر المعالى الا بركوب الغرر واهتبال
الغرر *

٢ — أن تكون الألفاظ متساوية فى الوزن مختلفه فى التركيب
بحرف واحد لاعمير وهو المضارع (٢٠) ، كقوله تعالى (وجوه يومئذ
ناصره الى ربها ناظره) فناصره وناظره على وزن واحد الا أن
تركيبهما اختلف بين الضاد ، والطاء ، ومنله قوله تعالى (وهم ينهاون
عنه ويناون عنه) او قوله ﷺ (الخيل معقود بنواصيها الخير) *

أما قول أبى تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم .: . تصول باسياف قواض قواضب

فليس من المضارع المتقدم ، بل هو من جناس القلب المجنح أو
الناقص المطرف كقول البحتري :

شواجر أرماع تقطع بينهم .: . شواجن أرحام ملوم تقووعها

٣ — أن تكون الألفاظ مختلفة فى الوزن والتركيب بحرف واحد
وهو الناقص المطرف كقوله تعالى (والتفت الساق بالساق
الى ربك يومئذ المساق) * أو قوله ﷺ (المسلم من سلم الناس
من لسانه ويده) *

ومما يؤخذ عليه أيضا فى هذا القسم أنه أورد الملحق بالجناس
الذى يجمع بين اللفظين ، الاستتاق او المشابهة (٢١) ومثل له أمثله

(٦٤) الايضاح ص ٢١٩ وانظر باقى الصفحات فى هذه التسمية *

(٦٥) الايضاح ص ٢٢٠ *

كثيرة منها قول أبي تمام :

أيام تدمى عينيه تلك الدما . : فيها وتقمّر لبه الاقهار

أو قول البحتري :

نسيم الروض في ريح شمال . : وصوب المزن في راح وشمول

ومثل هذا كثير (٦٦)، وقد وضع هذا بنسك آخر من
المفتاح المنشأ (٦٧) .

٤ — القسم الرابع هنا هو الخامس عنده ، ويسميه المج
وهو المعروف بالمرفو وعرفه بأن يجمع مؤلف الكلام بين كلم
أحدهما كالتبع للآخرى والجنبية لها وإن كان يرى أنه الصق بلز
ما يلزم (٦٨) لكنه بالجناس أولى ، كقول القائل .

أبا العباس لا تحسب باني . : نشيء من حلى الاشعار عارى
قلى طبع كسلسال معين . : زلال من ذرا الاحجار جارى

٥ — ما يساوى وزنه تركيبه غير أن حروفه تتقدم وتناخر
وهو الذى يعرفه القزوينى بأنه جناس القلب ، كقول أبى تمام
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى . : متونهن جلاء الشك والري

(٦٦) المثل السائر ج ١ ص ٢٥٧ : ص ٢٦٠ .

(٦٧) المفتاح المنشأ ص ٣١٠ .

(٦٨) المثل السائر ج ١ ص ٢٦٣ والايضاح ص ٢١٧ .

فالصفات والصحائف مما تقدمت حروفه وتأخرت ، وبهذا أنهى دراسة الجناس أو التجنس الذى وصفه بأنه غرة شاذخة فى وجه الكلام ، وهذا مبعثه أن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد (٦٩) ففيتوهم السامع أن المعنى أيضا متحد ، فبعد تمنعه يرى اختلاف المعنى فيحمله على التعجب والشده *

السجع والازدواج

وقبل ان نتناول السجع ودراسته له نورد رأيه فى السجع وما كان مستحسننا عنده منه ، وسر السجع ، والفرق بينه وبين التطويل ، نم شروط السجع المستحسن تم بعد ذلك نتناول حده وأقسامه *

أما رأيه فى السجع فانه أسسه على عدم رفضه تماما ، وذلك لأن كثيرا منه ورد فى القرآن الكريم (٧) ، حتى انه لتجىء السورة بأكملها مسجوعة كسورة الرحمن أو القمر مثلا ، وأيضا الاحاديث النبوية الشريفة ، أما ما عابه الرسول ﷺ فانما هو السجع الذى يتشدد به بعضهم كسجع الكهان لاغير ، أما عامة السجع فغير مذموم ، كما أن السجع الذى أراده هو الذى ورد موافقا لحكم الكهان (وانما المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يدي الجنين بغرة عبد أو أمة) (٨) *

ومن ثم فان ابن الاثير لم يرفض السجع ، بل كان يفضل من السجع ما كان معتدلا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد

(٦٩) المثل السائر ج١ ص ٢٤٦ •

(٧٠) الاولى أن تسمى فواصل لاسجع •

(٧١) المثل السائر ج١ ص ١٩٦ •

بالإضافة الى جمال وحلاوة الألفاظ المسجوعة بأن تكون حادة طفانة
 رنانة ، لا غثة ولا باردة ، جل هم قائلها أن يصرف نظره الى السجع
 دون ان يضع اعتبارا الى مفردات الالفاظ المسجوعة وما يشترط
 لها من الحسن ، وأيضا المركب منها وما يشترطه من الحسن ، وصفى
 من الغثاثة والبرد ، وتابع اللفظ المعنى ، وجاء عفوا غير متكلف
 أو متعسف ، هذا بخلاف مايجىء محمولا على الطبع فيكون فى غاية
 الحسن ، ويراه فى أعلى درجات الكلام (واذا تهيا للكتاب أن يأتى
 به فى كتابته كلها على هذه النسيطة فانه يكون قد ملك رقاب الكلم
 يستعيد كرائما ، ويستولد عقائما ، وفى مثل ذلك فلينافس
 وعن مقامه فليقتاعس (٧٢) وهذا دليل على ذوق الرجل الادبى
 ورهافة حسه وبصره بمواضع الكلم ، ولذا رأينا يشترط ان يكون
 كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مستملة على معنى غير الذى
 اشتملت عليه اختها فيكون حسنا مقبولا ، أما اذا كان المعنى فى
 الثانية يشبه لاولى ، فانه ليس من السجع فى شيء ، بل هو
 التثويل الذى هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الاستغناء عن
 بعضها ، ولذا وضع شروطا أربعة ليكون الكلام أولا سجعا ، وثانيا
 مقبولا ، وهذه الشروط جمعها فى الآتى :

أولا : اختيار مفردات الألفاظ *

ثانيا : بعد أن تختار اللفظة المفردة ، توضع فى تركيب مختار
أيضا •

ثالثا : أن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعا للمعنى ،
لا العكس •

رابعا : أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على
معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها (٧٣) •

فاذا تحققت هذه الشروط الاربعة ، وحمل على الطبع غير
المتكلف ، فانه يجيء فى غاية الحسن وهو أعلى درجات الكلام ،
وهو الذى يعتد به وسوف يقسمه الى أقسامه •

تعريف السجع : عرف ابن الأنير السجع فى كتبه ، بأنه
نواطؤ الفواصل فى الكلام المننور على حرف واحد (٧٤) وهو بمثابة
القوافى فى الشعر، أى أن الفاصله فى النثر تتسبه القافية فى الشعر •
ويقسمه الى ثلاثة أقسام من حيث الفاصلتين •

الأول : أن يكون الفصلان متساويين ، بحيث لا يزيد أحدهما
على الآخر ، وهذا هو السجع المتوازى لأن الفاصلتين تكونان فيه
متوافقتين وزنا وتقفية وذلك مثل قوله تعالى (فأما اليتيم فلا تقهر ،
وأما السائل فلا تنهر) فاتفقت تقهر وتنهر وزنا وتقفية ، ومثله

(٧٣) المثل السائر ج١ ص ١٩٩ والجامع الكبير ص ٢٥٣ •
(٧٤) المثل السائر ج١ ص ١٩٣ والجامع الكبير ص ٢٥٣ وانظر •
الايضاح ص ٢٢٢ تجد الموافقة بين التعريفين •

قوله تعالى (والعاديات ضبحا فألموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا •)
وهذا النوع أشرف أنواع السجع لما فيه من اعتدال (٧٥) •

الثانى : أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول بحيث يكون
هذا الطول مقبولا ومعتدلا ، فاذا خرج به عن حد الاعتدال صار
معيبا وهذا الذى يعرف بالترصيع فى النثر بخلاف ترصيع الشعر كقوله
تعالى (وقالوا الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا اذا ، تكاد
السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا) •

الثالث : عكس الثانى وهو ما كان الفصل الثانى أقصر من
الأول فهو المعيب الفاحش (وسبب ذلك أن السجع يكون قد استوفى
أمدّه من الفصل الاول بحكم طوله ، ثم يجيء الفصل الثانى قصيرا
عن الاول فيكون كالشئء المبتور فيبقى الانسان عند سماعه كمن
يريد الانتهاء الى غايته فيعثر دونها) (٧٦)

وربما هذا هو الذى دفعه الى عدم التمثيل له خلاف القسمين
السابقين •

وهذه الأقسام الثلاثة تندرج تحت قسمين كبيرين من حيث
الطول والقصر :

الأول : السجع القصير ، أى أن تكون كل واحدة من السجعتين
مؤلفة من ألفاظ قليلة ، اذ كلما قلت الألفاظ كان أحسن ، وذلك لقرب

(٧٥) المثل السائر ج١ ص ٢٣٩ • والافضل أن يقول فواصل •

(٧٦) المثل السائر ج١ ص ٢٤٠ والايضاح ص ٢٢٣ •

الفواصل المسجوعة ، ولا يستطيعه الا انبارع لوعورة المسلك ، وضيق المجال فى استجلابه ، وتتفاوت درجاته بين عدة ألفاظ تبدأ من لفظين لفظين الى العشرة ، فمما جاء من ذلك على لفظين لفظين قوله تعالى (والمرسلات عرفا فالحاصفات عصفا) أو قوله تعالى (يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر) ♦

الثانى : السجع الطويل وهو الذى تطول فيه الألفاظ ، وتستجلب له وهذا أسهل تناولا من الأول ، وأيضا تتفاوت درجاته بين عدة ألفاظ من أحد عشر الى اثنى عشر ، واكثر من خمسة عشر لفظا ومنه ما يكون تأليفه من العشرين لفظا فما حولها ، بل ان منه (ما يزيد على هذه العدة المذكورة وهو غير مضبوط) (٧٧) ، ونكتفى بمثال للسجع الطويل وهو قوله تعالى : (والنجم اذا هو ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى) ومن ثم تظهر عقلية ابن الأثير الواعية للتراكيب ، بل للألفاظ ومواضع استعمالها ، ومعناها ، ومبناها ♦

التصريح

ويعرفه بأنه — أى التصريح — فى الشعر بمنزلة السجع فى الفصلين من الكلام المنثور ، وهائدتة فى الشعر ، أنه قبل كمال البيت الأول من القصيدة تعلم قافيتها ، وشبه البيت المصارع بباب له مصراعان متشاكلان (٧٨) ♦

(٧٧) المثل السائر ج ١ ص ٢٤٢ ♦

(٧٨) المثل السائر ج ١ ص ٢٤٢ وانظر الجامع الكبير ص ٢٥٤ والايضاح

ص ٢٢٤ ♦

وعلى عادته يفضل ما جاء منه عفوا غير متكلف وما كان منه قليلا فيكون كالغرة في الوجه ، أو كالطراز من النوب ، لأن الكثرة لا تكون مرضية لأنها تأتي عن تكلف .

ويقسمه الى سبع مراتب ، وهي قسمة تدل على الدقة في معرفة الفروق الدقيقة الرقيقة المنموجة بين لفظة في تركيب وآخر .

الأولى : ويرأها أعلى درجات التصريح ، وهي أن يكون كل مصراع من البيت مستقلا بنفسه، فيفهم معناه دون الحاجة الى الشطر الثاني من البيت ، وهذا هو التصريح الكامل وذلك مثل قول امرئ القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التحلل . . . وان كنت أزمعت صرعى فاجملى

فكل شطر من هذا البيت قائم بمعناه غير محتاج للآخر .

الثانية : ان يكون الاول من المصراعين مستقلا بنفسه غير محتاج للآخر ، لكن اذا جاء هذا الآخر كان مرتبطا بالأول كقول أبي تمام :

الم يان ان تروى الظماء الحوائم . . . وان ينظم الشمل المبدد ناظم

فالمصراع الأول غير محتاج الى الثاني في فهم معناه ، لكن لما جاء المصراع الثاني ارتبطا في المعنى .

المرتبة الثالثة : وهي التصريح الموجه ، فيكون الشاعر مخيرا في

وضع كل مصراع موضع صاحبه ، ولا يخلط المعنى ، لكن هذا النوع من التصريح أقل جودة من سابقه •

كقول ابن الحجاج البغدادي :

من تشروط الصبوح في المهرجان .: خفية الشرب مع خلو المكان

فلو وصعنا المصراع الثاني مكان الاول والاوّل مكان الثاني لم يخلط المعنى الذي هو عليه •

الرابعة : التصريح الناقص وفيه يكون المصراع غير مستقل بنفسه ، ولا يفهم معناه الا بالمصراع الثاني ، ولم يرض عن هذا ابن الاثير وهو محق في ذلك لان هذا النوع من التطويل ، اذ المعنى فيه يؤدي في بيت كامل كقول المتنبي :

مغاني الشعب طيبا في الغاني .: بمنزلة الربيع من الزمان

فلن يفهم الشطر الأول الا بعد قراءة الشطر الثاني من البيت

الخامسة : وهو التصريح المكرر ويكون التصريح في البيت بلفظة واحدة وسطا وقافية ، ولذا فهو ينقسم الى قسمين :

(أ) أن يكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها ، وهو أدنى من القسم الثاني كقول عبيد بن الأبرص :

فكل ذي غيبة يثوب .: وغائب الموت لا يثوب

(ب) أن يكون التصريح بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها ، كقول أبي تمام :

فتى كان شرباً للعفة ومرتما . فاصبح للهنديّة البيض مرتما

السادسة : التصريع المعلق ، وهو أن يذكر المصراع الاول ويكون معلقا على صفة تذكر في المصراع الثاني ، ويراه معييا جدا ، كقول مريء القيس :

لا ايها الليل الطول الا انجلي . بصبح وما الاصباح منك بامثل

فعلق المصراع الاول على قوله « بصبح »

السابعة : التصريع المشطور وهو أدنى درجات التصريع وأقبحها ، لأن التصريع في البيت مخالفا لقافيته كقول أبي نواس :

أقلنى قد ندمت على الذنوب . وبالأقمار عدت الجحود

فصرع بحرف الباء وسط البيت ، ثم قفاه بحرف الدال (٧٩) .

الترصيع

وقد اعتبره ابن الأثير قسما قائما برأسه ، وعده القزويني نوعا من أنواع السجع ، فجعله ثالث السلافة ، الطرف ، والمتوازي والترصيع ، وإن كان تعريفهما واحدا . فهو عند ابن الأنير (أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظ من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والثابتة) (٨٠) .

(٧٩) انظر المثل السائر ج١ ص ٢٤٢ : ص ٢٤٦ .
(٨٠) المثل السائر ج١ ص ٢٦٤ وهو نفس تعريفه في الايضاح ص ٢٢٢
وقد أخطأ في الجامع فقال عن الترصيع : أن يكون أحد ألفاظ الفصل الاول مخالفا لما يوازيه من الفصل الثاني ، والاصوب مساوية انظر ص ٢٦٥ .

واشترط التساوى لكى يخرج منه غير المتساوى بالتكرار مثلاً
كقوله تعالى (ان الابرار لفي نعيم ، وان الفجار لفي جحيم) فتكرار
لفظ « لفي » أخرجه من الترصيع لعدم التساوى • وقد زاد بعض
رياده فى المفتاح المنشأ فقال فى تعريفه (أن تتوخى سجع مقاطع
الاجزاء ، وتصيرها متقاسمة النظم متعادلة الوزن) فقيد الترصيع
بتقاسم النظم وتعادل الوزن فأصبح قيداً آخر يخرج ما عداه ،
ومثل لذلك بقول الخنساء :

حامى الحقيقة محمود الخليفة مه .: دى الطريقة نفاع وضار
جواب قاصية جزاز ناصية .: عقاد ألوية للخيل جزار

وان كان هنا قد قصره على الشعر فقط (٨١) •

لكنه موجود — أى الترصيع — فى النثر والشعر خاصة تسعر
المحدثين ، غير أنه قليل جداً ، لما يتطلبه من زيادة التكلف والتعسف
ونعفى الصنعه ، ويقسم أرباب هذه الصنعه الترصيع الى قسمين
أما هو فلا يميل الى تلك القسمة لأنه يرى الترصيع فى القسم الاول
منها فقط ، وعلى كل فانه أورد القسمين ومثل لهما والقسمان هما •

الأول التساوى فى الوزن والقافية ، والقسم الثانى : الاختلاف
فى الوزن ، لان ذلك يخلو من الترصيع وهو بالسجع أولى •

القسم الاول • ومثل له نثراً وشعراً ، فمن أمثلة النثر التى
أوردها لهذا النوع قول الحريرى فى مقاماته (فهو يطبع الاسجاع
بجواهر لفظه ، ويقرع الاسماع بزواجر وعظة) فألفاظ الشق .

الاول من الكلام مساوية لألفاظ الشق الثانى وزنا وقافية ، فيطبع
تساوى يقرع ، والاسجاع والاسماع وجواهر وزواجر ، ولفظه
ووعظه • أما فى الشعر فكقول الشاعر :

فمكارم أو كينها متبرعا .: وجرائم ألغيتها متورعا

والتساوى ظاهر واضح بين الفاظ الشطر الأول ، وألفاظ
الشطر الثانى • أما القسم الثانى الذى يرفضه من الترصيع ، فقد
أورد أمثلة بكتابه الجامع وحللها وسكتفى بمثال واحد منها وهو
قول تأبط شرا :

حمال الوية شهادة أندية .: قوال محكمة جواب افاق

فألوية تساوى أندية وزنا وقافية ، لكن حمال لا يماثل شهادة
فى القافية ، وان اتفقا وزنا ، أما قوال فتساوى جواب ، لكن محكمة
لا يوازن أفاق (٨٢) • ولذا رفض هذا النوع ، وان كنا لا ندرى لماذا
أتى به فقط فى كتابه الجامع الكبير دون القسم الاول الذى عده
ترصيعا •

التوثيق

ويسميه القوينى بالتشريع (٨٣) وان كانا متفقين فى التعريف
الأن عبارة القزوينى أوجز ، ولذا فهى تحتاج الى ايضاح ، أما
تعريف ابن الاثير له فيقول : (أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على

(٨٢) الجامع الكبير ص ٢٦٥ •

(٨٣) الايضاح ص ٢٢٥ •

بحرين مختلفين ، فادا وقف من البيت على القافية الاولى كان
تسعا مستقيما من بحر على عروض وادا اُضاف الى ذلك مابنى
عليه شعره من القافية الاخرى كان أيضا تسعا مستقيما من بحر
آخر على عروض وصار ما يضاف الى القافية الاولى للبيت كالوشاح
وكذلك يجرى الامر فى الففرتين من الكلام المنور فان كل فقرة
منهما تصاغ من سجعيتين (٨٤) * الا أنه يحسن استعماله فى الشعر
بخلاف استعماله فى النثر *

ومن أمثله شعرا قول أبى بكر احمد بن الحسين الارجاني
يمدح قاضى قضاة فارس *

اسلم ودمت على الحوادثمارسا .: ركذا ثبير أوهضاب حراء
ونس المراد ممكنا منه على .: رغم الدهور وفر بطول بقاء
فهذان البيتان يذكرا على قافية أخرى وبحر آخر فنقول

اسلم ودمت على الحوا .: دث ما رسا ركذا ثبير
ونس المراد ممكنا .: منه على رغم الدهور

ومله أيضا قول الحريرى فى مقاماته :

ياخاطب الدنيا الدنية انها .: شرك الردى وقرارة الاكدار
دار متى اصبحت فى يومها .: ابكت غدا بعدا لها من دار
واذا اطل سحابها لم ينتفع .: منه صدى لجهاة الفرار

فادا اقتصرنا ووقفنا على الردى كان هذا البيت من الضرب

الثامن للكامل وهو متفاعلن أربع مرات * وان اكملنا البيت ووقفنا على الاكدار كان البيت من الضرب الثانى من الكامل وهو :

متفاعلن متفاعلن متفاعلن . متفاعلن ، متفاعلن فعاللن

ولذا يرى ابن الأنير أن هذا النوع لا يستعمل الا متكفا ومرد الحسن فيه لما يحتويه من صناعة ، لا بمافيه من براعه ، واحسنه ما كان يسيرا كالرقم فى الثواب أو الشية فى الجلد (٨٥) *

الموازنة

الموازنة تشبه السجع فى المعادلة لا المائلة ، ففى السجع اعتدال ، وزيادة على الاعتدال ، وهذه الزيادة هى تماثل أجزاء الفواصل لجيئها على حرف واحد ، أما الموازنة ففيها اعتدال السجع دون تماثل الفواصل ولذا يصح أن يقال كل سجع موازنة وليس كل موازنة سجعا ، لأن السجع أخص من الموازنة ، وهى مثله ، كما توجد فى النثر توجد فى الشعر *

أما حدها عنده فهى أن تكون الفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية فى الوزن * وأن يكون صدر البيت الشعرى وعجزه متساوى الالفاظ وزنا (٨٦) ونصه فى التعريف عن الوزن وصمته عن التقفيه دليل على أنه لم يشترط التساوى فى القافية ذلك الشرط الذى اشترطه فى السجع ، وان كان قد أدخل فى الموازنة ما عرفه

(٨٥) المثل السائر ج٢ ص ٣٦١ *

(٨٦) المثل السائر ج١ ص ٢٧٨ *

القزوينى باسم المماثلة (٨٧) ومثل لذلك بقوله تعالى (وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم) (٨٨) • أما تعريفه لها فى كتابه المفتاح المنشأ فإنه أوضح ، فقد عرفها بقوله : أن تكون الالفاظ متعادلة — أى وزنا — متوالية الاجزاء حسنة الترتيب كقول امرئ القيس :

سليم الشظا عبل الشوى شنج النسا . : له حجاب مشرفات على القال (٨٩)

وقد مثل للموازنة بقوله تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، كلا ، سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ، ألم تر أنا أرسلنا التياطين على الكافرين تؤزهم أزا ، فلا تعجل عليهم انما نعدلهم عدا) فالآيات عزا ، وضدا ، وأزا ، وعدا ، كلها على وزن فعلا وان اختلفت حروف المقاطع النى هى فواصلها ، وأمثال ذلك كثير فى القرآن الكريم • أما ما جاء من هذا النوع نسعرا قول ربعة من ذؤابة :

ان يقتلوك فقد ثلث عروشهم . : بعثية بن الحارث بن شهاب
بأشدهم بأسا على أصحابه . : وأعزهم فقدا على الاصحاب

وقد وردت الموازنة فى البيت الثانى ، فان بأسا وفقدا على وزن واحد •

(٨٧) الايضاح ص ٢٢٤ •

(٨٨) المثل السائر ج ١ ص ٢٧٩ والايضاح ص ٢٢٤ •

(٨٩) المفتاح المنشأ ص ٣١١ •

والموازنة تضيف على الكلام رونقا وطلاوة بسبب ما فيها من الاعتدال الذى هو مطلوب فى جميع الاشياء ، فاذا اعتدلت مقاطع الكلام وجدت قبولا واستحسانا لدى السامع •

لزوم مالا يلزم

وهو أن يلتزم مؤلف الكلام شعرا ونثرا بمالا يلزمه ، وحده فى النثر هو أن تكون الحروف التى قبل الفاصلة حرفا واحدا ، أما فى الشعر ، فهو أن تتساوى الحروف التى قبل روى الابيات الشعرية (٩٠)

وخيره ما كان عن طبع وسليقة ، وما جاء عفوا غير متكلف ، لان الالفاظ اذا جاءت فى هذا النوع عن سلامة طبع وكانت غير مستجيبة ولا متكلفة كانت غير محتاجة للتناق ، وهذا فرق بين المتكلف وغير المتكلف فالمتكلف (هو الذى يأتى بالفكر والرويه ، وذلك أن ينفى الخاطر فى طلبه ، ويبيع على تتبعه واقتناص أثره ، وغير المتكلف يأتى مستريحا من ذلك كله) (٩١) • فاذا ما سُئِنح للنائر أو التساعر اثناء صياغه عمله الفنى كان غير متكلف مما يدل على الطبع والتمكين بخلاف المتكلف •

وقد ألف المعرى فى ذلك كتابا سماه باللزوميات ومثله فى ذلك مثل باقى الشعراء والكتاب فأورد فيه الغث مع السمين ، ولذا فان ابن الاثير رأى أن ما جاء عن العرب الاقدمين من اللطافة ما يشهد لنفسه كأنه الماء الجارى فمن جيد المعرى :

-
- (٩٠) المثل السائر ج١ ص ٢٦٧
 - وانظر الجامع ص ٢٦٥
 - (٩١) المثل السائر ج١ ص ٢٧٦

لا تطلبن بالة لك حاجة .: قلم البليغ بغير حد مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما .: هذا له رمح وهذا أعزل

ومما ورد عن العرب قول طرفه بن العبد :

ألم تر أن المال يكسب أهله .: فضوحا إذا لم يعط منه نواسبه
أرى كل مال لامحالة ذاهبا .: وأفضله ما ورث الحمد كاسبه (٩٢)

ويمول ابن الابير عن مصيده كبير عزه النتي مطلعها :

خيلى هذا ربع عزة فاعقلا .: قلو صيكنما ثم ابكيا حيث حلت

(وهذا القصيدة تزيد على عشرين بيتا ، وهى مع ذلك سهلة
لينة تكاد تترقق من لينها وسهولتها ، وليس عليها من أثر الكلفة
شئ) (٩٣) •

ومما ورد منه فى القرآن الكريم قوله تعالى (اقرأ باسم
ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق) وقوله أيضا (والطور
وكتاب مسطور) وقال أيضا (قال قرينة ربنا ما طغيته ولكن كان
فى ضلال بعيد ، قال لا تختصموا لى وقد قدمت ليكم بالوعيد
ويعلق على هذه الايات قائلا (ولا نجد ذلك فى القرآن الا قليلا) ،
أو ، (وقد ورد فى القرآن الكريم نسيء من اللزوم الا أنه يسير
جدا) (٩٤) •

(٩٢) المثل السائر ج١ ص ٢٧٢ •

(٩٣) المثل السائر ج١ ص ٢٧٣ •

(٩٤) المثل السائر ج١ ٢٧٧ ، ص ٢٧٨

ومما ورد نثرا من كلام العرب قول بنت قيس بن خالد ذي الجدين بعد ما تزوجت غير لقيط بن زرادة بعد موته ، قالت عن لقيط (انه خرج فى يوم دجن وقد تطيب وشرب ، فطرد البقر ، فصرع منها ، ثم أتانى وبه نضح دم ، فضمنى ضمة ، وضمنى نسمة فليتنى مت ثمة ++) (٩٥) فقولها : ضمنى ضمة ، وضمنى سمة ، ومت ثمة ، كلام غير متكلف ولذا عليه رونق الطلاوة والحلاوة .

براعة الاسـتـهـلال

ويسميه بالمبادى والافتتاحات ، أو ببراعة الاستهلال فقد جاء فى كتابه المفتاح المنشأ (وأما براعة الاستهلال : وهو أن تبتدىء بفاتحة الكتاب الذى تكتبه بكلام مخفرع يكون دالا على كافة الكتاب) (٩٦) ولذا آثرناها عنوانا لما يعرف بحسن الابتداء أو المبادى والافتتاحات ، فكلها تسميات لدلول واحد ، وهو ركن ركين للبلاغه والكتابة ، فانه لابد أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورساقة تدلان على ما فى الكتاب ولذا فانه لا يكون الكاتب كاتباً الا اذا أجاد المطلع والمقطع ، وأن يكون المطلع مبنيا على مقصد الكتاب (٩٧) .

ويعرفه ابن الاثير بقوله : (أن يجعل مطلع الكلام من التسعر أو الرسائل دالا على المعنى المقصود من ذلك الكلام) (٩٨) فيكون

(٩٥) المثل السائر ج١ ص ٢٦٩ .

(٩٦) المفتاح المنشأ ص ٣١٥ .

(٩٧) المثل السائر ج١ ص ٧٢ .

(٩٨) المثل السائر ج٢ ص ٢٣٦ .

أول ما يقابل لقارئ، أو لسامع كلاما يستدل به على فهم المعنى الذى وراءه سواء للكتاب أو القصيدة ، وهذا يتطلب من الكاتب أو الشاعر أن يراعى الموضوع الذى يكتب فيه أو ينشد فيه اذ لكل مقام مقال، فما يناسب الغزل ، لا يساير الرثاء ، وما يتطلبه الموضوع الذى يكتب فيه ، فان كان فتحا ونصرا ، أو هزيمة وخزلانا أتى بما يتناسب وذلك، وعليه اذا كان الحدث مهما أن يجعل بهى مطلع كلامه ، كى يزيد فى تشويق السامعين لما بعد هذه المقدمة ، ولذلك فالناس فريقان فى هذا : فريق وعى فأجاد ، وآخر خمل فقصر ، فذكر ما يثقل على النفس مما تنفر ، بل مما تتشائم منه (ومن أدب هذا النوع الا يذكر الشاعر فى افتتاح قصيدة المديح ما يتطير منه وهذا يرجع الى أدب الدرس ، فينبغى أن يحترز منه فى مواضع كوصف الديار بالدثور والمنازل بالعفاء . وغير ذلك من تشئت الالاف وذم الزمان ، ولاسيما اذا كان فى التهانى ، فانه يكون أسد قبحا ، وانما يستعمل ذلك فى الخطوب النازلة والنوائب الحادثة ، ومتى كان الكلام فى المديح مفتتحا بشئ من ذلك تطير منه سامعه (٩٩) .

اذن وجب على مؤلف الكلام أن يحترز ويختار ، فلا يفجأ سامعه بما يكرهه أو يعافه ، وكلما كان بارعا دل فى افتتاح قصيدته على ما تحويه القصيدة بأكملها أو الخطاب برمته .

ولذلك وجدنا ابتداءات القرآن الكريم من ابرع ما جاء فى
الابتداء فنجد السورة أحيانا تبدأ بالنداء الذى يوقظ السامع
ويدعوه للصغاء ، وأحيانا تبدأ بحروف يسيرة ، غاية فى الاعجاز
والغربة ، بل ان معناها يتساوى مع معناها فى النذير أو النصح ،
أو الإرشاد وترك الغى ، ولذا وجدنا ما كان من حرف واحد مثل قوله
تعالى (هـ ، ن ، ق) وما كان على حرفين كقوله تعالى (حم ،
طس) أو ثلاثة فما فوق كقوله تعالى أيضا (الم ، عسق ، كهيعص)
وما شابه ذلك ، وكلها مدلولات لدلالات خاصة مناسبة سبقت فى
مناسبتها ، ودلت على ما عليه الكلام التالى ، وكلها معانى بديعة
وافتاحات بارعة .

فإذا كان استهلال كتاب من الكتب السلطانية ، فيجب على
الكاتب أن يختار من التحميدات ما يكون مناسباً لمعانى الكتب ،
أما إذا أراد الشاعر أن يذكر مكاناً أو بعض المنازل فى قصيدته ،
فيختار من الأماكن والمنازل مارق لفظه ، وحسن النطق به كالعذيب ،
والغوير ، ورامة ، وبارق والعقيق ، وإذا أراد ذكر أسماء النساء
فى الغزل ، فليذكر مارق أيضاً من الأسماء ، نحو سعاد ، وأميمة
وفوز (١٠٠) كما أنه ليس من شرط الابتداء ألا يكون مما يتطير منه
فقط ، فان من الابتداء ما يستتبع وان لم يتطير منه كقول أبى
تمام :

قدك انتب اربيت فى الغلواء .: كم تعذلون وانتم سـجـرائى

اذا هناك ابتداءات يتطير منها كقول اسحق الموصلى للمتعصم
عندما بنى قصره :

يادار غيرك البلى ومحـاك .: ياليت شعرى ما الذى اـبـلاك

فيتطير المعتمـم بذلك وخرب القصر *

ومنها ما يستثقل وان لم يكن مستقبـحا فى معناه كما قال
البحـثرى :

ان للـبـين مـنة لا تـؤدى .: ويـدا فى تـمـاضـر بيـضـاء

فهذا الاسم شوه رقة الغزل *

بالاضافة الى أن هناك ابتداءات نادرة ، كقول المتنـبى متـغـزلا :

انـتراها لكثرة العـشـاق .: تحسب الدمع خلقة فى المـاقى

ومن بارع الابتداءات التى وردت قول اتـسـجـع السـلمى حـيـث

قـال :

قصر عليه تحية وسـيـلام .: خلعت عليه جـمـالها الايام

أو قول الخنساء فى أخـبـها : وقد جمعت جمع المـح فى ببـس :

وما بلغت كف امرى متـناولا .: من المجد الا والذى نلت أفضل

وما بلغ المهدون للناس مدحة .: وان اظنـبوا الا الذى فيك أفضل^(١٠١)

ومن الابتداءات التي وردت فى أوائل الكتب وهى دالة بارعة ومناسبة ، ما قلّه ابن الأثير فى فتح احدى فقال : (هذا الكتاب مشافه بخدمة الهناء للمجلس السامى جدد الله له فى كل يوم فتحا ، وبدل عرش كل ذى سلطان لديه صرخا ، وجعل كل موقف من مواقف جوده وبأسه يوم فطر ، ويوم أضحى ، وكتب له على لسان الاسلام ولسان الايام ثناء خالدا ومدحا ، وأسكنه بعد العمر الطويل دارا لا يظمأ فيها ولا يضحى + + +) (١٠٢) ثم أكمل بعد ذلك الكتاب فى

* الفتح

التخلص والاقتصاب

أولا : التخلص : والتخلص كبراعة الاستهلال فى أهميته للكاتب والشاعر ويعرفه ابن الاثير بأنه عندما يأخذ مؤلف الكلام فى معنى من المعانى فبينما هو فيه اذ أخذ فى معنى آخر غيره وجعل الأول سببا اليه فيكون من بعضه آخذا برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ، ويستأنف كلاما آخر . وهذا التعريف قريب من تعريف الخطيب القزوينى الذى أضاف على معنى هذا التعريف وجوب مراعاة الملازمة بين المعنى المنتقل اليه والمنتقل منه (١٠٢) وهو ما تنبه اليه ابن الاثير (١٠٤) . فقال : هو أن تنتقل من الصفحات ، والإدعية الى المطلوب فى الكتاب ، انتقالا حسنا غير خارج فى اللفظ والمعنى (١٠٥) ، وترجع

(١٠٢) المثل السائر ج٢ ص ٢٥٠ .

(١٠٣) الايضاح ص ٢٤٣ .

(١٠٤) المثل السائر ج٢ ص ٢٦٥ وأيضا أثناء رده على الغانمى كما سوف

نوضح .

(١٠٥) المفتاح المنشأ ص ٣١٥ .

أهمية التخلص الى أن المتكلم لا يشعر بفجوة أو بانقطاع فى الكلام بل يكون الكلام متصلا كأنه يأخذ برقاب بعضه بعضا ، أو كأنما أفرغ افراغا ، ولن يتسنى هذا لكل شاعر أو كاتب ، فلن يستطيعه الا المفلق من الشعراء ، والبارع من الكتاب ، وأفضله ما جاء عفوا غير متكلف أو مصنوع ، هذا ميسور للكاتب ، أما الشعراء فان الوزن والقافية يضيقان عليهم *

فمن أحسن ما جاء فى التخلص قول المتنبى :

وأورد نفس والمهند فى يدى من موارد لا يصدين من لايجال
ولكن اذا لم يحمل القلب كفه من على حالة لم يحمل الكف ساءد
خليلى انى لا ارى غير شاعر من فكم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا ان السيفوف كثرة من ولكن سيف الدولة اليوم واحد

مما دفع ابن الاثير الى قوله تعليقا على هذه الابيات (وهذا هو الكلام الاخذ بعضه برقاب بعض ، ألا ترى الى الخروج الى مدح الممدوح فى هذه الابيات كأنه أفرغ فى قالب واحد ، ثم ان أبا الطيب جمع بين مدح نفسه ، ومدح سيف الدولة فى بيت واحد ، وهو من بدائع المشهورة) (١٠٦) *

وهناك أمثلة عديدة أوردتها للمتنبى وغيره من الشعراء ، وكلها من أحسن التخلص وأبرعه * كقول محمد بن وهب :

مازال يلثمنى مرأشـفه .: ويعلنى الإبريق والقـدح
حتى استرد الليـل خلعتـه .: وبدا خـلال سـواده وضـح
وبدا الصـباح كان غـرته .: وجه الخليفة حين يمتدح (١٠٧)

فساد هذا الرأى ، لان التخلص هو خروج من كلام الى آخر
غيره بلطفية تلائم بين الكلام الذى خرج منه والكلام الذى خرج
اليه ، ومن يتدبر القرآن سوف يرفيه كثيرا من مواضع التخلص ،
كالخروج من الوعظ والتذكير والبشارة بالجنة الى أمر ونهى ووعد
ووعيد ، ومن محكم الى مثالبه ، ومن وصف لنبي الى ذم شيطان
بلطائف دقيقة ومعان يأخذ بعضها برقاب بعض ، وضرب لذلك
مثلا بقصة سيدنا ابراهيم مع قومه (١٠٨) ، وقصة سيدنا موسى
مع قومه حيث قال تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلا
ليقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو ثنئت أهلكتهم من قبل
واياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الافتك تنصل بها
من تشاء ، وتهدى بها من تشاء ، أنت ولينا فاغفرلنا وارحمنا وأنت
خير الغافرين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ، وفى الآخرة انا
هدنا اليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شئ
فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون
الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى

(١٠٧) المفتاح المنشأ ص ٣١٥

(١٠٨) المثل السائر ج ٢ ص ٢٦٦

التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه أولئك هم المصلحون) ففي هذه الايات ذكر الله تعالى موقف موسى من قومه ، فلما أراد ذكر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ذكره بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض ، فعندما قال سيدنا موسى عليه السلام (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) أجابه سبحانه وتعالى بقوله : (قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين) صفاتهم وحالهم كذا وكذا وهم الذين (يتبعون الرسول النبى الأمى) ثم جاء سبحانه وتعالى بصفات سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حتى ختم الكلام • (١٠٩) كما يرى أيضا أن سورة سيدنا يوسف عليه السلام مليئة بالتخلصات والخروج من معنى الى آخر • كما أورد لنفسه مجموعة من كتاباته ورسائله تدليلا على فهمه واستيعابه وتذوقه للتخلص (١١٠) ومثلما أتى بالتخلصات الفخمة الفحلة أو البديعة المستحسنة أتى أيضا بالوان من التخلص البارد الخالى من مسحة الجمال والاقتضاب منه أولى ، كقول المتنبى عندما أراد الخروج من الغزل الى المديح :

(١٠٩) المثل السائر ج٢ ص ١٦٩ •

(١١٠) المثل السائر ج٢ ص ٢٦٩ : ص ٢٧١ ك

غدا بك كل خلو مستهما . : . وأصبح كل مستور خليعا
أحبك أو يقولوا جر نمل . : . ثبيرا وابن ابراهيم ريعا (١١١)

فيراه تخلصا باردا — وحق له ذلك — لانه خال من مسحة
الجمال ، ولذا فالإقتضاب أحسن منه ، لانه جاء مستكرها *

الافتضاب

الافتضاب عكس التخلص ، لان الافتضاب يقطع كلام الشاعر
الذى هو فيه ، ويستأنف كلاما آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير
ذلك ، ولا يكون للثانى علاقه بالاول (١١٢) وقد يكون وصل الكلامين
بلفظة « أما بعد » أو « هذا » *

فعندما يفتتح المتكلم كلامه بحمد الله وذكره ، يثنى بذكر
العرض الذى ساق الكلام من أجله ، فيأتى بلفظة أما بعد ليفصل
بين ذكر الله تعالى وحمده وبين ما أراد بهذه اللفظة ، وهو فى
هذا يرتفع الى منزلة قريية من التخلص

أما لفظة هذه فهي علاقة وكيدة بين الخروج من كلام الى
كلام آخر غيره . وقد وردت هذه اللفظة فى القرآن الكريم فى أكثر

(١١١) المثل السائر ج٢ ص ١٧٤ وابن ابراهيم هو : على بن ابراهيم
القنوخى *

(١١٢) المرجع السابق ص ٢٥٩ *

من موقع ومنال ذلك قوله تعالى :

(واذكر عبادنا ابراهيم وابسحق ويعقوب أولى الايدي والابصار ، أنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وأنهم عندنا لمن المصطفين الاخيار ، واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب جنات عدن مفتحة لهم الابواب) فأورد ذكر الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وعندما أراد أن يذكر بابا آخر غيره وهو ذكر الجنة وأهلها قال (هذا ذكر) ثم قال (وان للمتقين لحسن مآب) ، وعندما أكمل الكلام وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال : (هذا وان للطاغين شر مآب) وكما يقول ابن الاثير (وذلك من فصل الخطاب الذى هو الطف موقعا من التخلص) (١١٣) . كما يأتى بأشعار وردت فيها لفظة (هذا) لكنها ما جنة وينتهى الى حكم عام خلاصته أن الاقتضاب فى الشعر لا يحصى ، بخلاف التخلص الذى هو بالنسبة الى الاقتضاب قطرة من بحر ، كما أن التخلص يأتى فى شعر الشاعر المجيد قليلا أما الاقتضاب فهو كثير فى شعر الشعراء ، من ذلك قول أبى نواس فبينما هو يصف الخمر ويقول :

فاسقنى كاسا على عذل . . . كرهت مسموعة افنى
من كميت اللون صافية . . . خير ما سلسلت فى بدنى
ما استقرت فى فؤاد فتى . . . فدرى مالموعة الحزن

حتى قال :

تضحك الدنيا الى ملك : قام بالاثار والسنن
سن للناس الندى فندوا : فكان البخل لم يكن

فامتدح بعد وصف الخمر مقتضبا ، ولذا فان ابن الأثير يخرج
بحكم عام على شعر ابى نواس قائل (فأكتر مدائح ابى نواس
مقتضبه هكذا ، والتخلص غير ممكن فى كل الاحوال وهو من
مستصعبات علم البيان) (١١٤) *

الالتفاتات

هذا الفن من فنون البلاغة يتناوشه علمان من علوم البلاغة هما
المعانى والبديع فاما ان البديع يجب فيما يخسب الكلام رخرفا
وابدعا ، فان الفائدة المرجوة من الالتفاتات هى كسب الكلام طلاوه
ورخرفا وابدعا لان السامع عند ما يسمع احدى صور الالتفاتات
فانه يجد لذلك التحويل لده ومتعه لا يجدها للكلام عندما يخلو
من الالتفاتات ، ولما فيها من الجدة والطرافه فينشد فكره وينشط
عقله وحياله لفهم مرامى الصورة الالتفاتية ، وتبعا لذلك فان لعلم
البديع نصيبا فى الالتفاتات *

وأيضا علم المعانى فانه يفضى بتطبيق الكلام على مقتضى
الحال ، فاذ نظرنا الى الشق الاخر من الالتفاتات — اعنى ما يكون
من فوائد — لوجدنا أن صور الالتفاتات تتطلب مزيدا من اصغاء

السامع ، والمقام يقتضى أيضا جذب اهتمام السامع لعظم المقام ،
أو لخطر شأنه ، كأن يكون المقام مدحا فى عظيم ، أو بيان دليل
ومن ثم يكون الالتفات مبحثا من مباحث علم المعانى •

ولذا فان من اعتبره من مباحث علم البديع نظر الى كون
الالتفات يكسب الاسلوب طرافة وزخرفا ، ومن اعتبره رافدا من
روافد المعانى نظر الى أنه يراعى المقام الذى سيق فيه •

وان كنت أرى أنه بعلم البديع الحق لأن علم البديع كما هو
معروف العلم الذى يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية
تطبيعه على مقتضى الحال ، ووضوح الدلالة ، فهذا دليل على أن
البديع يأتى بعد ان يكون المتكلم مد طبق تسروط علمى المعانى
والبيان ، اى مقتضى الحال ووضوح الدلالة ومن ثم فان منزله
علم البديع بعد منزله علمى المعانى والبيان • وهذا ما يحدث فى
الالتفات فانه يراعى مقتضى الحال ، ثم يدبج ويزخرف الاسلوب
بعد ذلك •

ومهما يكن من أمر فان هذا الفن واضح ظاهر فى ذهن ابن الاثير
وكما سوف يتضح لنا فانه حق له أن يتتبعه على غيره بدراسته له (١١٥)
ويسميه شجاعه العربية ، اسوة بالشجاعة الحسية لدى الانسان
الشجاع بل هو فى نظره خلاصة علم البيان مع أشياء أخرى مماثل •

تعريفه : يعرفه ابن الاثير بأنه الانتقال من صيغة الى أخرى ،
كالانتقال من خطاب حاضر الى غائب ، أو غائب الى حاضر ، أو من

من هذا النوع هو التوسع فى الكلام ، بل ثمة هدف اكبر من ذلك وأبلغ ، اذ القصد من ذلك بالاضافة الى ما تقدم تضخيم حال من أجرى عليه فعل الامر • وتعظيمه ، وعليه جاء قوله تعالى حكاية عن قوم هود (ياهود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال انى اشهد الله ، واشهدوا انى برىء مما تشركون) ، فسياق الكلام يقتضى بأن يقول انى اشهد الله واشهدكم ليكون موازنا له وبمعناه ، غير أنه عدل عن هذا لان اشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما اشهادهم ، فما هو الا تهاون بهم وقلة اكتراث لامرهم ، فلاختلاف ما بينهما عدل عن المضارع الى الامر فقال : واشهدوا (١١٨) •

٢ — الرجوع عن الفعل الماضى الى فعل الامر ، وتأتى هذه الصيغة توكيدا لما أجرى عليه فعل الامر لمكان العناية بتحقيقه ، كقوله تعالى (قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) فرجع عن الماضى الى الامر فقال : (أمر وأقيموا وادعوه أى للعناية بتوكيده فى النفوس لان الصلاة تؤكد فرائض الله على خلقه ، ثم أتبعها بالاخلاص الذى هو عمل القلب) (١١٩) •

٣ — الاخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل ، فالمضارع اذا

(١١٨) المثل السائر ج٢ ص ١٤ والجامع الكبير ص ١٠١ •

(١١٩) المرجع السابق ص ١٤ •

من هذا النوع هو التوسع فى الكلام ، بل ثمة هدف اكبر من ذلك وأبلغ ، اذ القصد من ذلك بالاضافة الى ما تقدم تضخيم حال من أجرى عليه فعل الامر * وتعظيمه ، وعليه جاء قوله تعالى حكاية عن قوم هود (ياهود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ، ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال انى اشهد الله ، واشهدوا انى برىء مما تشركون) ، فسياق الكلام يقضى بأن يقول انى اشهد الله واشهدكم ليكون موازنا له وبمعناه ، غير أنه عدل عن هذا لان اشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما اشهادهم ، فما هو الا تهاون بهم وقلة اكتراث لامرهم ، فلاختلاف ما بينهما عدل عن المضارع الى الامر فقال : واشهدوا (١١٨) •

٢ — الرجوع عن الفعل الماضى الى فعل الأمر ، وتأتى هذه الصيغة تأكيدا لما أجرى عليه فعل الامر لمكان العناية بتحقيقه ، كقوله تعالى (قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) فرجع عن الماضى الى الامر فقال : (أمر وأقيموا وادعوه أى للعناية بتوكيده فى النفوس لان الصلاة تؤكد فرائض الله على خلقه ، ثم أتبعها بالاخلاص الذى هو عمل القلب) (١١٩) •

٣ — الاخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل ، فالمضارع اذا

(١١٨) المثل السائر ج٢ ص ١٤ والجامع الكبير ص ١٠١ •

(١١٩) المرجع السابق ص ١٤ •

جىء به فى حالة الاخبار عن وجود الفعل كان أبلغ من الاخبار
بالفعل الماضى ، وذلك لان الفعل المضارع يوضح الحال التى يقع
فيها ، ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها ، وان الفعلين
يشتركان فى ذلك ، الا أن الفعل المضارع أوكد وأشد تخيلا لأن
السامع يستحضر صورة الفعل حتى كأنه ينظر الى الفاعل فى حالة
وجود الفعل منه ، وذلك كقوله تعالى (والله الذى أرسل الرياح
فتثير سحابا ، فسقناه الى بلد ميت ، فأحيينا به الارض بعد موتها ،
كذلك النشور) ، فبالرغم من تقدم الفعل الماضى وهو «أرسل»
وتأخره أيضا وهو «أحيا» الا أنه أخبر بالمضارع عن الماضى
فقال تثير فهو حكاية الحال التى يقع فيها اثاره الريح السحاب ،
كما أن فيه استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على الله سبحانه
وهكذا يفعل بكل فعل فيه تمييز وخصوصية كحال تستغرب أوتهم
المخاطب ، ومثله قول تأبط شرا فى قتله الغول :

بأنى قد لقيت الغول تهوى . . . بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت . . . صريعا لليعين ، وللجران

فأخبر عن الماضى بالمضارع فقال « فأضربها » لانه أراد أن
يصور لقومه الحال التى تشجع فيها على ضرب الغول ، كأنه يبصرهم
اياها مشاهدة للتعجب من جرائته فلو قال ، فضربت بها بالماضى عطفًا
على لقيت لزالَت هذه الفائدة المذكورة ، فهو بهذا دعى السامع
الى أن يتخيل قيامه بالضرب وأمامه الغول وقد رفع السيف ليضربها
ولن يتم هذا الا اذا كان التعبير عنه بالمضارع ، بدلا من الماضى (١٢٠).

٤ — الاخبار عن الفعل المضارع بالماضى ، وفائدة ذلك أن الفعل الماضى اذا اخبر به عن الفعل المضارع الذى لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأؤكد فى تحقيق الفعل وإيجاده ، لان الفعل الماضى يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد ، وانما يفعل ذلك اذا كان الفعل المضارع من الاشياء العظيمة التى يستعظم وجودها ، تلك التى لم توجد ، والامور المتعظمة التى لم تحدث فينزل منزلة ما كان وما وجد فالغرض بذلك تبين هيئة الفعل واستحضار صورته لتظهر أمام السامع وكأنه يعاينها أو يشاهدها ، وهذا هو الفرق بين هذا النوع وبين سابقة ، وأمثلة ذلك كثيرة منها قوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض) ، فقال « ففزع » بالماضى بعد ما قال « ينفخ » بالمضارع وذلك للاشعار بتحقيق الفزع ، وهو واقع لا محالة ، فالتعبير بالماضى دل على وجود الفعل وأنه مقطوع بحدوثه (١٢١) *

٥ — الاخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع ، وقد أوردته فى أقسام الفعل ، وذلك لقرب اسم المفعول فى عمله من عمل الفعل ، لانه يحل محله ويتضمن معناه ، من ذلك قوله تعالى : (ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، وذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود) فأتى باسم المفعول لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لذلك اليوم (١٢٢) *

(١٢١) المثل السائر ج ٢ ص ١٨ والجامع ص ٢٠٤ *

(١٢٢) المثل السائر ج ٢ ص ١٩ *

ثانيا : فى الاسماء

١ - من الغيبة الى الخطاب : ويستعمل هذا الاسلوب للتفنن فى الكلام والاتساع فيه ، كما أن الانتقال من اسلوب لاسلوب فيه تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للاصغاء اليه ، هذا بالإضافة الى أنها تستعمل لتعظيم شأن المخاطب كقوله تعالى فى سورة الفاتحة (الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، اياك نعبدواياك نستعين ،اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فهذا رجوع من الغيبة الى الخطاب، ومن قوائده أنه ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من الربوبية العامة ، والملك الخاص ، فعلم العالم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالخضوع له ، والاستعانة به فى المهمات ، فخطوب ذلك المعلوم الموصوف بتلك الصفات ، فقل : اياك نعبد يا من يتصف بهذه الصفات أى نخصك بالعبادة ، والاستعانة ، ليكون أدل على العبادة ، لذلك التميز الذى لا تحقق العبادة الا به ، فان قوله (اياك نعبد ، واياك نستعين) بعد قوله (الحمد لله رب العالمين) عدول من الغيبة الى الخطاب للاتساع من ناحية ولان الحمد دون العبادة من ناحية أخرى ، فقد يحمّد الانسان للانسان صنيعا أو معروفا ، لذا استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة فى الخبر فقال « الحمد لله » ولم يقل « الحمد لك » فلما وصل الى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال (اياك نعبد) فخطب بالعبادة اصراحا بها وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء الى محدود منها •

أما آخر السورة فقد قال فيه (صراط الذين أنعمت عليهم)
فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ثم قال « غير المغضوب عليهم »
عطفا على الاول لان الاول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ،
فلما صار الى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب ، فأسند
النعمة اليه لفظا وزوى عنه لفظ الغضب تحتنا ولطفنا •

ففى هذه قد انتقل فى أولها من الغيبة الى الخطاب لتعظيم
شأن المخاطب وعكس فى آخرها فانتقل من الخطاب للغيبة لتعظيم
شأن المخاطب أيضا ، لان مخاطبة الله سبحانه وتعالى بإسناد النعمة
اليه تعظيم لشأنه ، وخطابه ، كذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب اليه
تعظيم لخطابه (١٢٣) ومن هذا القبيل قول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح ؟ سقيت الغيث أيتها الخيام

(ذكر الخيام ثم شرع فى كلام آخر وهو قوله « بذى طلوح »
ثم التفت وقال : سقيت الغيث أيتها الخيام) (١٢٤) •

٢ — الرجوع من خطاب الغيبة الى خطاب النفس : كقوله
تعالى : (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها ، وللارض
اتتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات
فى يومين ، وأوحى الى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا
بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم) فقد التفت فيه من
الغيبة فى قوله تعالى (ثم استوى) ، وقوله (فقضاهن) وقوله

(١٢٣) المثل السائر ج٢ ص ٥ ، ص ٦ ، ص ٧ •

والجامع الكبير ص ٩٨ ، ص ٩٩ •

وأنظر المثل السائر ج٢ ص ٧ وتحليله للالتفات فى سورة الاسراء •

(١٢٤) المفتاح المنشا ص ٣١٤ •

(وأوحى) الى التكلم فى قوله تعالى (وزينا) فالعدول من مخاطبة الغيبة الى مخاطبة النفس مهم من مهمات الاعتقاد ، وفيه تكذيب للفرقة المكذبة المعتقدة ببطلان أن النجوم ليست فى السماء الدنيا ، وأنها ليست حفظا ولا رجوما (١٢٥) •

٣ — الالتفات من التكلم الى الخطاب كقوله تعالى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى واليه ترجعون) فصرف الكلام عن خطاب نفسه الى خطابهم ، لأنه أبرز الكلام لهم فى معرض المناصحة ، وهو يريد منا صحتهم ليتطلف بهم ويداريهم ، لان ذلك أدخل فى امحاض النصح حيث لا يريد لهم الا ما يريد لنفسه وقد وضع قوله (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) مكان قوله : وما لكم لا تعبدون الذى فطركم ، ألا ترى الى قوله (واليه ترجعون) ولولا أنه قصد ذلك لقال الذى فطرنى واليه أرجع ، وقد ساقه ذلك المساق الى أن قال (انى آمنتم بربكم فاسمعون) (١٢٦) •

٤ — من الخطاب الى الغيبة : كقوله تعالى (حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين لئن أنجيتنا من هذه ل نكونن من الشاكرين) فقد صرف الكلام من الخطاب الى الغيبة لئلا يذكر حالهم لغيرهم ، ليدفعهم على

(١٢٥) المثل السائر ج٢ ص ٨ •

(١٢٦) المثل السائر ج٢ ص •

التعجب منهم والانكار عليهم ، فلو قال : حتى اذا كتتم فى الفلك
وجرين بكم بريح طيبة ، وفرحتهم بها ، وساق الخطاب معهم الى
آخر الاية لذهبت تلك الفائدة الناتجة عن خطاب الغيبة (١٢٧) •

• — الرجوع من خطاب التثنية الى خطاب الجمع ، ومن خطاب الجمع الى خطاب الواحد :

كقوله تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما
بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر
المؤمنين » فقد نوع الخطاب فى هذه الاية الكريمة ، فثنى ، ثم
جمع ، ثم وحد ، فخطب موسى وهارون عليهما السلام بالنبوة
والاختيار ، ثم ساق الخطاب لهما باتخاذ المساجد ، واقامة الصلاة
ثم خص موسى بالبشارة التى هى الغرض ، تعظيما له وتثخيما
لامره لأنه هو الرسول على الحقيقة (١٢٨) •

مما يتقدم يتضح لنا القول فى الالتفات ، وكان ابن الاثير
موفقا عندما نعته بأنه من شجاعة العربية تشبيها لها بالانسان
الشجاع وقد حصره فى اللغة العربية دون غيرها من اللغات ، وهو
بجانب ما يفيد من الاتساع فى الكلام فانه يساق لأغراض خاصة
كالتعظيم والتفخيم ، بالاضافة الى أنه يكسو الكلام طلاوة ، كما
أن الكلام اذا نقل من اسلوب لآخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع

(١٢٧) المثل السائر ج ٢ ص ١٢ والجامع الكبير ص ١٠٠

(١٢٨) الجامع ص ١٠١ ، ١٠٢ •

وايقاظا للاصغاء اليه ، عكس اجرائه على اسلوب واحد ونمط
متمشابه ، ولذا يقول عنه ابن الاثير انه خلاصة علم البيان (التي
حولها يدندن واليها تستند البلاغة ، وعنها يعنعن) (١٢٦) .

السـرقات الشعرية

تناثرت دراسة ابن الاثير لهذه القضية عبر كتبه ، الا انه قد
خصص لدراستها كتاب « الاستدراك فى الأخذ على المأخذ الكندية
من المعانى الطائفة » (١٢٧) ، ولئن دراسته للسـرقات فى هذا الكتاب
دراسة غير كافية فانه تكلم فيه عن النسخ ، والسـلخ ، والمسـخ
فقط ، ولقد استدرك على نفسه بعد ذلك فتناول نوعين آخرين من
السـرقات كما سوف نوضح ، يقول : (واعلم أن علماء البيان قد
تكلموا فى السـرقات الشعرية فأكثرو ، ونبت ألفت فيه كتابا ،
وقسمته ثلاثة أقسام : نسخا ، وسـلخا ومسـخا) (١٢٨) . وهذا دليل
على أنه ألفه قبل المثل السائر

تناول هذه المشكلة فى كتبه متناثرة الا أن أوفى دراسة لها عنده
كانت فى المثل السائر ، أما دراسته لها فى الجامع الكبير أوالمفتاح
المنشأ فليست بالعمق الذى هى عليه فى المثل السائر ، فلم نجد
التحليل والموازنة التى فى المثل ، بل دراسة متبورة مستوفزة تحت
عنوان (الأخذ والسـرقة والاشارة الى الجيد من ذلك الذى لا بأس
به ، والردى الذى لا فسحة فى استعماله ، لانه عيب فى الكلام

(١٢٦) المثل السائر ج٢ ص ٤ .

(١٢٧) مشكلة السـرقات فى النقد العربى ص ١٢٧ .

(١٢٨) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٥ .

شاحش) (١٣٢) * وان كان منهجه وعرضه واحد ، فهو يميل الى الكثير من التقسيم والتبويب ، سأنه فى دراسته تلك كئسانه فى دراسته السابقة لفنون البلاغة *

وهناك دراسة قيمة استفدت منها كثيرا عند معالجة هذا الفن كما سوف يتضح ، وهى دراسة مشكلة السرقات فى الادب العربى فقد تناول المؤلف أثناء عرضه لناهج النقاد العرب فى بحث السرقات ، منهج ابن الاثير فى دراسة لهذه القضية عبر كتبه (١٣٣) *

يحدد ابن الاثير منذ البداية ، فائدة دراسة السرقات ، فهى توضح للشاعر كيف يأخذ المعانى من غيره، اذ لابد من الاخذ والسرقة غير أن الآخذ لابد له أيضا أن يعتمد على التورية والخفاء لا أخذه، فيكون أخذه أخفى من سفاذ الغراب (١٣٤) *

كما يقرر أيضا أن باب الابتداع مفتوح الى يوم القيامة، فصيافة المعانى وابتداعها يتساوى فيه الشعراء ، فلا فضل لسابق على لاحق (لان الخواطر تأتى من غير حاجة لى اتباع الاخر) (١٣٥) ، وذلك مثل المعانى المقرورة التى تدولت بين الجميع وصارت معروفة شائعة ، كما يجىء فى الغزل ، أو فى المديح ، أو فى المراثى ، وفى النهاية يخلص الى أن المعنى العام ليس فيه سرقة ، بل تطلق السرقة فى رأيه على المعنى المخصوص ، أما ما شاع وانتشر بين القوم أو

(١٣٢) الجامع ص ٢٤٢ *

(١٣٣) انظر مشكلة السرقات ص ١٢٧ : ص ١٣٤ *

(١٣٤) المثل السائر ج٢ ص ٢٦٢ *

(١٣٥) المثل السائر ج٢ ص ٢٦٣ *

القبيلة فهذا من توارد الخواطر (ولعمري ان القوم اذا كانوا من قبيلة واحدة ، فان خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم تكون متقاربة) (١٣٦) • ومن ثم فليس هناك سرقة •

لكن الغريب أنه لم يثبت على قول مى دراسته للسرقة ، فهو تارة يقول (والذي عندي فى السرقات أنه متى أورد الآخر شيئاً من ألفاظ الأول فى معنى من المعانى ، ولو لفظة واحدة ، فان ذلك من أول الدليل على سرقة) (١٣٧) وأخرى يرى (أن المعانى مشتركة بين أرباب هذه الصناعة ، وانما يتفاضلون فى تركيبها ، واختلاف صورها) (١٣٨) ، وثالثة يرى أن هذا من توافق الخواطر وتواردها ولا شىء فى ذلك ، (وأما الموارد : هى أن يتفق اختراع المثلى لانشاء من قبله من الافاضل ، فذلك دليل على قوة انشائه وحسن خاطره) ويستدل على ذلك بأبيات للحطيئة ، أنشدها ابن ميادة فقال:

ونواره ميل الى الشمس ظاهرة ٢٠

ف قيل لابن ميادة هذا الحطيئة قال : أكذلك هو ؟ قيل نعم • فقال الان علمت أنى شاعر ، ما سمعت بهذا الا الساعة (١٣٩) •

أما فى الاستدراك فانه يتكلم عن عمود المعانى ، فالذى يخرج عن هذا العمود ، يكون معنى انفرد به الشاعر دون غيره ، ومن

-
- (١٣٦) الجامع الكبير ص ٢٤٣
 - (١٣٧) المثل السائر ج ٢ ص ٣٦٥
 - (١٣٨) الجامع الكبير ص ٢٤٤
 - (١٣٩) الغتاج المنسا ص ٣١٧

يأخذه منه يكون سارقاً له (١٤٠) ، أما المعانى التى لا يمكن أن تنتسب
عن هذا العمود فان قائلها بلغ النهاية فيها ، ولم يترك زيادة
لمستزيد ، ولذا علق عليه د. / هدارة قائلها (ومعنى هذا أن باب
الابتداع الذى قال عنه ابن الاثير انه مفتوح الى غير نهاية ، ليس
مفتوحاً بالنسبة لجميع المعانى ، فهناك معان ضغطت مائيتها ولم
يبق الاول منها لالاخر مماله يضيف اليها رحيق فكره ، وأخرى لم
تستنفد لان الاوائل لم يلحوا عليها كثيراً بخيالهم) (١٤١) وهذا
محال ، فالقرائح تجود بما عندها ، كل حسب ثقافته واستعداده

كما رأى أن السرقات الشعرية لا يمكن الوقوف عليها الا بحفظ
الاتسار الكثيرة التى لا يحصرها عدد فى عصور الادب المختلفة
وليس عصر دون عصر (فمن رام الاخذ بنواصيها ، والاشتمال
على قواصيها ، بأن يتصفح الأشعار تصفحاً ، ويقتنع بتأملها ناظراً
فانه لا يظفر منها الا بالصواشى والاطراف) (١٤٢) * والدليل
على ما وجده ابن الانير فى كل من دمشق سنة سبع وثمانين وخمسمائة
ومصر سنة تسع وتسعين وخمسمائة حيث وجد أهل المصريين
يلهجون بأبيات ويزعمون أنها من المعانى الغريبة التى عقت القرائح
بعدها أن تلد مثلها ، فأوقفهم على حقيقتها وأخبرهم بأن ابن الخياط
أخذ معناه من المتنبي ، وعمارة اليمنى أخذ معناه من أبى تمام (١٤٣)
ولم يبعد العهد والزمن لا بالمتنبى ، ولا بأبى تمام فكيف يكون الحال
لن بعد عهده ، ودرس شعره *

(١٤٠) مشكلة السرقات ص ١٣٣ .

(١٤١) مشكلة السرقات ص ١٣٤ .

(١٤٢) المثل السائر ج٢ ص ٣٦٦ .

(١٤٣) المرجع السابق ج٢ ص ٣٦٧ .

ولذا كانت عدته فى التأليف ، الوفوف من التسعر على كل ديوان ومجموع ، المحفوظ منه والمسموع ، فلما رآه بحرا لا يوقف على ساحله ولم تحص أسماء قائله . اقتصر على ما تكثر فوائده ومنتسب مقاصده ، فوجد ضالته المنتودة فى أشعار المتنبي فابى تمام والبحترى فهم عنده (لان لتسعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابه المحدثين الى فصاحة القدماء وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء) (١٤٤) ولذى هداه لذلك ، النظر والاجتهاد ، وليس التفكير والاتفاق ، وبعد هذا التمهيص اختار دواوينهم لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعانى والالفاظ ، وهذا عليه لاله لان الاخرى به أن يتناولها عند غيرهم من الشعراء ولكن يكفيه ما قدم فهو جهد محمود له .
فقد درس ، وقسم ، وفرع *

فقد قسم ابن لامير السرقات الى أقسام خمسة نم سعب وفرع من هذه الأقسام ما ياتى .

أولا — النسخ : ويقع على ضربين :

(أ) أخذ اللفظ والمعنى جميعا دون زيادة عليه ويسمى وقوع الحافر على الحافر كقول امرىء القيس :

وقوفا بها صبحى على مطيهم .: يقولون لا تهلك أس وتحمل

(١٤٤) المثل السائر ج٢ ص ٦٨ وان كان فى كتبه الاخرى لم يتقيد كثيرا بهذا الفيد انظر الجامع مثلا ص ٢٤٤ وما بعدها *

فقد أخذه طرفه وخالف فى لفظ واحد فى فقال :

وقوفا بها صحبى على مطيهم .: يقولون لا تهلك أسا وتجلد

وقد أكر الفرزدق وجريير من هذا فى شعرهما ، وأحيانا يتساويان لفظا بلفظ لدرجة قيل انهما كانا ينطقان فى بعض الاحوال عن ضمير واحد ، وان كان ابن الاثير يستبعد ذلك (١٤٥) .

(ب) أخذ المعنى وأكثر اللفظ ، مثل قول قائل فى مدح معبد المعنى :

أجاد طويس والسريجي بعده .: وما قصبات السبق الا لمعبد

أخذه أبو تمام فقال :

محاسن اصناف المغنين جملة .: وما قصبات السبق الا لمعبد

الثانى السليخ : وهو أخذ بعض المعنى ، مأخوذاً ذلك من سليخ الجلد الذى هو بعض الجسم المسلوخ وقد قسمه الى أحد عشر ضربا (١٤٦) ، ويرى أن هذا التقسيم أوجبته القسمة ، وأقسامه هى : وأقسامه هى :

١ — أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا يكون هو إياه ، وهذا من أدق السرقات مذهباً ، وأحسنها صورة ولا يأتى الا قليلا لان الشاعر يعميه على غير عارفيه فتكون معرفة أن هذا

(١٤٥) المثل السائر ج٢ ص ٣٧٢ .

(١٤٦) المثل السائر ج٢ ص ٣٧٣ وان نص على أنه اثنا عشر ضربا لكنه

لم يذكر الضرب الثانى عشر .

المعنى من ذاك عسرة غامضة ، فهو غير متبين الا لمن كان أعرق
 فى ممارسة الاشعار وغاص فى استخراج المعانى كقول الشاعر :
 لقد زادنى حيا لنفسى أننى .: بغيض الى كل امرئ غير طائل
 فأخذه المتنبي واستخرج منه معنى آخر الا أنه سببته فقال :
 وإذا أنتك مذمتى من ناقص .: فهى الشهادة لى بأننى فاضل
 وهذا النوع يتنوع بين الغموض والوضوح *

٢ - أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ ، وذلك مما يصعب جدا ،
 ولا يكاد يأتى الا قليلا ، كما يننوع بين الغموض والدقة والغرابة
 كقوله عروة بن الورد :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا .: من المال يطرح نفسه كل مطرح
 ليلبغ عذرا او ينال رغبة .: ومبلغ نفس عذرها مثل منبج
 أخذه أبو تمام فقال :

فتى مات بين الضرب والطعن مية .: تقوم مقام النصر اذ فاته النصر
 ٣ - أخذ المعنى ويسير من اللفظ ، وذلك من أقبح السرقات
 وأظهرها شناعة على السارق ، وهذه المآخذ افتضح بها البحترى غاية
 الافتصاح وتبعه فى نفس الطريق فحول الشعراء ، من ذلك قول أبى
 تمام :

فلم امدحك تفخيما بشعرى .: ولكنى مدحت بك المديحا

فقد أخذه من قول حسان بن ثابت، في مدحه للرسول ﷺ :

ما ان مدحت محمدا بمقالتى .: لكن مدحت بمقالتى محمدا (١٤٧)

ولذا يرى ابن الانير في هذا الضرب أنه لابد من مخالفة المتأخر المتقدم ، كأن يأخذ المعنى فيزيده معنى آخر ، أو يوجز في لفظة أو يكسوه عبارة أحسن من عبارته ، فإذا لم يفعل الشاعر ذلك ووضع ما أخذه واضحا بينا دلّ على نفسه بالسرقه كقول المتنبي :

لم يسلم الكرمي الاعقاب مهجته .: ان كان أسلمها الاصحاب والشييع

أخذه من قول أبي تمام من قصيده على وزنها وقافيتها :

ما غاب عنكم من الافدام اكرمه .: في الروع اذا غابت الانصار والشييع

وليس في السرقات الشعرية أقبح من هذه السرقة (١٤٨) •

٤ — وهو أن يؤخذ المعنى فيعكس ، وذلك حسن يكاد يفرجه حسنه عن حد السرقة لأنه من السرقات الخفية جدا ولأن يسمى ابتداءا أولى من أن يسمى سرقة كقول أبي الشيص :

أجد الملامة في هواك لذيذة .: شغفا بذكرك فليملنى اللوم

الذى أخذه المتنبي فعكسه قائلا :

أحب فيه ملامة .: ان الملامة فيه من أعدائه (١٤٩)

(١٤٧) المثل السائر ج٢ ص ٣٧٧ •

(١٤٨) المثل السائر ج٢ ص ٣٧٩ •

(١٤٩) السابق ج٢ ص ٣٨٠ •

٥ — أخذ بعض المعنى ، كقول على بن جبلة :

وائل مالم يحوه متقدم .: وان لئه اخر فهو تابع

فأخذ بعضه المتنبي فقال :

ترفع عن عون المكارم قدره .: فما يفعل الفعالت الا عذاريا

فالمتنبي فعل مالم يفعل غير ، أما ابن جبلة ، فانه أيضا فعل
مالم يفعل أحد ممن تقدمه أيضا ، وان نال منه الآخر شيئا فانما
هو مقتد به وتابع له *

٦ — وهو أن يؤخذ المعنى فيزداد عليه معنى آخر ، كقول

المتنبي :

وملمومة زرد ثوبها .: ولكنّه بالقنامخمل

فقد أخذه من أبي نواس ، في قوله :

امام خميس أرجوان كانه .: قميص محوك من قنا وحياد

فزاد أبو الطيب على معنى أبي نواس ، فصار أحق منه به

٧ — وهو أن يؤخذ المعنى فيكسى عبارة أحسن من العبارة

الاولى وهذا هو المحمود الذي يخرج به حسنه عن باب السرقة (١٥٠)

كقول أبي تمام :

جذلان من ظفر حران ان رجعت .: مخضوبة منكم انظاره بدمي
أخذه البحتري فقال :

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها .: تذكرت القربى ففاضت دموعها
٨ — ان يؤخذ المعنى ويسبك سبكاً موجزاً ، وذلك من أحسن
السرقات ، لما فيه من الدلالة على بسطه الناظم في القول وسعة
بأعه في البلاغة ، كقول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته .: وفاز بالطيبات الفاتك اللهج
أخذه سلم الخاسر فقال :

من راقب الناس مات غماً .: وفاز باللذة الجسور

فبين البيتين لفطنتان في التأليف (١٥١) *

٩ — وينقسم الى قسمين :

(أ) أن يكون المعنى عاماً فيجعل خاصاً ، وهو من السرقات
التي يسامح فيها صاحبها (١٥٢) كقول الأخطل (١٥٣) *

لأنه عن خلق وتأتى مثله .: عار عليك إذا فعلت عظيم

(١٥١) المثل السائر ج٢ ص ٣٨٨ *

(١٥٢) المثل السائر ج٢ ص ٣٩٠ *

(١٥٣) والمشهور أنه لابي الاسود الدؤلى *

أخذه أبو تمام فقال :

الوم من بخلت يدها واعتدى .: للبلخ نزيا ؟ ساء ذلك صنعا

فالاول نهى عن الاتيان بما ينهى عنه مطلقا ، وجاء بالخلق منكرا فجعله شائعا فى بابيه ، أما أبو تمام ، فانه خصص ذلك بالبلخ ، وهو خلق واحد من جملة الاخلاق *

(ب) جعل الخاص عاما كقول ابى تمام :

ولو حاردت شول عذرت لقاحها .: ولكن منعت الدر والضرع حافل

أخذه المتنبي فجعله عاما :

وما يؤلم الحرمان من كف حارم .: كما يؤلم الحرمان من كفرأزق (١٥٤)

١٠ — زيادة البيان مع المساواة فى المعنى ، وذلك بأن يؤخذ

المعنى فيضرب له مثال يوضحه كقول أبى تمام :

هو الصنع ان يجعل فنفع وان يرث .: فللريث فى بعض المواطن أنفع

فقد أخذه المتنبي فأوضحه بمثال ضربه له وقال :

ومن الخير بطة سيبك عنى .: أسرع السحب فى المسير الجهام

وهذا من المبتدع ، لا من المسروق ، وما أحسن ما أتى بهذا

المعنى فى المثال المناسب له (١٥٥) *

(١٥٤) انظر المثل السائر ج٢ ص ٣٩٠ *

(١٥٥) انظر المثل السائر ج٢ ص ٣٩١ *

١١ — اتحاد الطريق واختلاف المقصد ، ومناله أن يسلك

الشاعران طريقا واحدة ، فتخرج بها الى موردين أو روضتين ،
وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر (١٥٦) فمما جاء منه قول النابغة:

إذا ما غزى بالجيش حلق فوقه .: عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيلة .: إذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا المعنى توارد عليه كثير من الشعراء قديما وحديثا وأوردوه

كثيرا فقال أبو نواس :

تتمنى الطير غزوته .: ثقة باللحم من جزره

وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها .: فمن يتبعه في كسل مرتحل

وكلها معان لا تفاضل بينها الا من جهة السبك أولا يجاز في
اللفظ أما مسلم بن الوليد ، فقد أعرب في هذا المعنى فسلك هذه
الطريق مع اختلاف مقصده اليها فقال :

أشربت أرواح العدا وقلوبها .: خوفا فانفسها اليك تطير
لو حاكمك فطالبتك بذلها .: شهدت عليك ثعالب ونسور

فهذا من المليح البديع الذي فضل به مسلم على غير في هذا
المعنى (١٥٧) وأيضا فهذا من المليح البديع لابن الاثير مما حدا
بالدكتور / محمد هدارة الى القول :

(١٥٦) المثل السائر ج٢ ص ٣٩١ .

(١٥٧) المثل السائر ج٢ ص ٤٠٤ .

(ولاشك أن هذا الضرب جديد عند ابن الاثير ، اذ أن يخرج
عن حدود المعانى الجزئية فى البيت الواحد ، ليلمح تأثر الشعراء
بعضهم ببعض فى قصائدهم ذات الموضوع الواحد ، ينظر اليها
بوصفها وحدة ، ويتحسس التأثير والتأثير فى مجموع المعانى لا فى
مفرداتها • ويستطيع بهذه النظرة أن يدرك استيحاء المتأخر من
المتقدم ، ويفاضل بين شاعر وآخر ، ويتبين تطور المعنى من شاعر
لاخر ومن عصر لعصر ، وتلك هى الدراسة الجدية الحقيقية التى
يعنى بها النقد من وراء مشكلة السرقات) (١٥٨) •

ثالثا : المسخ وهو قلب الصورة الحسنة الى صورة قبيحة ،
أى احالة المعنى الى مادونه ، مأخوذا من مسخ الآدميين قردة (١٥٩)
وهذا من أرذل السرقات (١٦٠) كقول أبى تمام :

فتى لا يرى أن الفريضة مقتل . . . ولكن يرى أن العيوب مقاتل

وقول المتنبى :

يرى أن ما بان منك لضارب . . . باقتل مما بان منك لعائب

(فهو وان لم يشوه المعنى ، فقد شوه الصورة) (١٦١) •

أما الشق الاخر من المسخ وهو قلب الصورة القبيحة الى

(١٥٨) مشكلة السرقات ص ١٣١ •

(١٥٩) المثل السائر ج ٢ ص ٣٦٦ •

(١٦٠) السابق ص ٤١٠ •

(١٦١) السابق ص ٤١٠ •

صورة حسنة ، فانه لا يراها سرقة ، بل يراها اصلاحا وتهذيبا (١٦٢) وما دام الامر كذلك فانها ليست من المسخ فى شىء ، بل اصلاح لما أفسد على يد من لا يعى *

أما القسمان الاخيران ، وهما الرابع ، والخامس ، واللذان أدخل بذكرهما فى كتابه الاستدراك وهما : أخذ المعنى مع الزيادة عليه ، وعكس المعنى الى ضده واكد أنه سوف يتناولهما فى المثل السائر فاننا لم نجد لهما ذكرا ، ولربما أنست ابن الاثير هذه الاقسام الكثيرة والتفريعات العديدة ذكر هذين القسمين ، وان كان أورد ضمن انواع الثانى وهو السلخ بعض الالوان التى تنطبق عليها تسمية هذين النوعين الا أن كلامه الذى ينص على أن هذين النوعين ليسا بنسخ ولا سلخ ، ولا مسخ (١٦٣) يدحض ذلك ، فأين اذن بقية الاقسام ؟ *

يبقى بعد ذلك لابن الاثير هذا الجهد العلمى النقدى الرائع الذى يدل مع الشق الاول وهو دراسة البلاغة على ذوق الرجل وعلمه ورسوخ قدمه فى مضمار النقد والبلاغة ، ويكفيه ما قدم ، ومن أراد المزيد ، فليبحث ولينقب شريطة أن يسير على الدرب دون كلل أو ملل *

وبهذا ايضا نكون قد أنتهينا من دراسة ابن الاثير للبلاغة بفنونها الثلاثة المعانى والبيان والبديع ، وللحق فان للرجل نظرات صائبة وتذوق يفوق غيره كثيرا ممن تصدوا للتأليف البلاغى فقد

(١٦٢) السابق ص ٤١١ *

(١٦٣) السابق ص ٣٦٦ *

ناقش وعلل ومثل وحلل ونقد وصوب ، وأتى بمسميات لم يسبق اليها • كما أن البلاغة يجب أن تدرس كما قسمها الى صناعة معنوية وأخرى لفظية ، ولا كما هو معروف من علم معان وبيان وبديع لأن البديع يجب أن يضم الى فنى المعانى والبيان ، وقد رأينا صدق ذلك خاصة فى دراسة الألتفات ، فيكفى الرجل ما قدم •

وبهذا تنتهى دراسة الرجل لفنون الفصاحة والبلاغة فضرب فيها بسهم وافر وسبر أغوارها وغاص لججها فاستخرج دررها من محارها ونثرها فى كتبه سالفه الذكر كما نشرت فوق العروس الدراهم فازداد كل منهما جمالا بصاحبه ورحم الله ابن لاثير الجزرى على ما قدم للمكتبة العربية البلاغية من جهد يقف به على قدم المساواة مع من ألف فى البلاغة خاصة رجالات المدرسة الأدبية البلاغية •

الخاتمة

وبعد *** فهذا جهد ابن الاثير وهو جهد صادق سابق لم يسر فيه وفق منهج السكاكى أو غيره ممن درسوا البلاغة على أنها ثلاثة فنون ، بل قسمها هو الى الصناعة اللفظية ، والاخرى الصناعة المعنوية ، وأدرج تحت كل قسم منها ما يتصل به من عناصر بلاغية ، كما أنه لم يتقيد بالتسميات الموروثة • ونعتقد أنه أراد أن يدل الكتاب على أسس وقوام صناعتهم وهذا واضح من تسمية كتبه سواء المثل أو الجامع أو المفتاح فقد وضع فيهم أسس وأصول حرفة الكتابة فهي لم تفرد للبلاغة وحدها بل دمج الكتابة واصولها مع البلاغة •

ونحن اذا أقصينا ما يخص الكتابة — لأن ذلك بعيد عن البلاغة — لم نجد بدا من التقسيم الثلاثى للبلاغة حتى نضم شتات كل فن الى أصوله أو مع ما يناظره (فالحديث عن هذه الفنون البيانية يأتي عنده متداخلا على حسب ما تستدعيه طبيعة البحث) (١) •

ومن دراستنا لهذا الجهد الأصيل نقول ان الرجل كان مولعا بالتقسيم والتفريع ، والاعتداد بنفسه الى حد كبير ، وصل به الى أن يأخذ من غيره وينسبه لنفسه ثم يرمى غيره بالخطأ والخطأ وتلك صفة واضحة فى ابن الاثير أدت به الى الوقوع فى بعض الأخطاء نوهنا عنها فى حينها وذلك — على سبيل المثال لا الحصر — مثل موقفه من دراسة المجاز وعييه على غيره والعيب فيه هو ،

(١) فى البلاغة ص ٤٠ علم البيان دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت سنة ١٩٧٤ د. / عبد العزيز عتيق •

كما أنه لم يفرق بين التشبيه والتمثيل ، وقسمه من حيث اللفظ ، ومن حيث المعنى كما أنه خلط أيضا بين الاستعارة والتشبيه مضمرا الاداة ، كما أدخل المشاكلة ضمن الطباق والمقابلة وألحق الجمع مع التفريق والتقسيم ضمن التقسيم ، وبالجمله فانه مزج كثيرا بين الوان البديع بعضها وبعض كما أوضحنا ذلك فى حينه • ولكن يكفى الفاضل أن تعد أخطاءؤه ، فانه اذا كان قد وجدت عنده بعض هذه الهنات التى فرضها عليه المنهج الذى اختطه لنفسه فيكفيه دراسته للفصاحة والبلاغة ونظراته الصائبة فيها ، وأيضا تفريقه بين الكناية والتعريض ، كما أنه رأى ان الطباق جزء من المقابلة ولذا يتوجب اقترانهما ببعضهما بعضا ، وأتى بشكل واضح وواعى للجناس والمطلق بالجناس وفرق بينهما الى غير ذلك مع الكثير من التقسيمات والتفريعات التى يلتقى فيها مع السكاكى أحيانا لكن البون شاسع والفرق كبير ، لأن تفريعات ابن الأثير يلونها الفن والذوق الادبى الرفيع ، أما تقسيمات السكاكى فيلونها المنطق ، ويكفى ابن الأثير هذا •

المصادر والمراجع^(١)

ابن الأثير : ابو الفتح نصر الله بن أبى الكرم محمد بن محمد بن الأثير .

— الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام ،
والنثور تحقيق مصطفى جواد ، وجميل سعيد .
مطبعة المجمع العلمى العراقى سنة ١٩٦٥م .

— المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر طبع المطبعة
المصرية ببولاق سنة ١٢٨٢ هـ .

— المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر . تحقيق
المرحوم محمد محبى الدين عبد الحميد ، مطبعة
الباب الطبى بمصر سنة ١٩٣٩ .

— المفتاح المنشأ لحديقة الانشا . مخطوط بدار الكتب
المصرية تحت رقم ٤٩٣٤ أدب .

— الوشى المرقوم فى حل المنظوم والنثور . مطبعة
ثمرات الفنون بمصر سنة ١٢٩٨ .

ابن جنى :

— الخصائص . دار الهدى للطباعة والنشر بيروت
لبنان الطبعة الثانية .

(١) هذه هى أهم المصادر والمراجع التى عولنا عليها فى الدراسة .

احمد بن اسماعيل بن الاثير الحلبي :

— جواهر الكنز : تحقيق د/ محمد زغلول سلام
منشأة المعارف بالاسكندرية •

احمد الهاشمي :

— جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع الطبعة
الثانية عشرة •

الحسن بن عبد الله العسكري ، أبو هلال :

— الصناعتين : الكتابة والشعر ، طبع دار الكتب
العلمية ، بيروت ، لبنان طبعة أولى سنة ١٩٨١ •

الخطيب التبريزي :

— الكافي في العروض والقوافي ، تحقيق الحساني
حسن عبد الله ، طبع دار الجيل للطباعة بالقاهرة
لم تذكر سنة الطبع •

الخطيب القزويني :

— التلخيص في علوم البلاغة • شرح عبد الرحمن
البرقوقى • طبع دار الفكر العربى ، لبنان طبعة
ثانية سنة ١٩٣٢ •

— الايضاح في علوم البلاغة • دار الجيل بيروت
لبنان لم تذكر سنة الطبع •

الدسوقي سلامة :

— المدخل في علوم البلاغة مطبعة السعادة بمصر
سنة ١٩٥٦ طبعة ثالثة •

— ٢٧٥ —

عبد القاهر الجرجاني :

- أسرار البلاغة فى علم البيان • دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان سنة ١٩٧٨ •
- دلائل الاعجاز • دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان ١٩٨٧ •

عبد اللطيف حمزة :

- القلقشندى فى كتابة صبح الأعشى عرض وتحليل سلسلة الأعلام • العدد ٨١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ •

عبد العزيز عتيق :

- فى البلاغة العربية — علم البيان — دار النهضة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان سنة ١٩٧٤ •

عمرو بن بحر الجاحظ :

- البيان والتبيين دار الكتب العلمية بيروت لبنان لم تذكر سنة الطبع •

محمد مصطفى هدارة :

- مشكلة السرقات فى النقد العربى المكتب الاسلامى ، الطبعة الثالثة ١٩٨١ •

محمد مرتضى الزبيدى •

- تاج العروس من جواهر القاموس منشورات دار مكتبة الحياة بلبنان •

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
١١	البلاغة عند ابن الأثير
٢٧	الفصاحة والبلاغة عند البلاغيين
٤٣	فصاحة الكلمة
٥٥	فصاحة الكلام
٦١	فصاحة المتكلم
٦١	البلاغة
٦٥	فصاحة الكلمة عند ابن الأثير
٨٢	فصاحة الكلام عند ابن الأثير
٩٥	دراسات ابن الأثير لفنون البلاغة
٩٨	علم المعاني
٩٩	الأسلوب الخبرى
١٠٤	الأسلوب الانشائى
١٠٨	أحوال الاسناد
١١١	الايجاز والأطناب والمساواة
١٤٧	علم البيان
١٥١	المجاز وعلم البيان
١٥٦	التشبيه

الصفحة	الموضوع
١٦٧	الاستعارة
١٧٤	الكتاية والتعريض
١٨٥	البديع
١٨٨	المصنات المعنوية
١٨٨	الطباق والمقابلة
١٩٣	المشاكلة
١٩٥	التقسيم
١٩٧	اللف والنشر
١٩٩	الاقتصاد والأفراط والتفريط
٢٠٤	التجريد
٢٠٧	التورية
٢٠٩	الارصاد
٢١٢	العكس والتبديل
٢١٥	المصنات اللفظية
٢١٥	الجناس
٢٢١	السجع والازدواج
٢٢٥	التصریح
٢٢٨	الترصیع
٢٣٠	التوشیح
٢٣٢	الموازنة

الموضوع	الصفحة
لزوم مايلزم	٢٣٤
براعة الاستهلال	٢٣٦
التخلص والاقتضاب	٢٤٠
الالتفات	٢٤٦
السرققات الشعرية	٢٥٦
الخاتمة	٢٧١
المصادر والمراجع	٢٧٢



« تم بحمد الله »

رقم الايداع ٤٣١٨ / ٨٦

الترقيم الدولي : ٧ - ١٥ - ١٥٤ - ٩٧٧

مطبعة الأشعاع الفنية

لها جميعاً، (فما جوسف) ولله المنة والفرح
العمارة البلدة - بخري - شارع مسجد الأوقاف

